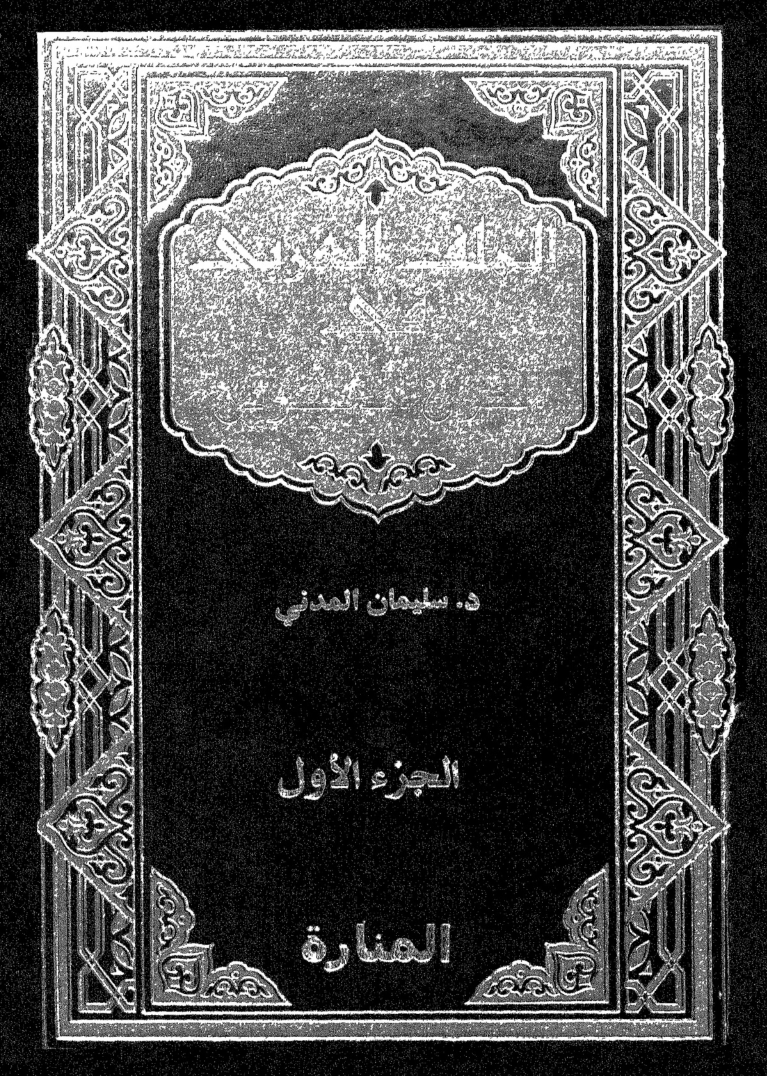

د. سليمان المدني
الجزء الأول
المنارة

الملف العربي
في القرن العشرين

الملف العربي
في القرن العشرين

الجزء الأول

د. سليمان المدني

المنارة

الطبعة الأولى

١٩٩٨م - ١٤١٩ هـ

المنارة

للإنتاج الإعلامي والفني

بيروت : الحمراء - ص .ب ١١٣/٥٧٢٠

دمشق : ص .ب ٧٨٧ - هاتف: ٢٢١٢٩٦٧ -

فاكس :٢٢٣٤٣٣٦ - ١١ - ٩٦٣

تقديم

لماذا هذا الملف .. ؟ :

كثيرون أولئك الذين طرحوا علي هذا السؤال عندما علموا أنني قررت العمل فيه. وكان العديد منهم يرى بأن إعادة نبش التاريخ قد يساهم في تجسيد الخلافات العربية بطريقة أو بأخرى. وكانت هناك فئة من السوداويين الذين لا يرون في تاريخنا العربي المعاصر شيئاً يستحق أن نفخر فيه. خاصة وأن الشعارات التقدمية التي الهبت حماس الشارع العربي عموماً في فترة الستينات قد انحسر تأثيرها وغدت سطراً من سطور التاريخ القديم إذا جاز التعبير.

أضف إلى هذا أن هنالك الآن نظاماً عالمياً جديداً يسعى لبسط نفوذه على العالم أجمع، وأن من الأسلم لنا أن نسير في ركب هذه الصرعة الجديدة بإرادتنا الحرة قبل أن نلتزم بها مرغمين كعادتنا. وأن محاولة التأريخ هذه ليست بالظاهرة الصحية لأنها ستعيد لأذهان البعض بعض الأوهام عن الأمجاد المزعومة والعنتريات التي أكل عليها الدهر وشرب. وأن إعادة مثل هذه الأفكار إلى الأذهان ستعيق بدورها التزامنا بالنظام العالمي الجديد.

وأن هذا بحد ذاته ليس من مصلحة الوطن في شيء.

وطبعاً إن سماعي لمثل هذه الآراء شكل لدي صدمة مؤلمة. خاصة وأنها آراء صادرة عن طبقة من المثقفين الذين كانوا وحتى الأمس القريب يؤمنون بالحرية والتقدمية والوحدة العربية..

وأدركت تماماً بأن ما يسمى بالنظام العالمي الجديد. أو بمعنى أصح بأن القائمين على تثبيت النظام العالمي الجديد قد تمكنوا ومن قبل أن يطرحوه على الشعوب من ترويض هذه الشعوب وتحضيرها لتقبل مثل هذا النظام بل واللهاث خلفه وكأنه وحده الأمل الذي يسعون إليه ـ ثم عادت إلى ذاكرتي بعض بنود بروتوكولات حكماء صهيون القائلة بأن الصهيونية العالمية سوف تشغل الشعوب بالعديد من الشعارات البراقة وتجعلها تلهث خلفها وتصفق لخطابئها ثم تمهد لتحقيقها وممارستها بشكل سيىء يجعل الشعوب تندم على السنوات التي أضاعتها هباءً وعلى الشهداء اللذين سقطوا من أجل تحقيق تلك الشعارات. ثم تعمد على إسقاط تلك الأنظمة بحيث تترك الشعوب في فراغ فكري يبحث من جديد عن نظام جديد وبديل. وعندها فقط تطرح نظامها العالمي الذي سيلتف حوله كل أولئك التائهين في أصقاع الأرض، الذين كفروا بكل ما سبق لقادتهم أن طرحوه من شعارات. واهزموا من داخلهم وأضحت لديهم قناعة تامة بالعجز عن قيادة أنفسهم وأن الأولى لهم أن يسيروا في ركب سادة العالم الجدد الذين يمتلكون وبحق القوة والمال. ومن البديهي أن تلك الشعوب والحالة هذه ستتنكر لتاريخها وتتهرب منه، لأنه سيعيدها إلى مسرحية مهترئة لم تعد تتناسب والذوق الجماهيري المعاصر. وفي هذه النقطة بالذات تكمن الخطورة. إذا أن التهرب من مراجعة التاريخ سيسلخ الشعوب من جذورها، ويجعلها عديمة المبدء والهدف. إضافة إلى أن ذلك سيمكن القائمين على النظام العالمي الجديد من تزيف الكثير من الحقائق دون أن يجدوا من يعترض عليهم بل على العكس، سيجدون من يصفق لهم ويمتدحهم ويطالبهم بالإسراع في إنقاذهم من بؤرة تاريخهم العفن.

ونحن بدورنا لم نسلم من هذه المعاناة. وبالرغم من عظمة تاريخنا وحضارتنا الماضية نرى الكثيرين من أبنائنا لا يعرفون شيئاً عن تاريخ أمتهم. وإذا ما عرفوا شيئاً تكون معرفتهم عنه مشوهة ومبتورة. وذلك لأن تاريخنا وبكل أسف لم يكتب حتى الآن من وجهة نظر محايدة. لأن المؤرخين غالباً ما كانوا مضطرين للتزلف للسلاطين واصحاب النفوذ الذين يؤرخون في ظل سلطتهم.

لذلك لا بد لنا من إعادة صياغة التاريخ بحرفيته، ودون محاباة لأية جهة كانت. لأن التاريخ أحداثاً وقعت. بخيرها وشرها. ولا يمكننا تجاهل حادث قد حدث بالفعل لأن سلطاناً ما يرغب بذلك.

وقد يستغرب الكثيرين من أبناء هذا الجيل مثلاً أن تقول لهم أن البوسنة والهرتسك التي تشهد اليوم الحروب الطاحنة كانت قبل مئة عام فقط جزءاً من الإمبراطورية العثمانية التي كنا بدورنا ولاية من ولاياتها الشاسعة. وأننا إن كنّا الآن نشاهد أحداثها على شاشات التلفزة العالمية بلا مبالاة فإن آبائنا وأجدادنا قد سبق لهم أن حاربوا هناك، واستشهد الكثيرين منهم وذلك قبل مائة عام فقط، عندما كنا أمة اسلامية واحدة.

وإن كان تاريخنا المعاصر قد شهد الكثير من النكبات والإنهزامات فماذلك إلا لأننا أنسلخنا عنه. ولم نتعظ بتجاربه وتركنا مهمة التفكير فيه لأعدائنا، فصاغوه لنا بالصورة التي يريدون، وسيروا أمورنا كما يشتهون، وقدموا أنفسهم لنا كأصدقاء خلصاء أمناء. حتى جعلونا ننسى تماماً أنهم هم الذين حاربونا في يوم من الأيام، وقضوا على حضارتنا وساهموا في إقامة الكيان الصهيوني في عقر دارنا. فقد استمرت علاقتنا مع الإتحاد السوفييتي على سبيل

المثال ما يزيد عن الربع قرن. كنا نتصوره صديقاً حميماً يتألم لآلامنا ويواسينا في أتراحنا، ونحن نعلم علم اليقين تلك الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإتحاد السوفييتي هو أول دولة في العالم اعترفت بقيام اسرائيل.

وكذلك الآن، نرى معظم الدول العربية قد رضيت في السير وفقاً للنظام العالمي الجديد الذي تقوده في العلن الولايات المتحدة الأمريكية بينما هو في حقيقته جزء من الأمبراطورية اليهودية التي يحلم بإقامتها بني صهيون.

لذلك نعود لنؤكد على أن عدم قراءة التاريخ يجعلنا في حالة من الضياع والا معرفة بحيث لا نميز بشكل حقيقي بين الصديق والعدو. كما يجعلنا بالتالي عرضة للنكبات المتتالية التي تعيق تقدمنا وتساهم في إبقائنا كأتباع لاهثين خلف الدول العظمى.

ونوضح هنا بأن التاريخ عموماً تراث عالمي ومترابط فيما بينه، ولا يمكننا تأريخ حياة أمة من الأمم دون الربط بينها وبين التاريخ العام للشعوب في تلك الفترة. وسيدرك القارىء ذلك عندما يتصفح هذا الملف، فبالرغم من تركيزنا بالدرجة الأولى على أحداث الوطن العربي نجد أنفسنا ملزمين بمعرفة ما يجري على المستوى العالمي. فالحربين العالميتين الأولى والثانية على سبيل المثال فرضتا نفسيهما على التاريخ العربي وكذلك الأطماع الأوربية فرضت نفسها أيضاً مما جعل هذا الملف يضم التاريخ العالمي، وإن كان يعطي الأولية للمحيط العربي.

أضف إلى هذا أن لكل حادث في الكون جذوراً أساسية قديمة أدت إلى حدوثه بطريقة أو بأخرى. ونحن عندما نتحدث عن التاريخ منذ بداية القرن العشرين نجد أنفسنا ملزمين بين وقت وآخر للعودة إلى ما قبل ذلك بكثير حتى

نقدم الصورة المطلوبة للحدث بكل جلاء ووضوح. فمع بداية هذا القرن على سبيل المثال. كان السلطان عبدالحميد لازال يحكم الامبراطورية العثمانية. وهذا بدوره يفرض علينا أن نتحدث عن الكيفية التي توصل بها هذا السلطان إلى سدة الحكم. وعن حالة الأمة العربية عموماً، وعن الدسائس والمؤامرات التي تحيكها الدول المعادية، وعن جذور تلك الدسائس والمؤامرات والحروب.. الخ...

مفهوم العالم العربي

إن رغبتنا في تأريخ مئة عام من حياة الأمة العربية يتطلب منا أولاً وقبل كل شيء تحديد الموقع الجغرافي لكافة البلدان التي سنتحدث عنها ومدى ارتباطها الحقيقي بالعروبة.

فقد اتسع بالتدريج مدلول لفظة «العرب» خلال القرون التي تلت ظهور الاسلام وانتشاره. ففي البداية ـ ومنذ أقدم الازمنة التي ترجع اليها ـ النقوش ـ كان يقطن شبه جزيرة العرب في الجاهلية شعبان:

أحدهما كان معظمه من القبائل الرحل، وكان مجال تنقله في البلاد الممتدة من نهر الفرات إلى قلب شبه الجزيرة العربية حتى الحدود الجنوبية للحجاز ونجد. وكان الشعب الآخر يحيا معظمه حياة مستقرة، وقد استوطن في مرتفعات الجنوب، وهي ـ بصورة عامة ـ تتمثل في بلاد اليمن وحضر موت.

وكانت لفظة «عرب» تطلق، في معناها السلائلي (الاثنو غرافي) الضيق على الشعب الاول وحده، ولكن ذلك المعنى قد هُجر اليوم، ولم تعد له قيمة إلا في علم أصول الاجناس. وأصبحت لفظة «العرب» وعبارة «العالم العربي» تستعملان في مجال أوسع كثيراً، سيتضح بعد قليل.

فقد صاحب نشر الدين الاسلامي توسع قُدّر له أن يؤدي إلى أعظم المشاهد في الفتوحات البشرية التي عرفها العالم. فحين بدأت جيوش المسلمين

زحفها من قلب شبه الجزيرة العربية بُعَيْد وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، شقت طريقها قدماً في كل اتجاه تستطيع أن تزحف إليه براً. فاجتاحت بلاد الشام، في الشمال، وزحفت إلى الاناضول وهددت القسطنطينية. وفتحت العراق، في الشرق، ثم بلاد فارس والقسم الأكبر من بلاد الافغان، واجتازت نهر جيحون إلى البلاد التي تعرف اليوم بتركستان. واستولت على مصر، في الغرب، والساحل الافريقي الشمالي جميعه، وحين بلغت شاطيء الاطلسي اتجهت شمالاً عند جبل طارق فاجتاحت إسبانية وعبرت جبال بيرانيس إلى فرنسة فاستولت على افينيون وكاركاسون وناربون (نربونه) وبرودو. ولم تكد تمضي مائة سنة على وفاة محمد (ص) حتى كانت الامبراطورية العربية تمتد من شبه جزيرة ايبرية في الغرب، على طول السواحل الجنوبية للبحر الابيض المتوسط، إلى ضفتي نهر السند وبحر آرال في الشرق، لا يفصل بين بلادها فاصل. وخلال القرون التالية كان يضاف إلى هذه الامبراطورية أو يقتطع منها بلاد أخرى في كلا طرفيها. ولكنها حفظت نفسها في نطاق هذه الحدود المترامية زمناً طويلاً كان كافياً ليطبعها بطابع عربي ثابت، وقد سجل الحكم العربي فصلاً رائعاً في تاريخ الانسانية. ولم تكن عظمة العرب في أنهم فتحوا تلك الرقعة الفسيحة من العالم المعروف آنئذ، بل كانت في أنهم منحوا تلك البلاد حضارة جديدة.

ويمكن القول بأن التطور الفكري الذي أحدثه العرب، كان نتيجة لعاملين أحدهما ديني محض، والآخر اجتماعي في جوهره. ومع أن هذين العاملين مضيا في طريقين متوازيين غير انهما كانا متمايزين، ويختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً في نقطتي البداية والنهاية.

تمثل الاول في الدعوة إلى الاسلام ونشره، فاستطاعت العقيدة الجديدة

التي دعا إليها النبي محمد (ص) أن تبدّل من الحياة الروحية لملايين الناس الذين اعتنقوها لعدة أسباب. وتمثل العامل الثاني في التعريب، وكان له مظهران: التعريب اللغوي، وذلك بأن أخذ أهل البلاد المفتوحة يكتسبون اللغة بالتدريج حتى حلت محلّ لغتهم الأصلية. والتعريب العرقي، وقد تم بهجرة جماعات كبيرة من العرب الخلص إلى تلك البلاد، فنجم عن امتزاجهم بها وتزاوجهم بأهلها أن اختلط الدم العربي بدمائهم، بل غلب عليها في بعض الاحوال.

وكانت ظاهرة التعريب أسبق الظاهرتين. ففي القرون التي سبقت ظهور الاسلام كانت القبائل العربية تتدفّق على بلاد الشام، والعراق في جموع غفيرة، أو تتسرب اليها في مجموعات صغيرة ـ تبعاً لشدة العوامل الاقتصادية وضغط مطالب الحياة. وفي القرنين اللذين سبقا ظهور المسيح كانت بعض القبائل العربية تحكم في حمص والرها وفي البلاد المتاخمة لساحل البحر الأبيض المتوسط. بل لقد شهد القرن الثالث الميلادي قيام مملكتين عربيتين مزدهرتين في تدمر والحيرة. وقد هاجرت جموع غفيرة من العرب إلى بلاد الشام والعراق في أعقاب هذه الموجات واستقرت هناك وامتزجت بالسكان. وكذلك كان أثر اللغة العربية واضحاً ملموساً، وان لم يكن عميقاً جداً. ومع ذلك فان الكيان الاساسي للحضارة في هذه البلاد لم يتغير تغيراً جوهرياً. أما في القرن السابع فقد جاء هؤلاء الفاتحون ـ تحت راية الاسلام ـ مزودين بقوة روحية لم تتح لهم في أية هجرة سابقة. ولم يستطع شيء أن يقف في طريق هذه القوة، وانهار النظام القديم للحضارات الواهية ذات الاصول المتعددة: اليونانية الآرامية في بلاد الشام، والساسانية في العراق، واليونانية القبطية في مصر، وفسح المجال للعقيدة الجديدة.

وقد عملت هاتان الظاهرتان: نشر الاسلام والتعريب، في هذه المرحلة معاً، ومع ان الصلة بينهما كانت وثيقة جداً، فانه لا يجوز الخلط بينهما بأي وجه، بل ان حدود امتدادهما لم تكن واحدة. فقد انتشر الاسلام ـ وهو في جوهره قوة روحية ـ في ميادين أوسع، واستطاع أن يتخطى من الحواجز ما قصر التعريب عن اجتيازه أحياناً لأنها تستلزم هجرة مادية. وبوجه عام فإن كل قطر رسخت فيه العروبة وثبتت رسخ فيه الاسلام وثبت. ولكن العكس غير صحيح، فثمة أقطار مثل: فارس وبلاد الافغان أسلم أهلها جميعاً وثبت فيها الاسلام، ومع ذلك فان تعريبها لم يتم إلاّ في نطاق ضيق لا يعتد به في هذا المجال. وشبيه بهذا، وإن لم يكن تمام الشبه،

الاختلاف بين مظهري عامل التعريب، وهما: نشر اللغة العربية، وانتشار العنصر العربي، فقد اختلفا في قوة الاثر وفي اتساع المدى. فالقيود الطبيعية والاقتصادية تحدد طاقة كل قطر على استيعاب المهاجرين الوافدين من خارجه، حتى حين تتم الهجرة بدافع علوي كما حدث في موجات الاستيطان العربي أمّا انتشار اللغة فلم يخضع لهذه القيود، ولذلك فقد ظلت اللغة العربية تنتشر حتى أصبحت لها الغلبة الكاملة، بينما انحصر انتشار العنصر العربي في مجال أضيق. فمن بين البلاد المتاخمة لحدود شبه الجزيرة العربية، استوعب القسمان المعروفان اليوم باسم فلسطين وشرق الاردن، أكبر نسبة من العنصر العربي، وكان حظ بلاد الشام والعراق دون ذلك، وحظ مصر أقل منها.

وفي أقل من ثلاثة أجيال تبدلت حياة الاقطار تبدلاً كاملاً.

ومع أن الدين الجديد الذي كان يدعو اليه هؤلاء الفاتحون لم يعمّ سكان البلاد كلهم، غير انهم جميعاً ـ ما عدا أقليات ضئيلة متفرقة ـ اتخذوا اللغة العربية

لغة لهم، واقتبسوا، مع اللغة، عادات هؤلاء الفاتحين ومناهج تفكيرهم. أما الحضارة الجديدة التي قامت مكان الحضارة القديمة فلم يدخلها هؤلاء الوافدين الجدد معهم من الخارج، وإنما كانت نتاجاً مركباً نجم من تفاعل مزودج متبادل، فكان ثمرة الحياة التي بعثها الفاتحون المسلمون فيما وجدوه هناك من ثروة من الافكار والمواهب، وان كانت ثروة مهملة كاد يصيبها الفناء.

وقد اختلفت الحضارة الجديدة ـ في مظاهرها الخارجية فقط ـ في الاقطار المختلفة، بما يتفق والتباين في الاستعداد الحضاري لدى السكان المحليين. ولكنها اشتركت جميعها في وجهين: في الدين وفي اللغة، بكل ما يشمله هذان العنصران من مقاييس ونظرات جديدة.

وبينما أتاح الاسلام لمجتمعات كثيرة في البلاد المفتوحة أن تحتفظ بدينها القديم، وبينما أصيب الاسلام نفسه بانقسام مذهبي كالذي حدث بين السنة والشيعة، فقد احتفظت اللغة العربية بوحدتها وأضحت لها الغلبة والسيادة في كل مكان، وصارت، قبل نهاية القرن السابع، لغة الدولة فضلاً عن أنها أصبحت لغة غالب السكان، على الاقل في بلاد الشام والعراق.

واستمر تقدم الدين الاسلامي واللغة العربية بخطوات سريعة خلال القرون التالية بفضل ما فيهما من قوى انتشار خارقة.

وهكذا وجد عالمان، أحدهما أكبر من الآخر كثيراً هما: العالم الاسلامي والعالم العربي، وكان الاول يشتمل على الثاني.

ومع مرور الزمن امتد العالم الاسلامي إلى الهند والصين وإلى أقصى حدود

إفريقية من الغرب، بينما ظل العالم العربي محصوراً في البلاد التي بلغ فيها التعريب من العمق درجة نجم عنها ثلاث نتائج دائمة:

١ ـ سيادة اللغة العربية واتخاذها لغة قومية.

٢ ـ اقتباس العادات العربية ومناهج التفكير.

٣ ـ استيطان جماعات كبيرة من العرب وأمتزاجهم بأهل البلاد.

والعالم العربي اليوم هو هذه الاقطار التي استمر تأثر الكثرة الغالبة من سكانها بتلك المؤثرات الثقافية والاجتماعية. وبذلك لا تدخل فيه اسبانية وجزر البحر الابيض المتوسط لأنها، بعد زوال الحكم العربي عنها، قامت فيها قوى أخرى طمست آثار التعريب أو طغت عليها.

وكذلك لا تدخل فيه بلاد فارس وتركية وبلاد الافغان وجميع البلاد التي تقع وراء السند ونهر جيحون، حيث لم تكن اللغة العربية قط لغة قومية.

أما البلاد التي يشتمل عليها العالم العربي فهي تلك السلسلة المتصلة من الاقطار الممتدة من شواطىء الاطلسي غرباً، على طول الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط، إلى حدود بلاد فارس شرقاً، أي: ساحل افريقية الشمالي من مراكش إلى مصر، ثم بلاد الشام والعراق، ثم شبه جزيرة العرب.

وقد تغير مضمون كلمة «عربي» تبعاً لذلك، فلم تعد تقتصر دلالتها على أفراد القبائل الرحل الذين كانوا هم سكان شبه الجزيرة العربية بل أصبحت، مع الزمن، تدل على «المواطنين» في هذا العالم العربي المتسع الارجاء، وليس المقصود بالمواطن أي مستوطن فيه، وإنما يقصد به أفراد الكثرة الغالبة من

السكان الذين ينحدرون من سلالات ـ ان لم تكن ذات دم عربي خالص ـــ فقد غلب عليها التعريب وطبعها بطابعه، واصطبغت عاداتها وتقاليدها بصيغة عربية، وأدلّ تعريف بهم أن يقال انهم هم الذين أصبحت العربية لغتهم الاصلية. وبذلك يطلق هذا اللفظ على المسيحيين كما يطلق على المسلمين، ويشتمل فِرَقهَما المختلفة، إذ ان مردّ الامر ليس إلى اعتناق الدين الاسلامي، وإنما إلى مقدار التأثر بالتعريب.

هذه هي حدود العالم العربي اليوم في معالمها العامة إذا أغفلنا بعض الثغرات المتفرقة، ولقد كانت هي نفسها، حدوده، مع اختلاف طفيف في مطلع القرن السادس عشر حين زحف الفاتح التركي من وهاد الاناضول واتجه إلى القاهرة، فأرسى قواعد الامبراطورية العثمانية الحديثة.



العالم العربي في القرون الوسطى

الأجزاء المظللة تمثل المناطق التي اكتمل تعريبها واستمر بصورة دائمة

الفتح العثماني

يمكن القول بأن فتح السلطان سليم لمصر سنة ١٥١٧ هو مرحلة فاصلة من مراحل امتداد النفوذ العثماني على العالم العربي. فقد أصبح السلطان سليم سيد العراق وبلاد الشام بعد انتصاراته الحاسمة على شاه فارس سنة ١٥١٥ ثم على سلطان مصر في السنة التالية، وبذلك دخل القاهرة، واستطاع ـ في بضعة أشهر ـ أن يثبت حكمه في مصر. وقد مكث في مصر مدة قصيرة وفد عليه فيها رسل شريف مكة، فقدموا له الطاعة، وسلموه مفاتيح البلد المقدس، ومنحوه لقب خادم الحرمين الشريفين، وهو شرف رفع من قدره في العالم الاسلامي، ويُشَكّ في أنه كذلك انتحل لنفسه لقب الخليفة. وسواء أصح ذلك أم لم يصح، فقد عاد السلطان سليم إلى القسطنطينية منتصراً بعد أن أصبح السيد الحقيقي للعالم العربي والحاكم الذي يدعو له المصلّون المسلمون في أنحاء امبراطوريته.

وفي أثناء حكم سليمان القانوني، وهو خليفة السلطان سليم، امتد اخضاع البلاد العربية لحكم العثمانيين نحو الغرب على طول الساحل الشمالي لافريقية، ونحو الجنوب حتى اليمن وعدن. وما أن انتهى عهد سليمان بموته سنة ١٥٦٦ ـ وهو أزهى العصور في تاريخ الاتراك ـ حتى كان الحكم العثماني يمتد، من غير انقطاع، من الجزائر إلى الخليج الفارسي، ومن حلب إلى المحيط الهندي فشمل بذلك قلب الاسلام ورأسه: ففضلاً عن المدن المقدسة الثلاث: مكة والمدينة وبيت المقدس، كان يشمل مدينة دمشق ـ أول عاصمة للامبراطورية العربية ـ وبغداد التي أضاءت بعلمها العالم.

وظلت سيادة العثمانيين في نطاق هذه الحدود حتى القرن الثامن عشر.

ومع أن بعض الحروب والثورات والمذابح كانت تقوم من حين لآخر فيتفاوت حظ السيطرة العثمانية على تلك البلاد، الا أن هذه السيطرة ظلت في نطاق هذه الحدود حتى القرن الثامن عشر. وكانت سلطة الحكم، بوجه عام، ضعيفة ومجردة من وسائل المحافظة على نفسها، بل لقد كانت تتعرض أحياناً للمذلة كلما ثار أحد الولاة ونجح في تحدي السلطان الحاكم.

وقد ظهرت بعض الشخصيات المثيرة على مسرح الحوادث خلال هذه القرون الثلاثة، فكانت أحياناً شخصيات عسكرية بطولية مثل فخر الدين وظاهر العمر، وكانت أحياناً أخرى مجرد شخصيات فتاكة مريقة للدماء مثل: أحمد الجزار والمماليك في القاهرة، ولكنهم كانوا دائماً أشخاصاً فرديين أنانيين يقتصر همهم على منفعتهم الشخصية. وقد ظهروا واختفوا في تعاقب ممل، وبضجيج يشبه ضجيج الطغاة المسرحيين، فكانوا يقرعون الآذان بأبواق انتصاراتهم المحلية بينما عجزوا عن أن يطيحوا بسليمان العظيم، أو يزعزعوا قبضته التي أحكمها على العالم العربي.

وأيّاً كان الامر، فان ما قاموا به من أعمال لم يكن له أثر ملموس في نشأة الحركة القومية للعرب. ومع ذلك فلا بدّ من أن نستثني من هذا الحكم محمد بن عبدالوهاب المصلح المخلص، فقد أدت تعاليمه إلى تجديد ديني له قيمته، وكذلك محمد علي الذي كاد ـ لولا تدخل الدول الاوروبية ـ أن يقبض على زمام الحكم والخلافة، ويستخلصهما من يدي سيده في القسطنطينية، فيؤسس امبراطورية عربية.



محمد علي باشا

ومع ذلك. وبالرغم من كل التدابير التي اتخذها سلاطين بني عثمان لإستمرار هيمنتهم على الوطن العربي. فإن سنة الكون في ارتقاء حضارات،

وأفول نجم حضارات أخرى، كانت لهم بالمرصاد. وعندما بدت الأمبراطورية العثمانية ضعيفة ومنهكة تكالبت عليها العديد من الدول الأوروبية الآخذة في الصعود أبان تلك الفترة وأخذت تقتطع أجزاءً من أراضيها بين وقت وآخر في وقت كانت فيه الإمبراطورية في حالة انهيار تدريجي.

ومع ذلك. فقد كانت مع بداية القرن العشرين لا تزال تمتلك زمام الأمور في العديد من دول الوطن العربي. مما يفرض علينا بدوره قبل الحديث عن تاريخ الوطن العربي أن نتحدث عن حالة تلك الإمبراطورية في ذلك العهد. لأن كل ما كان يحدث فيها كان ينعكس سلباً أو إيجاباً على البلاد العربية.

وبما أنه مع بداية هذا القرن كان السلطان عبدالحميد لا يزال على سدة عرش الإمبراطورية، كان لا بد لنا أن نلقي الضوء على حياته وكيفية صعوده للسلطة ومعالجته لأمور دولته التي كانت آخذة في الإنهيار التدريجي.

السلطان عبد الحميد

عندما استلم عبدالحميد السلطة الشرعية، أظهر لوزرائه منذ بدء أعماله رغبته في إصلاح الأمور، وقرن القول بالفعل فأرسل للباب العالي أشعاراً بجلوسه، بموجب خط هما يوني بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٩٣هـ ـ ١٠ أيلول ١٨٧٦م وافق فيه على إصدار نظام دستوري شوري أسوة بالبلدان الأوروبية، يحفظ لجميع رعايا الدولة العثمانية حقوقهم ويربط جميع الشعوب والملل الدائرة في فلكها. وعلى إثر ذلك تقرّر تعين لجنة من العلماء والموظفين المدنيين برئاسة مدحت باشا انتهت إلى وضع مسودّة للدستور المنوي إعلانه وعرضها على السلطان فوافق عليها بعد أن أضاف إليها فقرة تعطي السلطان الحق بتقرير نفي كل من يقدم على تهديد أمن الدولة. وهكذا أصدر عبدالحميد إرادة سنية في ٥ شوال ١٢٩٣هـ ـ ٢٤ تشرين الأول ١٨٧٦م بعقد مجلس للأمة، يؤلّف من مجلس أعيان ومجلس مبعوثان؛ فالأول يعيّن أعضاؤه بمرسوم من الباب العالي والثاني ينتخب أعضاؤه من قبل الشعب.

وبعد تعيين أحمد مدحت باشا في منصب الصدارة العظمى، صدر إليه فرمان سلطاني أرفق معه القانون الأساسي للدولة وهو يشتمل على ١١٩ مادة، لنشره في كافة أنحاء السلطنة ومباشرة العمل بأحكامه ٦ ذي الحجة ١٢٩٣هـ ـ ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦م. وقد استوحي هذا الدستور من القانون البلجيكي وجرت الانتخابات بموجبه على أساس تقديري لعدم التحقق من عدة نفوس الأمة العثمانية على وجه الدقة في ذلك الحين.

في الرابع من ربيع الأول ١٢٩٤هـ ـ التاسع عشر من آذار ١٨٧٧م فتح البرلمان العثماني أول جلسة له في سراي دولمه باغجه واجتمع نواب العاصمة مع نوّاب الولايات وتليت خطبة العرش عن لسان السلطان عبدالحميد وبحضوره ثم جرت المناقشات بين النواب حامية محتدمة، وأغلبها يشدّد على صلاحيات مجلس المبعوثان وعلى جعل الحكم دستورياً تشترك فيه الأمة بواسطة ممثّليها وما إلى ذلك من المطالب التي تحدّ من سلطة الحكم السلطاني المطلق، الأمر الذي دفع بالسلطان إلى الإستياء من بعض الأعضاء المتشددين، معتبراً بأن في كلامهم تجاوزاً على صلاحياته؛ فندم على دعوة البرلمان للإنعقاد وأصدر إرادة شاهانية بحلّه مؤقتاً وأمر بنفي عدد من الأحرار من البلاد وعلى رأسهم مدحت باشا، المحرّك الأساسي للدستور.

لقد كان لنبأ سقوط مدحت ردات فعل قوية في أوروبا على الأخص حيث أن التوتر الذي نشأ عن المسألة الشرقية وازداد تفاقماً بسرعة متناهية متخذاً شكل أزمة حادة، حمل الدول العظمى على القيام بمحاولة أخيرة في سبيل حفظ السلام، فعمدت إلى توقيع وثيقة في شهر أذار ١٨٧٧م عرفت باسم بروتوكول لندن، جاء فيها النص الآتي: «إن الدول الغربية مع ارتياحها للسلام الذي تمّ الإتفاق عليه بين تركيا وصربيا، تعلن بأنها ستراقب باهتمام الطريقة التي بموجبها ستضع الحكومة العثمانية موضع التنفيذ، الإصلاحات التي وعدت بها. وهي تحتفظ لنفسها بالحق في اتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيق السلام العام في الشرق إذا ما رأت أن أحوال الشعوب المسيحية لم تتحسن». ومع أن إنكلترا حاولت إقناع السلطان عبدالحميد للقبول بالعرض الودّي الوارد في هذا البروتوكول، إلاّ أن هذا الأخير رفض الإعتراف للدول الأوروبية بحق التدخل

في شؤون دولته الداخلية. ولما رأت الروسيا بأن الفرصة أصبحت متاحة لها بصفتها الدولة المدافعة عن المسيحية في الشرق للقيام بحملتها الصليبية، أشهرت الحرب على تركيا بعد أن يئست من استجابة فرنسا وإنكلترا وألمانيا والنمسا للوقوف بجانبها.

الحرب الروسية التركية في البلقان :

بعد رفض بروتوكول لندن من قبل السلطان عبدالحميد تسارعت الأحداث بصورة متلاحقة؛ فأرسلت إنكلترا سفيراً جديداً لها إلى الأستانة، مكلّفاً بأن ينصح السلطان لقبول كل التضحيات تجنباً للحرب ٢٠ نيسان ١٨٧٧م وتجمعت الجيوش الروسية على نهر البروت بعد إعلان القيصر الروسي الكسندر الثاني، الحرب على تركيا ٢٤ نيسان ١٨٧٧ م. كما تجمعت بعد ذلك أمام السفارة الروسية في بيرا حشود المجّندين الأسيويين القادمين من أسكيتاري وبدت طلائع الحرب تنبيء بأنها ستكون حرباً إسلامية ضد الغرب فرفرفت الراية النبوية الخضراء فوق الجوامع ومشى الدراويش مع الجنود الأتراك جنباً إلى جنب. في حين كانت النمسا قد أقدمت على توقيع معاهدة سرّية، مع الروسيا تعهدت فيها ببقائها على الحياد لقاء إعطائها الحق باحتلال ولايتي البوسنة والهرسك؛ كما أن إمارة رومانيا الأفلاق والبغدان تعاهدت مع الروسيا سرّاً بتاريخ ١٦ نيسان ١٨٧٧م واضعة تحت تصرّف هذه الأخيرة أراضيها كافة للمرور عبرها وقطع نهر الدانوب باتجاه الممتلكات العثمانية، فأمر الباب العالي بإرسال بعض السفن الحربية إلى هذا النهر لمعاقبة الدولة الرومانية، الأمر الذي دفع بهذه الأخيرة لإعلان استقلالها ورفع سيادة

الدولة العثمانية عنها ١٤ أيار ١٨٧٧م والدخول بالحرب ضدّها بانضمامها إلى روسيا.

في هذا الوقت كان الجيش الروسي يتقدم في بلغاريا. وبعد عدة وقائع حربية اجتاز قائده زمرمان نهر الدانوب في ٢٢ حزيران ١٨٧٧م ثم في السابع والعشرين منه عبر الجيش بأجمعه هذا النهر قاصداً مدينة ترنوه فاحتلّها. وبعد ذلك تقدّمت القوات الروسية عبر البلقان بينما أخذت القطعات الخفيفة تنشر ألويتها في سهول تراقيا. وعلى إثر ذلك تدفق اللاجئون إلى الأستانة بأعداد كبيرة مما أحدث بلبلة في الباب العالي وجعل الأصوات ترتفع من الجميع مطالبة بضرورة المفاوضة مع الروسيا: إلاّ أن حادثاً مهماً وقع آنذاك غيّر مجرى الحرب ذلك أن القوات الروسية المتقدّمة في بلغاريا اصطدمت بالجيش العثماني الذي يقوده عثمان باشا، في بلاقا فتكبّدت خسائر فادحة، وعلى إثر ذلك أقدمت على ضرب الحصار على المدينة، فقاومتها الحامية الصغيرة التركية التي كانت تدافع عنها بشجاعة فائقة وبقيت تصدّ هجماتها لمدة خمسة أشهر حتى إذا أقبل الشتاء ومعه الجوع والأمراض للفتك بأفراد الحامية بات من المتعذر عليها الإستمرار في إبداء بطولاتها بعد إن كان انقطع كل اتصال بينها وبين الخارج فسقطت المدينة في ١٠ كانون الأول ١٨٧٧م وانتقل النبأ كالبرق الخاطف إلى العواصم الأوروبية ملقياً الضوء من جديد على المسألة الشرقية حيث اضطر السلطان عبدالحميد إلى اللجوء للسفير البريطاني طالباً منه المساعدة في العمل على التفاوض مع الروسيا من أجل الحصول على هدنة، بعدما كانت الصرب قد انضمت إلى هذه الأخيرة في الحرب.

وفي تلك الأثناء رأى عبدالحميد أن من المفيد افتتاح دورة جديدة

للبرلمان، كي يظهر للدول العظمى بأن السلام هو غايته ويدعو إلى وقف القتال؛ وهكذا بعد أسبوع من حفلة الإفتتاح قبلت الحكومة الإنكليزية بشخص رئيسها اللورد بيكونسفيلد القيام بأخذ المبادرة وبذل المساعي الخيّرة في سبيل تحقيق السلام مع الروسيا.

غير أن المراسلات بين لندن وبلاط سان بطرسبرج جرت بتباطؤ شديد بحيث أتاح ذلك للجيوش الروسية، الوصول إلى مدينة أدرنة في البلقان فاحتلّتها في ٢٠ كانون الثاني ١٨٧٨م بعد أن تمكّنت من دخول مدينة صوفيا واحتلالها والسيطرة على مدينة فيليبّة. ومن ثم تابع الجيش الروسي تقدّمه نحو العاصمة العثمانية. وفي الوقت ذاته كان أهالي الجبل الأسود قد احتلّوا مدينة أنتيباري فيما كان الصربيون يدخلون مدينة نيش. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الأعمال الحربية التي جرت في الأناضول بين الدولتين المتحاربتين، كان النصر فيها سجالاً بينهما في البدء، ثم انتهى إلى الجيوش الروسية، ذلك أن هذه الجيوش الأخيرة قد بدأت زحفها نحو مدن: قارص وأردهان وبايزيد وباطوم، فحاصرت المدينة الأولى ثم رفعت الحصار عنها إلاّ أنها تابعت سيرها فاحتلّت مدينة أردهان في ١٧ أيار ١٨٧٧ م عنوة ثم مدينة بايزيد في ٢٠أيار وبعد ذلك انتصرت الجيوش العثمانية على الروس في بعض المواقع، ولكن هؤلاء عادوا فهاجموا مدينة قارص ثانية واستطاعوا احتلالها عنوة بعد معركة عنيفة في ١٨ تشرين الثاني ١٨٧٧م.

وأخيراً و بعد أن أعلن القيصر الكسندر الثاني بأنه يحظّر مقدّماً من تدخل أية دولة خارجية بين الدول المتحاربة أرسل جوابه على طلب الملكة الإنكليزية فيكتوريا المتعلّق بوقف القتال، وهو يتضمن ما يلي: «إن قادة الجيوش الروسية

في أوروبا وآسيا هم وحدهم يعرفون الشروط التي تتفق مع تحقيق وقف الحرب». وهذا يعني أن القيصر كان يقصد في جوابه إلزام الباب العالي بالتفاوض مع قيادة الجيوش الروسية مباشرة.

عند ذاك ولما رأى السلطان عبدالحميد نفسه وحيداً في هذا الجو من الإنكسار والإنحطاط المعنوي والمادي، ولاحت له أشباح الأهالي اللاجئين إلى العاصمة والمتقاطرين بالألوف، يمتلكهم الذعر والخوف وهم يتحدثون عن فظائع القوزاق في الحرب وكيف كانوا يقدمون على التنكيل بالمسلمين فيبقرون بطون النساء الحوامل أمام أزواجهن ويرسمون شارة الصليب بالحديد المحمّى على أجساد الفتيات العذارى، اضطر إلى الرضوخ للأمر الواقع فأرسل مندوبين من قبله إلى الخطوط الروسية دون أن يعلم بذلك أحد من الديبلوماسيين الأجانب وذلك عملاً بالشرط الأول الذي وضعه القيصر الروسي بإجراء المفاوضات بالسرية التامة. وما أن اجتاز المندوبون الأتراك الخطوط الروسية حتى انقطعت أخبارهم في حين تابع الجيش الروسي تقدّمه وسط دهشة الأوروبيين، نحو العاصمة العثمانية.

في ذلك الوقت تلقى الأسطول البريطاني الأوامر بالاتجاه نحو المياه التركية وفي الوقت ذاته أخذت دولة النمسا بالتحرك. ولما دخلت السفن البريطانية مضائق الدردنيل كان المندوبون الأتراك قد أرغموا على القبول بشروط القادة الروس المتشدّدة، وإذ كانت العاصمة التركية قد أصبحت تحت مرمى المدافع العدوّة والروس قد نصبوا خيامهم في سان استفانو قريباً منها على بعد عشرة كيلومترات فقط، فما كان لعبد الحميد إلاّ الرضوخ والموافقة على المعاهدة المفروضة عليه من الروس في ٣ أذار ١٨٧٨م والمسمّاة معاهدة سان استفانو، وهي تقضي بما يلي:

١ - استقلال إمارة الجبل الأسود وتوسيعها بضمّ بعض الأراضي لها من البوسنة والهرسك وميناء أنتيفاري على ساحل بحر الأدرياتيك.

٢ - استقلال بلاد الصرب وضمّ مقاطعتيْ نيس ومتروفتزا إليها.

٣ - تطبيق الإصلاحات التي اقترحها مؤتمر الأستانة على الباب العالي في البوسنة والهرسك، تحت إشراف الروسيا والنمسا المشترك.

٤ - تدمير القلاع التركية الواقعة على نهر الدانوب.

٥ - استقلال رومانيا وضمّ جزء من إقليم دوبروجه إليها مقابل تنازلها للروسيا عن جنوبي بسّارابيا.

٦ - تنازل الدولة العثمانية للروسيا عن قلعة قارص في أرمينيا وعن ميناء باطوم وأراضي أخرى في آسيا.

٧ - قيام بلغاريا الكبرى الممتدة من نهر الدانوب إلى بحر إيجه مع تمتعها بالإستقلال الذاتي تحت الوصاية الروسية.

هذا وكان السلطان عبدالحميد قبل ذلك أي في ١٤ شباط ١٨٧٨م قد قرّر إرجاء اجتماع مجلس النواب العثماني لأجل غير مسمّى لعدم ملائمة الظروف الأمنية لوجوده، وعقب ذلك أوقف عدد كبير من أعضائه وصار ينفيهم إلى خارج البلاد لتنديدهم بأعمال الحكومة.

في البدء كانت شروط هذه المعاهدة قد بقيت سرية بصورة رسمية ولم تعرف إلاّ بعد ذلك، عندئذ وافقت الروسيا على وضعها تحت تصرّف مؤتمر

أوروبي؛ وقد بقي الأسطول البريطاني والجيش الروسي لمدة ستة أشهر، كل في مواقعه وتحت متناول مدفعية الآخر، دون أن يقدم الروس على أية محاولة لدخول العاصمة التركية. ومن ثم تراجع الجيش الروسي إلى أدرنة كما انسحبت بالمقابل السفن البريطانية إلى خليج بيزيكا.

مؤامرة ضد عبد الحميد :

بعد تولّي عبدالحميد عرش السلطة مكان شقيقه السلطان مراد الخامس وضع هذا الأخير في قصر جراغان مع عائلته وجواريه، ومنع الجميع من دخول القصر الموضوع تحت حراسة خاصة، ما عدا الأطباء الموكلين بالعناية به. فعندما أقام الجيش الروسي مرابطاً في سان استفانوا كان رجل يدعى علي سوافي وهو أصلاً من مدينة بخاري قد أتى إلى الأستانة وتعلّم فيها اللغة العربية وأصبح خطيباً وميّالاً إلى إثارة الفتن فنفي أولاً خارج البلاد ولمدة تسع سنوات بسبب خطبه ثم عاد إلى العاصمة بمسعى من مدحت باشا وعُين ناظراً في المكتب السلطاني في غلاتا حيث كان أبناء السلطان عبد الحميد يتلقّون العلم؛ إلاّ أن تدخله في الأمور السياسية تسبّب في عزله من وظيفته فراح يهيم على وجهه، يغشى باحات المساجد الخاصة باللاجئين الهاربين من بلادهم بسبب الحرب، ويلقي الخطب الحماسية لتغيير نظام الحكم العثماني بعدما ظهر فساده وضعفه أمام الدول الأجنبية، في حين كان العملاء الروس المندسّون بين اللاجئين والمقنّعون بقناعهم يشجعونه على الثورة ويحرّضون الشعب في الأحياء الفقيرة على الدولة بقولهم: (إن السلطان الشرعي مراداً المعزول، يعيش كأسير في قصر جراغان وعبدالحميد اغتصب سلطاته ليجرّ البلاد إلى حرب كارثة). وبتاريخ ١٨ أيار ١٨٧٨م اجتمع عدد كبير من الحاقدين والناقمين على الدولة بعلي سوافي،

وقصدوا جميعاً سرايا جراغان من جهة البر والبحر بغية إنقاذ السلطان مراد. ولما حاولوا الدخول إلى السراي وقف بوجههم أحد الحراس فأقدموا على قتله وتابعوا دخولهم حتى عثروا على السلطان المخلوع في حجرته. وقبل أن يتمكّنوا من اصطحابه معهم كان النفير قد أعلن فهرع حرّاس السلطان الألبانيون من سراي بلدز وحاصروا الثائرين من البر والبحر ثم هاجموهم وقتلوا قسماً منهم وفي مقدّمتهم علي سوافي وقبضوا على الباقين وهم يبلغون المائتي شخص. وعلى إثر هذه الثورة جرت مفاوضات سرّية بين الباب العالي وإنكلترا بشأن جزيرة قبرص وإمكانية تخلّي السلطان عبد الحميد عنها مقابل التعهد من قبل انكلترا بالدفاع عن الولايات العثمانية الأسيوية ضد كل اعتداء روسي جديد؛ وانتهت تلك المفاوضات بتوقيع معاهدة بين الفريقين بتاريخ ٤ حزيران ١٨٧٨م جاء فيها هذا الشرط التنفيذي:

المادة الأولى: إذا كانت الروسيا تستولي على باطوم أو أردهان أو قارص أو إحداها وأرادت بعد ذلك الإستيلاء على بعض الممتلكات الكائنة في آسيا والتابعة للحضرة السلطانية كما تقرّر أمرها في المعاهدة الصلحية الباتّة، فإن إنكلترا تتعهد بأن تتحد مع الحضرة العلية السلطانية لحماية تلك الممتلكات بقوة السلاح. وفي مقابل ذلك تعد الحضرة السلطانية إنكلترا بأن تجري في ممالكها الإصلاحات اللازمة التي سيحصل الإتفاق بعد هذا بينهما على كيفية اجرائها وهي تحمي المسيحيين وغيرهم من رعيتها القاطنين في بلادها. ولغاية تمكين إنكلترا من اتخاذ التدابير اللازمة لإجراء ما تعهد به رضى السلطان المعظم، فإن إنكلترا تستولي على جزيرة قبرص وتدير أمورها.

وهكذا فإن احتلال قبرص من قبل إنكلترا لم تكن له صفة الدوام إذ أنها

تعهدت بالجلاء عن هذه الجزيرة في حالة جلاء الروس عن المناطق التي احتلّوها في آسيا.

ولما كانت معاهدة سان استفانو لم تقترن باعتراف انكلترا وألمانيا، فقد دعت هاتان الدولتان إلى مؤتمر ينعقد في برلن لمراجعة هذه المعاهدة وإعادة النظر بها وبالتالي لأجل تسوية نتائج الحرب التركية الروسية؛ ووافقت الروسيا مضطرة على هذه الدعوة فتعيّن يوم الثالث عشر من حزيران ١٨٧٨م لهذه الغاية. وفي الموعد المحدّد عقد المؤتمر في مدينة برلين برئاسة الأمير بسمارك. وبعد عدة جلسات جرت فيها المناقشات الطويلة بين مندوبي الدول العظمى الحاضرين، تمّ الإتفاق على توقيع معاهدة برلين في ١٣ تموز ١٧٨٧م وهي تحتوي على ٦٤ مادة. وخلاصة ما جاء فيها كما يلي: منح رومانيا والجبل الأسود الإستقلال التام، وبلغاريا استقلالاً ذاتياً على أن تدفع جزية سنوية للسلطان العثماني، وانتزعت منها مقدونيا. أما الروملّلي - بلغاريا الجنوبية فقد جعلت ولاية باستقلال ذاتي تحت سيادة الدولة العثمانية على أن يحكمها والٍ مسيحي وتخضع لرقابة الدول العظمى المشتركة. أما الروسيا فقد حصلت على باطوم وقارص وإقليم بسّاربيا من رومانيا، على أن تضمّ هذه الأخيرة إليها إقليم دوبروجه الذي كان داخلاً في نطاق بيلغاريا، وأما النمسا فإنها أعطيت الحق باحتلال البوسنة والهرسك وسنجق نوفي ــ بازار عسكرياً وإدارة هذه المناطق دون فصلها رسمياً عن الدولة العثمانية، أي أنها بقيت تابعة لها). ومن جهة أخرى أضيف إلى مملكة اليونان جزء من الأراضي لتوسيع حدودها من جهة الشمال مع أنها لم تشترك في الحرب، كما أن المؤتمر تعرّض للإصلاحات الداخلية المراد إجراؤها لتحسين حال المسيحيين وخصوصاً الأرمن.

وبالرغم من تعديل معاهدة سان إستيفانو على الصورة المبيّنة فإن الدولة العثمانية أصيبت من جديد بتقطع في أوصالها على اعتبار أن الروسيا بقيت محتفظة بفتوحاتها في آسيا الوسطى أو تركستان التي كانت تشتمل بالتوالي على طقشند وسمرقند وبخاري وخانية ثم خانية كيوا Khiva وبعدها مقاطعة فرغانة المروية بنهر سيراداريا في سنن ١٨٦٨و١٨٧٣و١٨٧٦م.

وقد وقّع معاهدة برلين هذه كل من مندوبي الدول الآتية:

ألمانيا ـ النمسا ـ المجر ـ فرنسا ـ بريطانيا العظمى ـ إيطاليا ـ الروسيا ـ تركيا. أما اليونان فإنها الوحيدة من دول البلقان التي حضرت المؤتمر دون اشتراكها فيه، إذ أن المجتمعين أفهموها بأن مطالبها هي ثانوية ووعدوها بتوسيع رقعتها فيما بعد.

بعد مؤتمر برلين عادت الدول الكبرى تطالب السلطان عبد الحميد بامتيازات وإصلاحات في سوريا والأناضول. وقرّر مدحت باشا العودة إلى بلاده فولاّه السلطان عبدالحميد مركز الحاكمية العامة في سوريا؛ وأصرّت إنكلترا على المطالبة بإدخال الأصلاحات إلى الولايات التي يقطنها الأرمن فوافق السلطان على تعيين الجنرال الإنكليزي باكر باشا الذي كان اشترك في حرب القرم مفتشاً عاماً للإصلاحات في آسيا الصغرى شتاء ١٨٧٩ـ١٨٨٠م؛ على أن مدحت باشا قدم بعد ذلك استقالته من منصبه في سوريا فرفض عبدالحميد هذه الإستقالة وعيّنه حاكماً عاماً على ولاية إزمير ثم أمر بإلقاء القبض عليه بتهمة الإشتراك بقتل السلطان عبدالعزيز، فحوكم وقضي عليه بالإعدام، ثم عُفي عنه بفعل تدخّل الدول الكبرى، ونفي إلى مدينة الطائف قرب مكة

المكرّمة. وتنفيذاً للوعد المعطى لليونان في مؤتمر برلين وبضغط من إنكلترا وفرنسا، اضطر السلطان للتخلّي لها عن بعض الأراضي بما في ذلك تسّاليا وجنوبي الأبير وذلك في سنة ١٨٨١م.

وهكذا يبدو بأن الدولة العثمانية لم تعد تملك من شبه جزيرة البلقان في اوربا سوى تراقيا أي ولايتي، ستانبول وأدرنة ومقدونيا وألبانيا.

ثورة الأرمن

بعد إقدام السلطان عبد الحميد على تنحية الأشخاص المؤيدين للإصلاحات المنشودة وإنشائه جهاز التجسس أو الشرطة السرية، الذي كان يؤمّن له يومياً وبصورة مسهبة الاطلاع ومعرفة كل شاردة وواردة تحدث في كافة أنحاء الإمبراطورية العثمانية، أخذت سياسته تقوم على مبدأ فرّق تسد. فلم يعد يتدخل في الإضطرابات التي تحصل في بلغاريا أو في الروملّي الشرقية أو في صربيا في البلقان، إنّما احتفظ بحياد تركيا ليبقى محافظاً على استقلالها، وغدا بعد زيارة امبراطور المانيا غليوم الثاني للأستانة في ٢ تشرين الثاني ١٨٨٩م حليفاً للأمبراطورية الألمانية، ولكنه لم يدرك بأن هذه الزيارة ستكون الحلقة الأولى من سلسلة طويلة من الأحداث التي ستصيب الدولة العثمانية؛ بالرغم من الفوضى التي كانت تعمّ عند ذاك مقدونيا، والعصيان والتمرّد في جزيرة كريت في اليمن، وفي أرمينيا التي أصبحت قوة الثائرين فيها ذات وزن وهي على ازدياد.

لقد كانت القضية الأرمنية، من أهم القضايا التي تشغل بال السلطان ويعاني منها الأمرّين لأنها حسب ظنه، مرتبطة، ارتباطاً وثيقاً بسياسة أوروبا. فالشعب الأرمني كان يقيم في السلسلة الوسطى العليا من الجبال الواقعة بين الأناضول وآذربيجان وبحر الخزر (قزوين) ويخضع للحكم التركي؛ وبطبيعة الحال كان لنضال الشعوب البلقانية أثره في إثارة شعور الأرمن واستفزازهم للمطالبة بدرجة من الإستقلال في الحكم، أسوة بغيرهم وعلى الأخص بما منحه مؤتمر برلين للروملّي (الروم إيلي) الشرقية. ولذا قامت من هؤلاء الأرمن

جماعات ثورية بات لقوتها ما يلفت النظر وأخذت بالإزدياد باستمرار فكان ذلك مدعاة لاستياء عبدالحميد وتأثره، الدائمين، خصوصاً وأن قيام الثورة الأرمنية كان سببه الإنصياع لتحريض العملاء الروس الذين كانوا لا ينفكون عن ذلك، بالإضافة إلى نشاط العملاء الإنكليز في هذا المضمار، وإلى التعاليم الديموقراطية للمرسلين الأميركيين التي كان من شأنها تشجيع الثائرين من الوجهة المعنوية.

ولكن بعد اغتيال القيصر الكسندر الثاني واعتلاء القيصر الكسندر الثالث عرش الروسيا، وقع تغيير في السياسة الروسية لجهة الأرمن، إذ لم يكن لدى القيصر الجديد أي استعداد لمسايرة الميول الثورية مهما كان نوعها ومصدرها. ولذلك فإنه بعث يطمئن السلطان عبد الحميد بعدم رغبته للتدخل في أمور الدولة العثمانية؛ ولهذا السبب ولّما رأى الأرمن أنفسهم محرومين من المساعدات الروسية، حوّلوا أنظارهم صوب الدول الأوروبية الأخرى وعلى الأخص إنكلترا حيث لاقوا كل عطف وتأييد. وهكذا أقدمت عناصر من الهنشاق السرّي الأرمني في سنة ١٨٨٥م على توزيع السلاح في أوساط الشبّان الأرمن تحسباً لمقاومة متطلبات البكوات الأكراد الذين كانوا يسيئون معاملة الشعب الأرمني بالإشتراك مع الحكام الأتراك؛ وهذا ماجعل الأرمن في القرى الجبلية من منطقة الأناضول الشرقية وبالأخص في طرابزون والرّها وأظنه وديار بكر ووان وغيرها يطالبون بالإصلاحات الضرورية وببعض الإمتيازات، داعين إلى إثارة الفتنة عند عدم الاستجابة لمطاليبهم، فما كان من السلطان عبد الحميد إلاّ أنه بعد رفض تلك المطالب وعدم الاستجابة لحقوقهم، أصدر إرادة سلطانية بإعلان تأليف قوّة استثنائية من الخيّالة الأكراد أطلق عليها اسم الحميدية أو

خيالة السلطان، وحصر مهمتها بالعمليات العسكرية ضد العصاة الأرمن أوائل العام ١٨٩١م. عندئذ انفجر الوضع بين الأرمن والأكراد فجرت المذابح فيما بين الطرفين وكانت مذبحة منطقة بحيرة وان شديدة على الأرمن؛ إذ على إثرها طلب قناصل الدول الأجانب من سفارتهم بإلحاح وجوب التدخل في الأمر، في حين طلبت إنكلترا إنشاء لجنة تحقيق لدرس أحوال المعيشة في الولايات الأرمنية، إلاّ أن الروسيا عارضت هذا الطلب ورفضته. وفي صيف العام ١٨٩٤م ألقي القبض على زعماء حزب الهنشاق في جبال ساسون، فثار الأرمن في تلك المنطقة وقاوموا كتائب الخيّالة الحميدية الكردية وردّوها على أعقابها. لكن السلطان عبد الحميد، لكي ينتقم منهم أصدر الأوامر بمنح حكام الولايات سلطات مطلقة للقضاء على عصيان الثوار الأرمن، في كل مكان. فقامت المجازر ضد الأرمن تبعاً لذلك وقد ذهب ضحيتها ثلاثة آلاف نسمة في مختلف المناطق الثائرة. وفي شهر أيلول من العام ١٨٩٥ م قام الأرمن في العاصمة العثمانية بتظاهرة صاخبة أسفرت عن اشتباكات دموية أمام السفارات الأجنبية بالذات، وبعدها استمرت المذابح الأرمنية متتابعة حتى آخر آب ١٨٩٦م حينما اندفع عشرون فدائيّ أرمني. بهجوم جريء جنوني على أبنية البنك العثماني في الأستانة، وهم مسلّحون بالقنابل اليدوية. وبعد تمكّنهم من السيطرة عليها، والتمركز فيها أخذوا يتابعون إلقاء القنابل على الجنود ورجال الشرطة؛ فتقدم الأجانب بمفاوضة الفدائيين المتحصنين في أماكنهم، حيث تعهدوا لهم بإنقاذ حياتهم والسماح لهم بالسفر إلى خارج البلاد في حال تخلّيهم عن احتلال البنك، وقبولهم بالتوقف عن المقاومة.

فاستجابوا لطلب السفراء واقتيدوا عند ذلك، تحت الحراسة المشدّدة إلى يخت مدير البنك العثماني وهو إنكليزي ويدعى السير إدغار فنسان. وهناك

أصبحوا بأمان بعد أن قضوا ثلاثة أيام في مغامرتهم متحصنين؛ وكانت نتيجة هذه العملية أن العصابات الغوغائية المسلّحة التي ظهرت في العاصمة آنذاك، راحت تصبّ جام غضبها على الأرمن القاطنين في الأحياء الأوروبية وتنتقم منهم، فتقتلهم وتنهبهم وتعتدي عليهم، مما جعل العالم الغربي يهتز قلقاً ورعباً من هذه الأعمال التي ذهب ضحيتها سبعة آلاف مواطن أرمني بخلال ثلاثة أيام متواصلة، ويدفع الدول العظمى الموقعة على معاهدة برلين، بما فيها ألمانيا، لتوجيه التحذير إلى السلطان وتهديده بالتعرض للخطر إذا ما استمرت الحال على هذا المنوال. فتهيب عبد الحميد الموقف، وسارع إلى إصدار الأوامر للسلطات المختصة بوجوب الكفّ والأمتناع عن التقتيل ووضع حدّ لأعمال الشغب ٢٨ آب ١٨٩٦م.

حرب تركيا واليونان

بعد أن تحرّرت اليونان من النير التركي واستقلّت عن الدولة العثمانية بقيت الأحوال في جزيرة كريت - إقريطش متوترة؛ وكانت الخلافات السياسية بين الأهالي المسيحيين فيها والمسلمين تحتدم تارة وتخفّ طوراً، مما جعل المسيحيين الذين هم من أصل يوناني، ويؤلفون الأكثرية، يقومون بعدة محاولات متفرقة، في سبيل التمرّد للتحرّر والإنضمام إلى وطنهم الأم اليونان. ولكن محاولاتهم كانت تخمد بسرعة وبشدّة، بالرغم من تدخل الدول العظمى. وأثناء ثورة الأرمن الأخيرة اغتنم السلطان عبدالحميد الفرصة المناسبة ليقدم على تعيين حاكم مسلم على الجزيرة بدلاً من الحاكم المسيحي الذي كانت تفرضه معاهدة برلين؛ فكان ذلك مدعاة لقيام المسيحيين في الجزيرة بالثورة ضد الأتراك، متستنجدين بالدولة اليونانية لمساعدتهم فأرسلت لهم قوات من الجيش وفي ذات الوقت اجتازت وحدات من الجيش اليوناني الحدود التركية ربيع سنة ١٨٩٧م.

عند ذاك أعلنت تركيا الحرب على اليونان وأبحرت خمس سفن حربية قديمة من القرن الذهبي باتجاه بحر مرمرة. ومن ثم بدأت الحرب بين الدولتين التركية واليونانية، ودامت ثلاثين يوماً، أقدم الجيش التركي خلالها على اجتياح تسّالياً والإستيلاء على لاريسا منتصراً على جيش العدّو، فحلّ الرعب في نفوس اليونانيين إلى أن تدخّلت الدول العظمى ووضعت حدّاً للقتال، بإرسالها بعض السفن الحربية إلى خليج سيدا؛ وفي مؤتمر السلام الذي افتتح في الأستانة، قدّمت

تركيا مطالبها وكانت النتيجة حيازتها على بعض التعديـل في حدودهـا، وتجميـد قضية جزيرة كريت مؤقتاً بعد أن أخذت الدول العظمى على عاتقها حماية الأمن فيها ما عدا ألمانيا والنمسا اللتين سحبتا سفنهما من الخليج. وقـد رفعـت بعدئـذ هذه الجزيرة إلى ولاية مستقلة داخلياً، ليتولى حكمها والٍ مسـيحي يونـاني، هـو الأمير جورج.

ثورة مقدونيا

إن إسم الروملي: روم أيلي يعني بلاد الروم أي مقدونيا التي كان يطلق عليها أيضاً: البلقان، حيث كانت تشمل الولايات العثمانية الأوروبية الست: أدرنة، سالونيك، مناستير، قوجوه أسكوب، يونيا وأشقودرة. ففي أدرنة كان العنصر البلغاري يتفوّق عدداً ونفوذاً على العنصر اليوناني، أما في سالونيك ومناستير فينعكس التفوق، فيما يغلب العنصر الصربي في ولاية قوصوه والعنصر الألباني الأرناؤط في أشقودرة ويونيا على العنصر الصربي في أولاهما واليوناني في الثانية. وإذا كان التزاحم على النفوذ قائماً على أشدّه بين البلغار والصرب واليونان في سبيل الحصول على هذه الولاية الخصبة فقد كثرت المتاعب على الدول العثمانية في حين قامت بعض الدول الأوروبية وفي مقدمتها النمسا وإيطاليا المجاورتان، تشكو من تفاقم الأمور، بحيث أخذت تتهيأ للتدخل فيها عند أول فرصة. فرأى الباب العالي وجوب القيام ببعض الإصلاحات الإدارية في تلك الولايات ولا سيما المقدونية منها سالونيك ومناستير وقوصوه، ولهذه الغاية عيّن للإشراف عليها موظفاً كبيراً برتبة مفتش عام، خوّله أوسع الصلاحيات بمؤازرة قوة بوليسية يقودها ضباط أوروبيون للتنفيذ، ولكن كل التدابير بهذا الشأن لم تأت بالنتيجة المتوخاة، ذلك أن العصابات البلغارية التي تشكلت في خريف سنة ١٩٠٢م راحت تعبث في أنحاء البلاد فساداً، وغايتها ترويع العناصر السلافية الأخرى؛ وقد شاركتها فيما بعد عناصر مختلفة في حرب العصابات وعجزت الدول الكبرى عن إخماد الثورة، وهذا ما دفع بالنمسا

للتفاوض سراً مع تركيا بغية الحصـول علـى إمتيـاز يخولهـا إنشـاء خـط حديـدي ينطلق من البوسنة حتى سنجق نوفي ـ بازار وجعل الروسـيا وغيرهـا مـن الـدول الكبرى تطـالب بتعيـين حـاكم عـام تـابع لمراقبتهـا هـي، وإخضـاع ماليـة البـلاد لإدارته، أو تأليف لجنة دولية للإشراف علـى ماليـة مقدونيـا جميعهـا. وكـان مـن نتيجة معارضة السلطان عبد الحميد لهذه التدابير المطلوبة، أن أقدمت أربـع دول أوروبية على إرسال أساطيلها إلى جزيرة ميتيلان في بحـر إيجـه لاحتلالهـا فـاضطر للخضوع والقبول بالأمر الواقع. على أن هذه الإهانة الجديدة الـتي وجّهـت إلى السلطان أثارت النقمة في نفوس الأتراك وخصوصاً الضباط المرابطين مع قواتهم في مقدونيا، فحاول ضابط تركي اغتيال عبد الحميد بطعنه بخنجر أثنـاء خروجـه من التياتر الخاص في قصر يلدز، فقبض عليه؛ ثم بعد مدة جـرت محاولـة جديـدة لقتل السلطان في يوم ٢١ تموز ١٩٠٥م وذلك عندما أقدم شاب أرمني يدعي: إدوار جوريه على إلقـاء قنبلـة علـى موكبـه بينمـا كـان في طريقـه لإداء فريضـة الصلاة في الجامع الحميدية، فقتل من جراء ذلك قرابة: ثمانين نفراً مـن العسـاكر السـلطانية، ولم يصـب عبـد الحميـد بـأذى، إذ كـان لا يـزال يهـمّ بـالركوب في عربته، في مؤخـرة الموكـب؛ وقـد قبـض علـى الجـاني في الوقـت ذاتـه واعـترف بجريمته.

الإنقلاب

كانت التقارير التي ترد للسلطان عبد الحميد من سفيره في باريس ومن مصادر المعلومات الرئيسة، عن نشاط السياسيين الأتراك المبعدين في المنفى، تتضمن تلميحات مقلقة عن التحركات التي تقوم بها جماعة تركيا الفتاة وعن وجود جمعية سرية باسم لجنة الاتحاد والترقي كانت قد انبثقت عنها، وارتبطت بعلاقة مع محفل الشرق الأكبر الماسوني الكائن في ضواحي مدينة سالونيك كما كانت تلك التقارير تشير إلى عودة بعض السياسيين المنفيين، إلى بلادهم خفية للقيام بمهمة بث الدعاية لحركتهم الثورية، التي كانوا يعملون من أجلها وآخر تقرير ورد للسلطان في ٢ تموز ١٩٠٨م بهذا الشأن كان يقول: إن المقدّم في فوج المشاة: نيازي بك قد أقدم على الفرار مع رجاله إلى الجبال بغية رفع علم الثورة مع مائة وخمسين جندياً ورحلوا إلى رسنة لاجئين إلى الجبل الواقع فوق بحيرة أوشيردا وأن القائد الأعلى للقوات المقدونية في الشمال شمسي باشا قد اغتيل في مناستير في الثامن من تموز ١٩٠٨م؛ وبعد ذلك تتابع ورود التقارير جميعها تتعلق بقيام الحاميات التركية في سائر أنحاء مقدونيا، بالإنضمام إلى الثوار معلنة العصيان والتمرد ضد الدولة، وحينما نزل إلى الساحة الفوج الأول من الجنود الأناضوليين المرسلين إلى مدينة سالونيك لإخماد الثورة واعتقال مسببيها، لم يكن من أولئك الجنود إلاّ أن ألقوا سلاحهم وهم يهتفون مع الثائرين: حرية ـ مساواة معلنين بذلك تضامنهم معهم، دون أن يجرؤ أحد على منعهم من ذلك.

وفي تلك الأثناء كان أعضاء اللجنة المركزية لحركة الاتحاد والترقي في

مناستير، قد أرسلوا إنذاراً للسلطان عبد الحميد بوجوب إعلان الدستور الصادر في سنة ١٨٧٦م وذلك بخلال مدة ٢٤ ساعة وإلاّ عند عدم الإستجابة لطلبهم، فإن الجيش الثاني والثالث سوف يزحفان إلى العاصمة، لإقرار السلطة فيها. وما كاد الباب العالي يتبلّغ هذا الإنذار حتى اهتم السلطان بذلك وأصدر إرادة سنية، أعلن فيها إحياء الدستور السابق ١٨ تموز ١٩٠٨م الذي أصبح مرعيّ الاجراء بصورة نهائية لتطبيقه بدقة وأمانة؛ وهذا نص الخط الهمايوني الصادر وبهذا الشأن في ٦ رجب ١٣٢٦هـ الموافق ٢٤ تموز ١٩٠٨م:

وزيري سمير المعالي وسعيد باشا :

لما كان الإستقرار الذي نعمت به الرعية في أوج اعتلاء الدولة العثمانية مكانتها السامية، قد تعرّض لأسباب متنوعة، للإهمال مما حدا والدي السلطان عبد الحميد خان على إصدار التنظيمات الخيرية ومن مقتضاها تنظيم الإدارة وتقوية روابط الاخاء بين عناصر الأمة العثمانية.

وفي بدء سلطتنا أخذنا بعين الاعتبار درجة الرقيّ الذي وصلت إليه الأمة فأعلنّا من تلقاء أنفسنا القانون الأساسي القائم على القواعد الدستورية؛ ولكن الأغراض المختلفة التي ظهرت آنئذ تغلبت على المصلحة العامة، فاضطرت الحكومة في عهد صدارة صفوة باشا إلى تعطيل الحياة النيابية تبعاً لرأي الكثيرين. ولما رأينا أخيراً استعداد المملكة للإرادة الدستورية مؤيداً بالميول العامة البارزة أصدرنا إرادتنا بتطبيق أحكام القانون الأساسي بحذافيره وبدعوة المجلس النيابي إلى الإجتماع كل سنة، كما ذكرت ذلك أمس أمام رجال السياسية من سفراء الدول وغيرهم الذين زارونا لتقديم التهاني.

وبديهي أن منافع المملكة الحقيقية، إنما تحقق باكتساب القوة القانونية صفة القوة التنظيمية الشرعية، فترتقي مع المنافع الحقيقية للسلطة؛ لذلك أصدرنا إرادتنا برعاية القانون الأساسي ودعوة نواب الأمة للإجتماع كل سنة.

وأعلن بهذا الخط الهمايوني إكتساب إرادتي المشار إليها الصفة القطعية مؤكداً تطبيق العدالة والمساواة بين أفراد الأمة الذين تتألف منهم دولتنا دون أي تفريق بين فرد وآخر وعنصر وآخر، ذاكراً مع الأسف ما طرأ من ضعف على هذه المساواة خلافاً لمقاصدنا في بعض الأنحاء وبعض شعب الإدارة مما يستوجب إصلاح تلك الأخطاء بإتباع القواعد الآتية:

١ ـ كل فرد من العثمانيين مهما كان مذهبه وقومه، يتمتع بحريته الشخصية ويتساوى مع غيره في الحقوق والواجبات.

٢ ـ لا يجوز استنطاق أي شخص وتوقيفه وسجنه ومعاقبته بصورة من الصور إلاّ إذا أوجب القانون ذلك.

٣ ـ لا يجوز تأليف محاكم ولجان بصفة غير عادية بوجه من الوجوه وباسم من الأسماء ولا يمكن جلب أي شخص إلى غير المحكمة والدائرة الإستنطاقية الحائزين على الصلاحية القانونية.

٤ ـ منزل كل إنسان مصون من التعرض فلا يجوز دخوله وترصّده إلا بالطرق التي عيّنها القانون.

٥ ـ لا يجوز لموظفي الضابطة ولا لغيرهم من الموظفين تحت أي إسم وصفة، ملاحقة أحد الناس بغير الأصول التي عينها القانون.

٦ - لأفراد التبعية العثمانية الحق بالسفر إلى أية مملكة سواء بقصد التجارة أو السياحة والاختلاط والاجتماع بمن أرادوا من الناس.

٧ - لا يتوقف طبع المطبوعات على عرضها على الحكومة ولا يجوز تأخير الرسائل الشخصية والمطبوعات الموقوتة في دوائر البريد. أما التهم المتعلقة بالمطبوعات فتنظر فيها المحاكم العادية.

٨ - حرية التعليم والتدريس مصونة.

٩ - لا يجبر أحد على قبول وظيفة لا يرضاها، ولا يخضع الموظفون للأوامر الصادرة خلافاً للقانون ولهم حق الإستقالة من الخدمة متى شاؤا على أن يتحملوا المسؤولية في الأحوال التي أخذوا القيام بها على مسؤوليتهم؛ يستثنى من جميع ذلك، العسكريون على اختلاف درجاتهم.

١٠ - عدا الذين يعهد إليهم بمقام المشيخة (الإسلامية) ونظارتي الحربية البحرية، ينتقي الصدر الأعظم باقي الوكلاء (الوزراء) ويعرضهم علينا لأجل التصديق كما ينتقي السفراء لدى الدول بعد انضمام رأي ناظر الخارجية بشأنهم ورأي ناظر الداخلية بشأن الولاة ورأي رئيس مجلس الشورى بشأن أعضائه. أما انتقاء الموظفين وتبديلهم حين الإقتضاء ومكافأتهم بالرتب والأوسمة وغيرها فيجري تصويب مرجعهم من نظارة أو رئاسة إدارة وانضمام مقام الصدارة.

١١ - يراجع كل موظف، تحريراً أو شفهياً، الأمر الذي فوقه ولا يجوز له مراجعة غير مرجعه كما لا يجوز لأي مرجع إعطاء أي أمر خطي أو شفهي لغير موظفيه.

١٢ ـ على مقام الصدارة العظمى إذا وجد في انتقاء موظفي الدولة خطـأ، بيـان هذا الخطأ وإصلاحه والإشراف على تبديل الموظف الذي يظهر منه عجـز أو سوء تصرف في وظيفته.

١٣ ـ يعلن في بدء السنة المالية موازنة الدولة حاوية الواردات والنفقات العاديـة وغير العادية كما تعلن موازنة كل دائرة ولاية الموازنة العامة.

وهكذا وضع حدّ بصورة سلمية للثورة التي قام بها الضباط الأحرار.

ونتيجة لذلك صدر عفـو عـام عـن جميـع المعتقلـين السياسـيين وكـل مـن اشترك في أعمال الشقاوة التي سببتها الثورة كما رفعت القيـود المفروضـة على الأشخاص المنفيين والمبعدين. وبالمقـابل جـرى اعتقـال أقطـاب عهـد الإسـتبداد، وتقرّر إلغاء منظمـة (الخفيّـة) الـتي كـانت السـبب في وقـوع سـوء التفـاهم بـين (السلطنة والملة)، وبدأ اتصال الحكومة الرئيسية بأركـان جمعيـة الإتحـاد والـترقي فألغيت المحاكم الإستثنائية القائمة في الولايات المقدونية وفي العشـرين مـن شـهر أيلول ١٩٠٨م تمّ نشـر القـانون الجديـد لانتخـاب النـواب مـع لائحـة تتضمـن صورة تطبيقية وبموجبه يجر ي الانتخاب على درجتين، ينتخب في الأولى، من أتمّ الخامسة والعشرين من عمـره، مـن الذكـور النـاخبين الثـانويين الذيـن ينتخبـون بدورهم نواب اللواء، على أن تكون مدة النيابـة أربـع سـنوات، وعـدد أعضـاء المجلس النيابي : ٢٨٨ نائباً.

وقد جرت الانتخابات للمجلـس النيـابي علـى درجتـين في شـهر تشـرين الثاني ١٩٠٨م وتمثل في المجلس الجديد جميع عناصر الأمبراطورية العثمانية فبلـغ عدد الأعضاء الأتـراك ١٤٧ إلى جـانب ٦٠ عضـواً عربيـاً و٢٧ عضـواً ألبانيـاً

و٢٦ عضواً يونانياً و١٤ عضواً أرمنياً و٤ أعضاء يهوداً و١٠ من السلاف. وجرى تمثيل كل الملل بنسبة عدد السكان التقريبية. وبعد ذلك تم تعيين أعضاء مجلس الأعيان. وعند افتتاح المجلس العمومي المؤلف من مجلسي الأعيان والنواب في الرابع من شهر كانون الأول ١٩٠٨م بحضور السلطان عبد الحميد والتخاب رئيسي المجلسين وأمناء سرهما، بدأت أعمالهما بما يتفق والدستور، وإذ كانت المدة المعينة لاجتماع المجلس العمومي أربعة أشهر تنتهي بنهاية شهر أذار ١٩٠٩م وهي لم تكن وقتذاك كافية لإنجاز المشاريع والمهام المفروضة عليه، فقد أصدر الصدر الأعظم حسين حلمي باشا، إرادة سنية بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٠٩م بتمديد مدة الاجتماع حتى نهاية شهر حزيران من السنة وذلك بموجب نطق همايوني تلي في المجلس. هنا تجدر الإشارة إلى أنه قبل إجراء الإنتخابات النيابية في الإمبراطورية العثمانية، وبالتحديد في شهر تشرين الأول ١٩٠٨م أقدمت دولة النمسا على ضم إقليمي البوسنة والهرسك اللذين كانت الدولة العثمانية تحتلهما عسكرياً منذ العام ١٨٧٨م. إلى ممتلكاتها، ضاربة عرض الحائط بمعاهدة برلين، إضافة إلى أن فرديناند ملك بلغاريا رأى من المناسب في ذلك الوقت أن يعلن رسمياً عن استقلال بلاده. ويمنح لنفسه لقب قيصر. وذلك دون أن تهتم الدول الكبرى بذلك أو تتحرك لدعم السلطنة العثمانية في المطالبة بحقوقها المستمدة من معاهدة برلين المشار إليها آنفاً. الأمر الذي جعل لهذين الحديثين إنعكاسات شديدة في داخل السلطنة. حيث راح أفراد الشعب يدعون إلى مقاطعة البضائع النمساوية، ويتوقف عن المناداة بشعارات المحبة الأخوية بين المسلمين والمسيحيين.

وبعد أن كانت لجنة الإتحاد والترقي التي سيطرت على الحكم في تركيا

بعد فوزها في الإنتخابات قد أتفقت فيما بينها على منع السلطان عبد الحميد من التدخل في أحوال الأمة، واستعان ممثلوها بالخبراء الأجانب للقيام بتنظيم دوائر الدولة فيما يختص بالشؤون البحرية والمالية والتجارية والدرك وغيرهما، فإنها أجرت حركة تطهير واسعة في الإدارة لكافة العناصر الموالية لعبد الحميد. ولكنها اخفقت بالنتيجة في مهمتها إذ سرعان ما واجهتها بعض الاعتراضات التي وقف وراءها رجال الدين المتزمتون والرجعيون المتعصبون، والجواسيس العاطلون عن العمل، والضباط المجردون من رتبهم. والباشوات المتذمرون، فبرزت عند ذلك حركة شعبية ضد الثوريين والضباط الأحرار، منها حركة الأخوة الحمدية، وحزب الإتحاد الحر برئاسة اسماعيل كمال بك، الذي كان ينادي بالامركزية في الإدارة، خلافاً لرأي لجنة الإتحاد والترقي التي كانت تدعو للمركزية

وقد تفاقم الخلاف بين هذه اللجنة ومعارضيها في العاصمة استانبول التي انقسمت بدورها على بعضها وفي أحد الأيام عقدت جلسة صاخبة في المجلس تجرأ خلالها كامل باشا على مهاجمة أعضاء لجنة الإتحاد والترقي، فقام أنور بك وأصدقاؤه وشهروا مسدساتهم في وجوه النواب مؤكدين بهذه الطريقة سلطتهم في المجلس. وفي اليوم التالي فوجيء كامل باشا بإقالته من منصبه وبحلول حلمي باشا محله ولم يسع هذا الأخير إلاّ الخضوع التام لرغبات لجنة الإتحاد والترقي. ثم تلا ذلك استشهاد محرّر جريدة الإتحاد الحرّ الذي كان هاجم فيها حركة الرجعيين الشعبية ولجنة الأتحاد والترقي في آن معاً؛ وكان القاتل يرتدي بزة ضابط فلم تكشف هويته. وبعد ذلك أي في الحادي والثلاثين من شهر آذار ١٩٠٩م قام جنود السلطان من حامية العاصمة على رأس أفراد من العناصر

الرجعية المناصرين له وبالإشتراك مع محاربي حزب الإتحاد الحرّ بهجوم على مجلس النواب حيث أطلقوا النيران على نواب الإتحاد والترقي وقضوا على حياة بعضهم ومن بينهم الأمير محمد إرسلان مبعوث اللاذقية الذي قتل على سبيل الخطأ لظنّ قاتليه بأنه حسن جاهد بك الركن الإتحادي المعروف ورئيس تحرير جريدة طنين لسان حال الاتحاديين نظراً لقوة الشبه بينهما. كما قتل وزير العمل وأصيب وزير البحرية بجراح.

وفي الوقت نفسه قام أشخاص ينتمون إلى الجمعيات الإرتجاعية في بعض مراكز الولايات والألوية الشرقية والعربية بتظاهرات ومشاغبات واعتداءات كان أهمها ما وقع في مدينة أضنه مركز الولاية وملحقاتها من هجوم مدبر على الأرمن.

وبعد حدوث هذه المؤامرة الإرتجاعية قامت حامية الأستانة، بإيعاز من أركان السراي وعرضت مطاليبها ملخصة كما يلي:

١ ـ إحياء الشريعة.

٢ ـ عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية.

٣ ـ طرد أحمد رضا بك وحسن، جاهد بك وجاويد بك ورحمي بك وطلعت بك وإسماعيل حقي بك من المجلس.

٤ ـ عزل محمود مختار باشا لعدم اشتراكه معهم أي مع أفراد الحامية.

٥ ـ العفو عن أفراد الحامية.

عقد مجلس المبعوثان عند ذاك جلسة فوق العادة وقرّر الأعضاء الحاضرون

فيها إجابة مطلب الإرتجاعيين واقترن قرار المجلس بموافقة السلطان عبد الحميد الذي أصدر مرسوماً بتعيين توفيق باشا بمنصب الصدارة العظمى، وأدهم باشا بنظارة الحربية، كما تقرّر إصدار العفو عن الجنود المشتركين في المؤامرة وكان يبلغ عددهم ما يقارب الثلاثين ألفاً، ثم تقدّم رئيس المجلس أحمد رضا بك بطلب استقالته من منصبه فقبلت استقالته.

وقبل أن تمتد أعمال العنف في سائر المناطق ويتمادي الثائرون في مطالبهم، قام جيش الروم إيلي وعلى رأسه المشير محمود شوكت باشا، مع أركانه وضبّاطه، بالزحف على العاصمة لإحباط المؤامرة، وبالتالي للمحافظة على الدستور ومجلس المبعوثان، وفور دخول هذا الجيش إليها سارع قائده إلى محاصرة قصر يلديز حيث أرغم الحامية السلطانية على التسليم وإلقاء السلاح، بعد معركة حامية معها. ثم تابع هذا الجيش الدستوري عمله فحاصر أيضاً حامية أسكودار واستولى على مراكزها. وبعد القبض على عدد كبير منها أعلنت الأحكام العرفية في المناطق التي وصل إليها الإخلال بالأمن. وإذ لم يعد ثمّة خطر على القانون الأساسي، عاد بعض أعضاء المجلس إلى العاصمة واجتمعوا بصورة سرية في ١٤ نيسان ١٩٠٩م في سان استفانو بحضور أنور بك ونيازي بك، وقرّروا في الجلسة التي عقدوها، خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وإقامة شقيقه ولي العهد محمد رشاد مكانه في مركز الخلافة والسلطنة. وعلى إثر اجتماع المجلس العمومي المنعقد بصفته المليّة، مؤلفاً من الأعيان والنواب في اليوم ذاته أي في الساعة السادسة والنصف مساء تليت الفتوى الشرعية التي وقّعها شيخ الإسلام محمد ضيا أفندي بهذا الشأن، فوافق عليها المجتمعون وأجمعت آراؤهم على ترجيح أحد شقيها المتضمن الخلع ترجيحاً مقترناً بالأدلة، وذلك

بإسقاط السلطان عبد الحميد الثاني من الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية واعتلاء ولي العهد الشرعي محمد رشاد أفندي مقام الخلافة والسلطنة بعنوان السلطان محمد الخامس.

وبعد إتمام المراسم المعتادة، دوّت المدافع مؤكدة اعتلاء السلطان الجديد، عرش الخلافة والسلطنة، وأعلن تكليف وفد من قبل المجلس الوطني العمومي، لإبلاغ السلطان عبد الحميد الثاني، قرار خلعه. وكان هذا الوفد يضمّ النواب: إيمانويل قواصو اليهودي وأسعد طويطاني الألباني وعارف حكمت التركي، وآرام أفندي الأرمني.

وعند اجتماع هذا الوفد بعبد الحميد لإبلاغه القرار المتعلّق به، خاطب الحاضرين أمامه قائلاً: «لقد عملت ثلاثة وثلاثين عاماً من أجل الأمة والدولة ومن أجل سلامة البلاد وخدمت قدر طاقتي. إنني حاكم يحاكمني الله ورسوله، وإني أسلّم البلاد بمثل ماوجدتهاعليه ولم أفرّط أبداً في شبر من أرضها لأحد وأترك لله وحده عزّ وجلّ أمر تقدير خدماتي. وما حيلتي إن شاء أعدائي إسدال ستار أسود على كل خدماتي». ثم قال بصوت مرتفع:

«هزم الله أعدائي». وهكذا انقضى حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

الوطن العربي أبان حكم السلطان عبد الحميد

ما أن تولى عبد الحميد السلطة حتى أقام أسس حكمه على التجسس والإضطهاد، حيث نشأ بذلك نظام أصبح فيه الجواسيس الذين استخدمهم لتحقيق أهدافه السياسية، يؤلفون طبقة حاكمة قوية من الأوباش الفاسدين. بحيث لم يسلم أحد من أذاهم سواءً كان بريئاً أو كائنة مكانته ما كانت.

وربما كانت الطريقة الوحيدة للنجاة هي تقديم الرشوة إليهم في حينها، وقد فرضت الرقابة وزادت شدتها حتى قضت على كل نشاط صحفي أو أدبي مهما كان نوعه. وغدت المحاكم أداة طيعة في أيدي طغمة القصر. واضحى من الميسور بوجه عام فرض أي عقاب مقدماً، ثم يتم اللجوء للمحاكم لكي تستخرج للحكم الصياغة القانونية المناسبة. وكانت عقوبة الإعتقال أو الإبعاد أو النفي من أكثر العقوبات شيوعاً في تلك الفترة لأقل اشتباه أو وشاية بأحد المواطنين. وعندما وطد عبد الحميد سلطته في داخل دولته أخذ يقيم فوقها بناء سياسته الخارجية وخططه الاستعمارية. ولم يكن بدوره غافلاً عن حقيقة مركز دولته الضعيف بين الأمم.

وبلغ من الفطنة مبلغاً جعله يدرك أن السبيل الوحيدة لسلامة تركية تعتمد على ما بين الدول الكبرى من خصومات وتنافس. وكان زحف الجيوش الروسية ووصولها إلى أبواب القسطنطينية قد أزال الغشاوة عن عينيه، وكشف له عن حقيقة قوته العسكرية، أما معاهدة برلين، فبالرغم من أن انجلترة قد كبحت من جماح روسية، فأدى ذلك إلى تخفيف شروط المعاهدة، غير أنها كانت

تذكره، في مضاضة وذل، بأن دولته لم يكتب لها البقاء إلا لأن الدول تسامحت معه وتجاوزت عنها. كما أن الدولة كانت، من الناحية المالية قد بلغت مرحلة الافلاس.

وجاءت وجوه العلاج التي فكر فيها عبد الحميد تحمل طابع تفكيره اللاواقعي الضيق. فبدأ أولا بالحصول على المال برهن الموارد الرئيسية للدولة التي لا تخيب في تحقيق الهدف، وهي الحصول على تأييدهم وموافقتهم على جميع الاعمال المهمة قبل تنفيذها. حتى لقد قيل ـ وهو قول حق ـ انه إذا كان الباب العالي ومناصب الوزارة قد ظلا مجالاً يصول فيه الاتراك ويجولون، فقد سقط القصر جميعه في أيدي العرب.

وحينما كان عبد الحميد يخفق في سياسة التقرب والتودد، كان يلجأ إلى وسائل الفتك والعنف. وكان قد اختار جماعة من الجواسيس يجوبون البلاد العربية، يلبسون مسوح الوعاظ والمبشرين، بينما كان عملهم الحقيقي أن يبذروا بذور الخلاف ويهيجوا أسبابه بين الزعماء الاقطاعيين ورؤساء القبائل البدوية الكبيرة، فكانوا يستغلون المنازعات العائلية والخلافات القبلية وطلب الثأر، ويسعون في توسيعها وتعميقها. وكان يمد بعض العملاء بالمال ليثيروا القلاقل فيضطرب الامن، حتى يتخذ من ذلك ذريعة ظاهرة ليوقع العقاب ببعض شيوخ القبائل أو الزعماء انتقاماً منهم لأنهم لم يخضعوا لرغباته. وكان يجيز الالتجاء إلى الاغتيال، بل لقد أمر به في بعض الحالات. فإذا كان الضحية ذو مكانية سامية ومرموقة يصعب معها الإنتقام منه بصورة عاجلة، كان عبد الحميد يستدعيه إلى القسطنطينية. ويؤمن له كافة سبل الرفاهية والعيش الرغيد ويسبغ عليه مظاهر الحفاوة والتكريم، ويحيطه في الوقت نفسه بمجموعة من جواسيسه لينقلوا له كل حركاته. ويمكن القول بأن قصة الشريف حسين بن علي هي خير مثال على ذلك.

الشريف حسين بن علي

كان الحسين بن علي، سليل الدوحة الهاشمية، وهي أشرف الاسر العربية جمعاء، لأن أفرادها ينتمون إلى أبناء الظهور من نسل بنت الرسول، وكان شريف مكة يُختار من بينهم، وحملوا شرف هذا اللقب أجيالاً متتالية. وكانت التقارير التي وصلت عبد الحميد تصف الحسين الشاب بأنه قوي الارادة صلب عنيد، وأنه يخفي آراه ولا يفصح عنها إلا نادراً. وأن هذه الآراء تدل ـ حين يفصح عنها ـ على أنه ذو تفكير أصيل مستقل، وهو أمر «خطر». وكانت هذه الاسرة تتمتع بمنزلة سامية في العالم الاسلامي فكان سلاطين تركية يعاملون أفرادها بحذر وحرص ويتظاهرون باحترامهم. فتلقى الحسين دعوة، مغلّفة بالرقة والتأدب، ليذهب مع أهل بيته ويقيم في القسطنطينية. فوصلها سنة ١٨٩٣، وكان آنذاك لا يزال شاباً في نهاية العقد الرابع من عمره، ومعه زوجته وأبناؤه الثلاثة الذين بلغوا سن الالتحاق بالمدارس وهم: علي (وقد أصبح فيما بعد ملكاً على الحجاز)، وعبد الله (الذي أصبح أميراً على شرق الاردن)، وفيصل (الذي أصبح ملكاً على العراق). وظلت هذه الأسرة في الاسْر أكثر من خمسة عشر عاماً، كان الحسين خلالها ـ وهو رجل مؤمن عميق التدين ـ يحيا حياة هادئة قضاها في التأمل والسكون الظاهر. فانخدع جواسيس السلطان وجازت عليهم تلك المظاهر، ولكن عبد الحميد، بما أوتي من بصيرة نافذة تتحسس القوى الخفية، رأى في ذلك ما يدعو إلى تزايد قلقه، وقد صدق حدسه كما سنرى لاحقاً.



صاحب الجلالة المغفور له المنقذ الأعظم الحسين بن علي

قصة عزت باشا

كان عزت باشا أحد المغامرين الذين شقوا طريقهم إلى عبد الحميد بالمكر والخديعة، فنال الحظوة عنده. وكان عربياً من الشام، قضى ثلاثة عشر عاماً (إلى سقوطه في سنة ١٩٠٨) في منصب السكرتير الثاني للسلطان، وأصبح أقوى موظف في الدولة، لا يفوقه في الثروة والدهاء والنفوذ إلاّ سيده السلطان. وقد بلغ من ذكائه وخبثه ونشاطه ما ميّزه عن غيره ـ حتى في بلد كالقسطنطينية في العصر الحميدي ـ ولكنه مع ذلك لم يخل من خور العزم أو انثلام الحد، وهي حال كثيراً ما تختفي تحت الذهن الحاد فلا تظهر للعيان. وكانت صفته البارزة أن نظره الثاقب المصيب كان يتغلغل إلى معرفة جوانب الضعف في النفس الانسانية، وفي هذه الصفة يكمن سر نجاحه المدهش، فقد مكنته من ادراك جبن سيده السلطان وغروره، وجعلته يحس احساساً صادقاً بحالة سيده النفسية في اللحظة التي يكون معه فيها ويميزها تمييزاً صحيحاً. وكان في قرارة نفسه يحتقر عبدالحميد احتقاراً شديداً، وذلك يفسر لنا بعض الشيء، مقدرته على التلاعب بمشاعره بسهولة. ومجرى حياته مهم لنا لسببين: الاول عام وهو أنه أصبح محور سياسة عبد الحميد العربية، والثاني خاص وهو مد سكة حديد الحجاز.

فهناك من الدلائل ما يشير إلى أن فكرة مد سكة حديدية إلى الحجاز قد نبتت أولاً في ذهن عزت باشا، وان لم تكن تلك الدلائل يقينية، وأياً كان الامر فقد كان هو العامل الاكبر على تنفيذها واتمامها. وكانت خطته مد سكة

حديدية من دمشق إلى المدينة ومنها إلى مكـة، والهـدف الوحيـد منهـا في الظـاهر تيسير سبيل الحج، ولكنهـا في الحقيقـة ذات أهـداف سياسية وحربيـة قبـل كـل شيء. وتألف مجلس يرأسه عزت باشا، فوجه نداء إلى العالم الاسلامي وضّح فيـه الدافع الديـني الـذي ألهـم الخليفـة مـد السـكة الحديديـة، وأهـاب بالمسـلمين أن يتبرعوا بالمال لجمع نفقات المشروع.

وفي الوقت نفسه فرضت في جميع أنحـاء الدولـة ضريبـة خاصـة في صـورة طابع بريدي، ووجهت الدعوة إلى الموظفين في الحجاز ليتبرعوا بنسـبة معينـة مـن مرتباتهم. وعهد بالعمل إلى مهندسين مـن الالمـان، فبـدأوا التنفيـذ في ربيـع سـنة ١٩٠١، وما ان وافى خريف سـنة ١٩٠٨ حتـى كـانت السـكة قـد مـدت إلى المدينة، وهي مسافة تبلغ نحو ٩٠٠ ميل. وبلغ مجموع النفقات نحو ثلاثة ملايـين جنيه، جمع أكثر من ثلثها من الهبات التي تبرع بها المسلمون في جميع أقطارهم.

كان هذا المشروع، من عـدة وجـوه، ضربـة خبـير في السياسـة، قـد أثـار الحماسة البالغة في جميع ديار الاسلام، وربما كان لـه مـن الاثـر في تثبيـت مكانـة الخلافة أكثر من جميع خطط عبد الحميد الاخرى. أما من الناحية العسكرية فقد هيأ له هذا المشروع، بنفقات زهيدة تحملتها خزانته، من وسائل النقل الـبري مـا كان في أشد الحاجة إليه لوصول جنود جيشه إلى شبه الجزيرة العربيـة وعودتهـم منها. وكان قبل ذلك مضطراً إلى نقلهم بالبحر عـبر قنـاة السـويس فيحتـاج إلى وقت أطول ونفقات أكثر، أما الآن فقد أصبحت لديه سكة حديدية تمتد جميعهـا في مملكته، ويحق له أن يتطلع إلى اليوم الذي تمتد فيه هذه السكة جنوباً إلى مكة، بل ربما إلى ما بعدها فيستطيع بذلك أن يحكم قبضته على بلاد اليمن المتمردة.

ولكن أهم نتائج هذه السكة، وهي نتيجة ربما لم تخطر ببال عبد الحميد، أنها جعلت وسائل السفر في الولايات العربية الواقعة في الغرب أسرع مما كانت، وبذلك ساعدت على نقل الافكار وتبادلها. فقد كانت القافلة، قبل مد السكة الحديدية، تقطع رحلتها بين دمشق والمدينة حين تُغِذّ السير في أكثر من أربعين يوماً، وكان السفر في البحر من الشام إلى الحجاز يستغرق زمناً يتراوح بين عشرة أيام وخمسة عشر يوماً تبعاً لوجود السفن التي كانت رحلاتها قليلة العدد ومواعيد اقلاعها غير منظمة. أما بعد مد السكة الحديدية فأصبح السفر بين المدينتين يستغرق خمسة أيام. وقد قُدّر لهذا الاختصار في الزمن أن يكون ـ كما سنرى ـ ذا أثر بالغ في مصير الحركة العربية حين أتيحت لها فرصة الانفجار في ثورة علنية.

وقد كتب السفير البريطاني لدى الباب العالي في تقريره السنوي عام ١٩٠٧ ما نصه:

«ومهما يكن، فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشر الأخيرة. أما الاول فهو تلك السياسة الماهرة التي حدت بالسلطان إلى أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للاسلام، وبثت في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة حديد الحجاز، التي ستيسر لكل مسلم، في المستقبل القريب، سبيل الحج إلى الاماكن المقدسة في مكة والمدينة، فتتيح لهم التمتع في الآخرة بمسرات الجنة ومباهجها. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء إلى حد لم يسبق له مثيل، وأصبحوا يقبلون عن رضىً باستبداده المطلق الذي لم يشهد التاريخ له شبيهاً من

قبل. وصارت ارادة «الباديشاه» هي الشـريعة المطبقـة علـى الارض، فـاذا دعـا سوء الحظ مسلماً إلى أن يحس بارهاب الحكومة العنيف وطغيانها فانه يعزو هـذه المظالم إلى الموظفين، ولا يعزوه إلى الخليفة.

بداية الوعي الفكري

ما من شك بـأن القهـر والظلـم سـيولد بـين النـاس رغبـة في الخـلاص مما يعانوه. وقد تتخذ تلك الرغبة في بعض الأحيان ثورة عارمة انفعالية غـير منظمـة سرعان ما تفشل ويتم القضاء عليها. وقد تتكرر مثل هذه المحاولات عدة مـرات حتى يظهر بين عامة الشـعب رجـال عقـلاء ومفكـرون يسـتخدمون قـوة العقـل والمنطـق ويرجحونهـا علـى سـواها. فيقـودون بذلـك عامـة الشـعب ويقومـون بتوعيتهم وتوجيههم الوجهة الصحيحة.

وقد يتم ذلك بجهود أفراد أو جماعات. ومن بـين الأفـراد الذيـن اشـتهروا أبان الحكم العثماني الأفغاني ومحمد عبدو والكواكبي. وسوف نتحدث بإسهاب عن عبد الرحمن الكوابي لأنه عايش الفترة التاريخية التي نحن بصددها مع تقديرنا الكامل لرواد الفكر الأوائل.

عبد الرحمن الكواكبي

وهو رجل عربي مسلم، من مواليد مدينة حلب عـام ١٨٤٩. اضافـة إلى أنه من أسرة شامية مشهورة.

تلقى علومه الإسلامية في الكلية الإسلامية الرئيسية في بلدتـه حيـث كـان التعليم آنذاك لا يتم وفقاً للأصول العلمية. بل كـان يراعـي الأصـول الإنسـانية العميقة التي كانت سائدة آنذاك.

وبـدأ حياتـه العمليـة بـالعمل في الصحافـة والمحامـاة. ثـم دخـل الوظـائف الحكومية، وأعلن سخطه على الطغيان وندد به، فغضب عليه رؤساؤه، وما لبـث أن حكم عليه بالسجن وأطلـق سـراحه في العـام ١٨٩٩ غـادر علـى أثـر ذلـك الشام إلى مصر حيث كانت تنعم بقسط أكبر من الحرية، ثم شرع بعـد ذلـك في دراسة حياة العرب في البلدان النائية، وزار الصومال وزنجبار والأجزاء الداخليـة من اليمن، وبعدها أقام في مكة المكرمة زمناً طويلاً، ثم عاد إلى القـاهرة ليمـوت هناك فجأة عن أربعة وخمسين عاماً. وذلك عام ١٩٠٣.

ولم يكتب عن الكواكبي إلا القليـل، غـير أن بعـض النـاس الذيـن عرفـوه معرفة وثيقة لا يزالون أحياء لحسن الحظ، وآراؤهـم عنه تطابق ما تعكسه كتاباته من صفات شخصيته، ويبدو أنه لم يكن له أصدقاء حميمون عرفوه عن قرب، غير أن ما ذكره عنه الذين عرفوه أكثر مما عرفه غيرهم ـ يدل على أنه كان ذا حـس

عميق، وأن دوافعه كانت منبعثة من قلب رحيم صادق، وأن تفكيره كان هادئاً صافياً بالرغم من النار التي كانت تشتعل في أعماقه. ولا ريب في أنه كان يكره أشد الكره التعصب والظلم، وخاصة الظلم الذي يقع على الفقراء. وقد وصفوه بأنه كان متحدثاً ممتازاً يسحر سامعيه، في مجالسه اليومية بمقهى «سبلنديد بار» في القاهرة، بآرائه الجديدة الجريئة وبروح المرح والدعابة التي يتحدث بها. وكانت حلقة أصدقائه واسعة متنوعة: تضم النصارى واليهود إلى جانب المسلمين، إذ انه كان يطبق في حياته المبدأ الذي كثيراً ما نادى به من أن الوطنية فوق اختلاف الاديان. غير أن أصدقاءه الحقيقيين هم الفقراء، وليس هناك من عمل في حياته أدل على حقيقة طبيعته من المكتب الذي أسسه على نفقته الخاصة في حلب ليقدم المشورة القانونية والعون مجاناً للفقراء من جميع الطوائف. وكان يلقب في حلب بأبي الضعفاء، وقد نال هذا اللقب خلال سنوات قضاها في جهد متواصل يكافح في سبيل أنبل المطالب، وهو محاربة الظلم.

وكتابه الأول، وعنوانه «أم القرى»، هو سلسلة مقالات عن مستقبل الاسلام. تخيل فيها أن اثنين وعشرين شخصاً خيالياً من العلماء والفقهاء في الدين من اثنين وعشرين قطراً من أقطار العالم الاسلامي، قد اجتمعوا في مكة للحج، وبعد أن تبادلوا الآراء في أكثر من اثني عشر اجتماعاً رسمياً، قرروا أن ينشئوا جمعية ترمي إلى احياء الاسلام والنهوض به. والقسم الاكبر من الكتاب تدوين حرفي لوقائع تلك الجلسات الخيالية ثم يتلو ذلك نظام الجمعية الجديدة، وينتهي الكتاب باستطراد يبتعد عن الموضوع وهو الحديث عن الخلافة. والكتاب ممتاز، يدل على الذكاء، ويبعث السرور في النفس. وقد استطاع

الكواكبي، بتأليفه على هذه الصورة التي تدعـو إلى الاعجـاب، أن يعـرض آراءه الجريئة. وأما كتابه الثاني «طبـائع الإستبداد» فقـد جمـع فيـه مقـالات كـان قـد نشرها في الصحف المصرية، وأضاف اليها مقالات جديدة، وكلها عن موضـوع الاستبداد. وهو كتاب عميق مفعم بالتفكير، توهج فيه كره المؤلف للطغيان مـن غير أن يكدر ذلك هدوء فلسفته وانسيابها.

ونشر الكتابان كلاهما بالقاهرة في حياة الكواكبي دون أن يذكر عليهمـا اسم المؤلف، وتلقفهما الناس بالقراءة والمناقشة على نطاق واسع. وهربت نسخ منهما إلى بلاد الشام ووزعت خفيـة. وحـين ننظـر إلى الكتـابين معاً نجـد فيهمـا تحليلاً عميقاً بارعاً لضعف العالم الاسلامي عامة، وأقطاره العربيـة خاصـة، وبيـان أسباب هذا الضعف وأنـواع علاجـه الممكنـة، وفيهمـا دعـوة حـارة إلى اقتبـاس العلاج الصحيـح. وكـان يبـدو لـه أن ثمـة مطلبـين لهمـا قيمـة جوهريـة، الاول: وجوب بذل جهود جدية منظمـة لمحاربـة اتجـاه الفقهـاء الذيـن يقفـون في طريـق التقدم الفكري، ومكافحـة الجهـل المنتشـر بـين الجماهـير، والثـاني: أن يسـتعيد العرب مكانتهم اللائقة ودورهم في تقرير مستقبل الاسلام ومصيره. وكان يعتقد أن جمعية مثل التي تخيلها في «أم القرى» بفروعها المنتشـرة في جميـع أقطـار العـالم الاسلامي، كفيلة بتحقيق المطلب الاول، وأما المطلب الثاني فقد دعا اليـه دعـوة بليغة في استطراده عن موضوع الخلافـة في كتابـه «طبـائع الاسـتبداد». وهـذان الكتابان ـ من حيث همـا مشـاركة في الحركـة العربيـة ـ يتبـوّءان مكانـة فريـدة وحدهما في أصالتهما، واتساع أفقهما، وجرأتهما

وبدورنا نختار من أقوالـه هـذه الكلمـات الـتي يلخـص بهـا سـبب النفـور

القومي المستحكم آنذاك بين العرب والأتراك وذلك في كتابة أم القرى، حيث يقول:

«ولا يعقل لذلك (أي لعدم استعراب الاتراك) سبب غير شديد بغضهم للعرب كما يستدل عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الامثال في حق العرب، فاطلاقهم على عرب الحجاز «ديلنجي عرب» أي العرب الشحاذين، واطلاقهم على المصريين «كور فلاح» بمعنى الفلاحين الاجلاف، و «عرب جنكنه سي» أي نوّر العرب، و «قبطي عرب» أي النور المصريين، وقولهم عن عرب سوريا «نه شامك شكري ونه عربك يوزي» أي دع الشام وسكّرياتها ولا تر وجوه العرب، وتعبير بلفظة «عرب» عن الرقيق وعن كل حيوان اسود. وقولهم «بيس عرب» أي عرب قذر. و «عرب عقلي» أي عقل عربي، أي صغير، وعرب طبيعّي، أي ذوق عربي، أي فاسد، و «عرب جكه سي» أي حنك عربي، أي كثير الهذر، وقولهم «بوني يبارسه م عرب اوله يم» أي ان فعلت هذا اكن من العرب، وقولهم «نرده عرب طنبوره» أي أين العرب من الطنبور.

هذا والعرب لا يقابلونهم على كل ذلك بسوى كلمتين هي قول العرب فيهم: «ثلاث خلقن للجور والفساد، القمل والترك والجراد». والكلمة الثانية تسميتهم بالاروام كناية عن الريبة في اسلامهم. وسبب الريبة ان الاتراك لم يخدموا الاسلام بغير اقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر اسمائهم على منابرها لم تقم. وانهم أتوا الاسلام بالطاعة العمياء للكبراء وبخشية الفلك، ابي المصائب، وباحترام مواقع النيران «اوجاقات» فزادوا بذلك بلات في طين الخرافات»!

إن مثل هذا النفور لا يجد صداه في لغة قوم إلا إذا كان متأصلاً في اذهان الشعب عريقاً في تفكيرهم وشعورهم. ومن الواضح ان الكره والنفور كان متبادلاً بين العرب والترك مدة طويلة على الرغم من ولاء العرب «للخليفة» السلطان طوال الحكم العثماني تقريباً، هذا وتتمثل الحملة التي بدأها الكواكبي في أنها (ميزت بين الحركة العربية) والدعوة العامة إلى النهوض بالعالم الاسلامي، وهي التي دعا اليها جمال الدين الافغاني واستغلها عبد الحميد لتلائم أهدافه الخاصة. ولا ريب في أنه تأثر بسلفه جمال الدين الافغاني، وبيبهما وجوه شبه في الشكل وفي الجوهر تدل على ما بين عقليهما من صلة وثيقة. غير أن جمال الدين كان يعتبر العالم الاسلامي جميعه رقعة واحدة يجب أن تتوحد تحت ظل خليفة ما، سواء أكان هذا الخليفة تركياً أم أفغانياً أم مصرياً، على أن يبلغ من القوة منزلة تجعله السيد المطاع في أهله، بينما كان الكواكبي ممـيز تمييزاً دقيقاً بين الشعب العربي والشعوب المسلمة من غير العرب. وقد استوحى هذا التمييز مما علمه إياه التاريخ، أي من الدور الذي قام به العرب في ظهور الاسلام، وانتشاره، ومن الصلة الوثيقة بين العبقرية وروح الاسلام، ومن المنزلة الخاصة التي نالها العرب في تاريخ الاسلام بفضل لغتهم ونسبهم. وهكذا تراه يؤيد تأييداً كاملاً فكرة الوحدة الاسلامية وفي الوقت نفسه يدعو إلى الغاء حق السلطان في لقب الخلافة ووجوب مبايعة رجل عربي من قريش بالخلافة في مكة.

كان لا بدّ لهذه الافكار التي دعا اليها الكواكبي من أن تسهم في تحويل قيادة الحركة العربية إلى أيدي المسلمين شيئاً فشيئاً. ولم تكن حملته هذه وليدة التعصب، بل كانت على نقيض ذلك تدعو إلى نبذ الخلافات الطائفية، وقد كتب كثيراً من الفصول دعا فيها بحماسة واخلاص واضح إلى المساواة بين

الاديان لتحقيق التماسك القومي. وكـانت حملتـه ترمـي إلى النهـوض بالمسـلمين جميعاً كما كانت ترمي إلى النهوض بالامة العربية، ولذلك كان لا بد لهـا مـن أن تهز المسلمين هزاً عميقاً، وأن تستثيرهـم بهذا الحافز المزدوج.

جامعة الوطن العربي

بعد عام واحد من وفاة عبد الرحمن الكواكبي كان هناك رجل آخر يقوم بتنظيم حركة سياسية أخرى وهو نجيب عزوري، ذلك العربي النصراني الذي ازداد نشاطه في أيام عبد الحميد الأخيرة حيث بدأ حملته في باريس عام ١٩٠٤ عندما أسس جمعية عرفت بإسم «جامعة الوطن العربي» وكان هدفها المعلن تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية، وأصدرت عدة نداءات عنيفة تدعو فيها العرب إلى الثورة. ونشر في السنة التالية كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه «يقظة الامة العربية» وما أن مضت سنتان بعد ذلك حتى كان قد استطاع أن يستميل بعض الكتّاب الفرنسيين المشهورين ويكسب تعاونهم معه، فبدأ يصدر بالفرنسية مجلة شهرية عنوانها:

«الاستقلال العربي» ظهر العدد الاول منها في نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٧. وكان هدف المجلة أن تنشر المعرفة عن البلاد العربية، وأن تثير الاهتمام بقضية تحريرها. وتوقفت عن الصدور حين أعلن الدستور العثماني في تموز (يولية) سنة ١٩٠٨.

ولقد أثارت حملة عزوري شيئاً من الاهتمام في أوروبة في ذلك الحين، ولكن أثرها في الحركة العربية نفسها كان ضئيلاً. وبغض النظر عن قيمة هذه الحركة، فان ظهورها في عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية كان أمراً في ذاته يدعو إلى شلها والحد منها. ولم يقدر لها أن تنفذ إلى أعماق الحركة العربية.



الخديوي إسماعيل

وقد كان نمو الوعي العربي القومي في عهد عبد الحميد بوجه عام نمواً بطيئاً لا يكاد يلحظ. ولم ترفع هذه الحركة الوليدة رأسها إلا في مناسبتين، الاولى: في بداية عهده حين قامت جمعية بيروت السرية بحملتها، والثانية: في السنوات الاخيرة من حكمه حين أثار الكواكبي أعاصير الهياج. أما في غير هاتين الحالتين فقد كانت الحركة هاجعة كأنّما استغرقت في النوم، لأن طغيان عبد الحميد جثم فوقها، وخدرت أوصالها سياستُه العربية.

وفي أثناء تلك الفترة انفصلت مصر عن الحركة العربية، واتبعت سياسة وطنية خاصة بها. وقد بدأ هذا التحول في العقد الثامن من القرن التاسع عشر

على عهد الخديوي اسماعيل، حين أثار إشراف هـذا الحـاكم ووقوعـه في أحـابيل المال الاوروبي ـ موجة مـن السـخط العـام. وحتـى ذلـك الحـين كـانت الحركـة الفكرية في مصر تسـير جنبـاً إلى جنـب مـع الحركـة الفكريـة بالشـام وفي نفـس الاتجاه، وذلك من حيث أحياء الثقافة العربية وميلاد الوعي العربي القومي، فإذا ما انبعث صوت من أحد هذين القطرين تردد صداه في القطر الآخـر فاسـتجاب له.

وكانت القاهرة وبيروت مركزين لألـوان مـن النشـاط متوافقـة، وكـانت منزلتهما التي بلغاها مستمدة من مصدر ثقافي مشترك، ولذلك كانا يؤثـران معـاً في سائر البلاد الناطقة بالضاد. ولكن حينما احتلت بريطانية العظمى مصر سـنة ١٨٨٢، في الفترة التي بدأت فيها اليقظة القوميـة تتخـذ طـابع الحركـة الفكريـة السياسية ـ ظهر اتجاه فكري جديـد ذو صبغـة مصريـة محـددة ويرمـي إلى هـدف واحد لا يتعداه، وهو السعي لارغام جيش الاحتلال البريطاني على الانسحاب.

وهكذا ولدت القومية المصرية، واتجه قادتها وجهـة جعلتهـا بمـرور الأيـام تزداد انفصالاً عن الحركة العربية العامة. ومع ذلك فقد ظلت الصـلات الثقافيـة تربط بين مصر وسائر الاقطار العربيـة، وخاصـة أن وادي النيـل قـد زاد رخـاؤه وأمنه في ظل وصاية انجلترة وحمايتها، فأصبح لذلك مأوى يلتجىء اليـه ضـروب متعددة من الناس: من طلاب العلم، والكتاب، والمفكرين السياسيين، من البـلاد العربية التي ظلت خاضعة لحكم السلطان.

وكانت آمال المصريين لا تزال آنئد ـ كما هي اليوم ـ متفقة اتفاقـاً كبـيراً مع آمال العرب. ولكن الانفصال كان تاماً في مجال العمل القومي الخالص.

وهذا ما حدث أيضاً مع تونس التي كانت تحت الحماية الفرنسية. وهكذا وجدت الحركة العربية القومية نفسها محصورة حينئذ - أكثر من أي زمن مضى - في نطاق بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية.

ولما كانت مصر بعيدة عن متناول يد عبد الحميد فقد أصبحت القاهرة أحد مراكز التآمر على حكم الطاغية. وكانت باريس مركزاً آخر من هذه المراكز. فتجمع في هاتين العاصمتين جماعات من اللاجئين السياسيين - وكانوا يسمون أنفسهم «الشبّان الاتراك» (تركية الفتاة) - ، وشرعوا يتآمرون ويتصلون سراً بالموالين لهم في سالونيك ليقضوا على استبداد السلطان، وآتت هذه المؤامرة ثمارها في الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) سنة ١٩٠٨.

بداية التنظيمات السياسية

في الرابع والعشرين من تموز لعام ١٩٠٨ منح السلطان عبد الحميد الدستور لرعاياه، وذلك وسط موجة من الذعر التي أثارها انفجار الثورة العسكرية فجأة.

وفي اليوم التالي الغى السلطان الرقابة، ثم أطلق سراح جميع المساجين السياسيين، وسرح جيشه المؤلف من ثلاثين ألف جاسوس.

وهكذا أطلت الحرية، أو على الأقل صورتها على الورق، تماماً كما تطل ملكة المهرجان التي تدور من طرف المكان وتنحني وهي توزع هباتها بملء يديها.

وقد كانت هذه الثورة من تدبير جمعية الإتحاد والترقي، تلك المنظمة السرية التي أنشأها الشبان الأتراك «تركيا الفتاة» في مدينة سالونيك والتي كانت أهم أهدافها القضاء على استبداد السلطان. ولا نجد في هذا المجال ما يدعونا للتحدث عن المزيد عن منظمة «تركيا الفتاة»، لأننا لا نجد ما يربط بين أهدافها وأهداف الحركة العربية سوى إشتراكهما في كراهية استبداد السلطان عبد الحميد. وبالرغم من أن بعض العرب الذين كان معظمهم من ضباط الجيش قد انخرطوا في هذا التنظيم وتعاونوا مع قادته تعاوناً وثيقاً، فإنهم قد فعلوا ذلك بوصفهم مواطنين عثمانيين. وليس بوصفهم عرباً قوميين.

وقد كانت جمعية الإتحاد والترقي خليطاً من أجناس وأديان مختلفة، وكانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك، ويليهم اليهود. قبل أن ينجذب اليهم بعض الرعايا العثمانيين من الأجناس الأخرى. أو أن يقف خلفهم بعض اللاجئين السياسيين أو المنفيين إلى خارج البلاد. ومع أن الدوافع التي وجهت الجمعية وسيرتها كانت دوافع متعددة كتعدد عناصر تكوينها، إلا أن هدفها الرئيسي كان القضاء على حكم عبد الحميد الفردي وإقامة حكومة اكثر صلاحاً على أساس دمج كافة الأجناس والقوميات في بوتقة نضالية واحدة. وهذا ما كان يرمي إليه دستور عام ١٨٧٦، وكان الأعضاء العسكريون هم أصحاب النفوذ في مجالس الحزب، لأن الجيل في تلك الفترة كان قد نشأ على فكرة تمجيد التربية العسكرية.

ويبدوا أن الحزب لم يجد أمامه أي مفر لتحقيق أهدافه سوى القوة العسكرية التي كان يخشاها عبد الحميد.

ولم يكن الدستور بحد ذاته إلا نفس المشروع الذي سبق لمحدت باشا أن قدمه عام ١٨٧٦ بعدما أعيدت إليه الحياة بجرة قلم، وذلك بكل ما فيه من النقائص التي ازدادت سوءاً واتضح مافيها من نقص بحكم تقدم الزمن ونمو الشعور الوطني.

ومع ذلك فإن إحياء الدستور قوبل بحماسة شديدة، وخاصة بين القوميين العرب.

لقد دفعتهم الفورة الأولى من شعورهم بالخلاص إلى فهمه بشكل غير مستنير، وتوهموا أنه الحرية الحقيقية التي يسعون إليها. مما جعل الفرصة مناسبة

لترويج فكرة التآخي بين العرب والترك والمسلمون والمسيحيون، وكان الجميع يعتقدون بإخلاص بإمكانية الدستور على سد حاجات كل طرف منهم، لأنهم جميعاً كانوا قاصرين عن فهم ما فيه من خبائث. لأن تمهيده السبيل لصهر كافة الأجناس المختلفة في ظل حكم عثماني واحد تكون اللغة التركية هي السائدة فيه هو نقض جوهري واضح لمبدأ تحقيق الشخصية الفكرية. ولدلك كان لا بد من مرور بعض الوقت حتى تنجلي الحقائق أمام الجميع.

وفي هذه الأثناء وخلال ما يمكن تسميته بشهر العسل التركي العربي.

انشئت أول جمعية عربية بإسم «جمعية الإخاء العربي العثماني»

وقد افتتحت الجمعية رسمياً وسط مظاهر الحماسة في اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في القسطنطينية في اليوم الثاني من شهر إيلول، وحضره أعضاء من جمعية الإتحاد والترقي. وكانت أهدافهم الرئيسية المحافظة على الدستور، وتوحيد جميع العناصر في الولاء للسلطان، وتحسين أوضاع المقاطعات العربية على أساس المساواة الحقيقية مع الاجناس الاخرى في الدولة، ونشر التعليم باللغة العربية وتنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية واتّباعها. وكانت عضويتها مباحة للعرب على اختلاف أديانهم، وتقرر انشاء فروع لها في جميع المقاطعات العربية، وأصدرت فعلاً صحيفة للدعوة إلى نشر مبادئها التي كانت تقوم ـ كما رأينا ـ على أفكار مضطربة مشوشة.

وقد حدث في هذه الاثناء حادثان يستحقان منا العناية. أولهما:

الاحتفال رسمياً بافتتاح سكة حديد الحجاز في شهر ايلول (سبتمبر) من تلك السنة، وكانت السكة قد تمّ امتدادها حتى المدينة، وثانيهما: تعيين الشريف

حسين بن علي أميراً على مكة. علماً بأن كلمة الشريف هي لقب يحمله كل من هو من سلالة الرسول (ص). ولا يدل ذلك على أن له عمل يتولاه. أما المنصب الذي عين فيه حسين فهو شريف مكة وأميرها وكان ذلك يتضمن عملاً مهماً في حماية الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز والإشراف على الحج وما شابه. وقد كان الشريف حسين قبل ذلك لا يزال يعيش في القسطنطينية. في تلك العزلة الإجبارية التي كانت تفرض على ضيوف السطان. حيث قضى هنالك أسيراً حوالي ستة عشر سنة.

وقد كبح هذا الأسر من جماح نفسه ولكنه لم يقتلها، وذلك لأنه كان بفطرته ذكياً وكثير الحديث. غير أن الحذر الذي فرض عليه أن يلتزمه والذي انغرس في نفسه بحدة بسبب سلسلة من حوادث الخيانة والغدر من أناس وضع فيهم ثقته، كل ذلك علمه التحفظ والحرص وكان في الحياة العامة ـ وقد عينه السلطان عضواً في مجلس شورى الدولة ـ شخصية بارزة موقرة، وهو أمر لا بد منه لرجل من سلالة رسول الله ويعيش في عاصمة الاسلام. وفضلاً عن شرف محتده. فان تقواه ومسلكه الرفيع، وطريقة حياته المستقيمة النقية ـ كل ذلك أكسبه احترام عدد كبير من المعجبين. لهذا السبب بل أيضاً لسبب أهم هو ما كان معروفاً من كره السلطان له ـ اختاره أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا في الحكم ليكون شريفاً لمكة بدل الشريف الحاكم. ولقد عارض عبد الحميد هذا التعيين، وأكد ببعد نظره الثاقب أن الحسين حين يتولى منصباً مهماً كهذا المنصب لن يكون مجرد آلة، ولكنه سيصبح قوة دافعة بل ربما أصبح حطراً مهدداً. ولكن لم يصغ أحد لتحذيره، فأبحر الحسين إلى الحجاز، وكان عمره آنئذ ثلاثاً وخمسين سنة.

ثـم أجريـت الانتخابـات لأول مجلـس للنـواب في ظـل الدسـتور الجديـد، وكان مجالاً لأن يصاب هذا التحالف غير الطبيعي بين الترك والعرب بأول هـزة. فقد كانت جمعية الاتحاد والترقي تشرف على جهـاز الانتخابـات، وكـانت تدير هذا الجهاز بطريقة تضمن معها نجاح الاغلبية العظمى من مرشحيها. وفضلاً عـن ذلك كانت الدوائر الانتخابية قد حددت تحديداً يحقق مصلحـة العنصـر الـتركي على حساب الاجنـاس الاخـرى. ولم يكـن الـترك قـط أكـثر الاجنـاس عـدداً في الدولة، وكان العرب في الواقع يفوقونهم عــدداً بنسـبة تقـارب ثلاثـة إلى اثنـين، ومع ذلك فقد كان مجموع أعضاء «مجلـس المبعوثـان» الـذي اجتمـع في كـانون الاول (ديسمبر) ٢٤٥ عضــواً منتخبـاً، مـن بينهـم ١٥٠ مـن الـترك و٦٠ مـن العرب، أي كان الترك متفوقين بنسبة خمسـة إلى اثنـين. وأمـا في مجلـس الاعيـان (الشيوخ) ـ وكان عدد أعضائه اربعين عضواً يعينهم السـلطان ــ فلـم يكـن فيـه غير ثلاثة من العرب. وكانت هذه حلقة واحدة من سلسلة التدابير التي كشفت عن الفرق ـ الذي أخذ يتسع مع الزمن ـ بين مـا كـان يقولـه الاتـراك عـن مبـدأ المساواة العنصرية وبين ما كانوا يفعلونه في الواقع. وكانت هذه الفرصة السانحة للمرتابين المتشككين من العرب، فـأصبحت هواجسـهم وشـكوكهم منـذ ذلـك الحين تجد آذاناً مصغية.

وفي نيسان (ابريل) من السـنة التاليـة شبت ثـورة أخـرى كـانت مفاجئـة كالثورة التي شبت في تموز (يولية) المنصرم، وكــان عبـد الحميـد هـذه المـرة مـن وراء الثـورة يرمـي إلى القضـاء علـى جمعيـة الاتحـاد والـترقي. ففـي ١٣ نيســان (ابريل) ثارت الكتائب التي كانت تتألف منها حامية القسطنطينية، بتحريض من عملاء السـلطان، فـاقتحموا مبنـى البرلمـان وقتلـوا وزيـر العـدل وأحـد النـواب

العرب، فضلاً عن عدد من ضباطهم. وحين وصلت أنباء الثورة إلى سالونيك، قرر محمود شوكت باشا أن يهجم على العاصمة. وهو عربي نال منصباً عالياً في الجيش التركي، وكان آنئذ قائداً للكتائب المعسكرة في سالونيك. فدخل القسطنطينية في اليوم الرابع والعشرين بعد قتال مرير بعض الشيء، وأعاد إلى جمعية الاتحاد والترقي سلطتها ونفوذها. وبعد ثلاثة أيام اجتمع مجلس الاعيان ومجلس النواب معاً وأعلنوا خلع عبد الحميد ونصبوا بدلاً منه أخاه الامير رشاد سلطاناً كما ذكرنا سابقاً.

السلطان محمد الخامس

بعد ارتقاء السلطان محمد رشاد الخامس عرش السلطنة تألفت الوزارة الجديدة برئاسة الصدر الأعظم توفيق باشا. وبهذه المناسبة تلي في الباب العالي، الخط الهمايوني المؤرخ في ١٥ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ ـ ٢١ نيسان ١٩٠٩م وهذا نصه:

وزيري سمير المعالي توفيق باشا.

بناء على خلع السلطان عبد الحميد الثاني من مقام الخلافة والسلطنة بموجب القرار المتخذ بالإجماع في المجلس العمومي بصفته المليّة وفاقاً لمشيئة تبعتنا ولأحكام الفتوى الشريفة الصادرة من جانب الشرع العالي للأسباب المعلومة لدى الجميع، جلسنا على سرير أجدادنا العظام بإرادة مالك الملك الأزلية وبموجب أحكام قانوننا الأساسي وإجماع الملة العثمانية بأسرها، ونظراً لحميتكم وبُعد نظركم البارزين بعد سابق التجربة، وجّهنا إليكم إبقاءً وتجديداً مسند الصدّارة وإلى ضياء الدين أفندي مسند المشيخة الإسلامية وصدّقنا تعيين هيئة الوكلاء التي أخذتموها بمقتضى القانون الأساسي وعرضتموها علينا كما أبقينا سائر الموظفين. في وظائفهم ولما كان جلّ آمالي ومقاصدي أن تكون تبعتنا بجميع صنوفها وبدون أي استثناء، حائزة الحرية والعدالة والمساواة وأن تطبّق الأحكام الشرعية والقانونية، تماماً وتؤيّد شوكة دولتنا ومكانتها وتأمين الوسائل التي توصلها إلى ما يتفق مع استعدادها المادي والمعنوي من مراتب الرقي والكمال

وكان قانوننا الأساسي كفيلاً بتنفيذ ما صمّمنا عليه في هذا الشأن بعون الله سبحانه وتعالى. لذلك وبعد الاتكال على توفيقاته الصمدانية والعمل بأحكام قانوننا الأساسي، أضع كامل ثقتي بكم واعتمادي على مساعيكم لتحقيق أقصى آمالنا السالفة الذكر ومعاونة جميع الوكلاء ومجلسنا العمومي المليّ، وجميع الموظفين؛ ولما كانت الفوضى التي ظهرت في بعض الأنحاء قد أوجبت تأسفاتنا الجدية، أرى من أهم الأمور الواجب اتخاذها دوام الهدوء والإستقرار وإزالة آثار كل خلاف بين صفوف التبعة واتخاذ التدابير اللازمة لمنع وقوع الحوادث الأليمة بصورة قاطعة قبل كل شيء؛ وأخص أمانينا هي أن تقدّر الأقوام المختلفة ضرورة معاملة بعضها البعض كأننا وطن واحد فتفيد جميعها بدون استثناء من نعمة الحرية والعدالة والمساواة وأن توضح القوانين والأنظمة التي تكفل حصول قواتنا البرية والبحرية على كل ما يرفع شأنها وتنظيم أمور العدلية والمالية وتعميم التربية والتعليم والإكثار من شؤون النافعة. (الأشغال العامة) والتجارة والصناعة والزراعة وفق الترقيات العصرية وإبراز المآثر الجدية لكل ما يتطلّب تشريعاً جديداً في هذا الشأن وفاقاً لقانوننا الأساسي واحتياجاتنا الحقيقية المشروعة. ولما كانت أحكام المعاهدات المعقودة مع الدول المتحابّة مؤيدة بكاملها من قبلنا، فنؤمل حسن رعايتها والسعي لتأكيد الحب والصفاء بين دولتنا وجميع الدول، أتمّ الله تعالى بتوفيقاته السبحانية مساعي الجميع آمين.

١٥ ربيع الآخر ١٣٢٧ (محمد رشاد)

وهنا تجدر الإشارة إلى أن السلطان الجديد لم يكن بحكم وضعه السابق، يعرف الكثير عن العالم الخارجي، بسبب انعزاله عن الحياة الإجتماعية وعزله في القفص قبل توليه الحكم؛ وهذا ما جعل حزب الاتحاد والترقي يمعن في تشديد

قبضته على إدارة الحكومة العثمانية، ويتابع تنظيماته التي كان بدأها فيما يختص بالجيش، بتطهير الدوائر من الموظفين السابقين المنتمين إلى السلطان عبد الحميد، وتعيين رجاله في المناصب الرئيسية بحيث أصبح صاحب الكلمة العليا في الدولة. وبتاريخ ٢٥ تموز ١٩٠٩م صدر قانون بإلغاء استيفاء بدل الخدمة العسكرية الذي كان يؤخذ من العناصر غير المسلمة، وبالتالي إلزام هذه العناصر بالتجنيد الإجباري أسوة بالمسلمين، على أن يستثنى من الخدمة العسكرية رجال الدين وتلامذة المدارس العالية والمعلّمون في المدن والقرى.

ولكن السلطة الجديدة أقامت حكماً استبدادياً لا يقل طغياناً عن استبداد عبد الحميد ـ بالرغم من اختلافهما في النوع ـ بل لقد كان أبغض كثيراً لدى العرب من سابقه. ومن أول ما فعلوه بعد إخماد ثورة نيسان (ابريل) حل الجمعيات التي أسستها الجماعات التي لا تنتمي إلى الجنس التركي، ومن بينها جمعية الاخاء العربي العثماني التي أقسم أعضاؤه في حفل افتتاحها ــ قبل ذلك بثمانية أشهر فقط ـ على الاخلاص والولاء الدائمين في اجتماع عاطفي ضم العرب والاتراك، خلال الفترة التي تألقت فيها الصداقة بينهما.

ومن الواجب أن يقال ــ انصافاً «للشبان الاتراك» ــ ان التراث الذي ورثوه من نظام الحكم الحميدي كان تراثاً بغيضاً في ذاته وفضلاً عن ذلك فقد تسلموه في فترة شؤم ونحس. فقد كانت القوى الانفصالية التي تعمل في المقاطعات البلقانية في ذروة سيطرتها، وكانت أطماع دولتين من دول اوروبة العظمى تقف بالمرصاد متوارية خلف ستار رقيق من الدبلوماسية، كما حدثت سلسلة من الكوارث قبل أن يتاح الوقت الكافي «للشبان الاتراك» ليثبتوا مقدرتهم: فقد ضمت النمسة والمجر البوسنة والهرسك في تشرين الاول

(اكتوبر) سنة ١٩٠٨ وانفصلت في الوقت نفسه بلغارية، واعتدت ايطالية على ليبية في خريف ١٩١١، ثم نشبت الحرب البلقانية في سنة ١٩١٢. وفي هذه السنوات القليلة فقدت الدولة العثمانية جميع ولاياتها في أوروبة (ما عدا تراقية الشرقية)، وفقدت ذلك الجزء من ليبية الذي يتألف من ولايتي طرابلس الغرب وبنغازي، وكذلك فقدت كريت وجزر الدوديكانيز. وفضلاً عن هذه الخسارة في البلاد كانت موارد الخزينة التركية تنوء بأعباء النفقات العسكرية.

ومع ذلك فان ثمة أموراً أخرى لا بدّ أن يقع اللوم فيها على «الشبان الاتراك» لاخفاقهم فيها. لا ريب في أنهم ـ حين قاموا بثورتهم ـ كانت تحفزهم المثل العليا للوطنية والحرية، وكانوا صادقين فيما نادوا به من المساواة بين الجميع في ظل الدستور. ولكنهم لم يكونوا اكفاء بحمل الرسالة التي ندبوا أنفسهم لها. وكان أول خطأ وقعوا فيه ـ وقد رأينا أنهم لم ينفردوا بهذا الخطأ وحدهم ـ أنهم لم يستطيعوا ادراك الخلل الخطير فيما ورد في دستور مدحت عن القضية العنصرية. وحين ظهرت ـ بعد زمن ـ نتائجه الوخيمة أمام أعينهم تدريجاً، اقترفوا خطأ آخر، وكان في هذه المرة خطأ فاحشاً. فقد تخلوا عن مبدأ المساواة وألقوه جانباً، ولجأوا إلى سلطتهم ـ بأساليب كانت أحياناً استفزازية وتدل على الحمق ـ لترجيح المصلحة التركية والاضرار بإخوانهم العثمانيين، وحكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعنصر التركي.

ولا ريب في أن الرغبة في اعلاء شأن الجنس التركي فوق سائر الاجناس هي في ذاتها رغبة طبيعية في دولة أنشأها الاتراك. ومع ذلك، فقد نشأت هذه الرغبة لعدة عوامل أخرى غير مجرد حب الذات. اذ بدأت تبرز للوجود حركة تنادي بالقومية التركية المحض، استمدت أسسها من تجديد الإيمان بانتساب

الشعب التركي إلى أصول طورانية، فأدى ذلك إلى الاعتقاد بـأن السبيل لبعث الجنس التركي هي في اتحاده من جديد بالشعوب التي تمت اليه بصلة القربى من السلالة الطورانية، وكانت أكثر هذه الشعوب تحت الحكم الروسي. ومع أن الاتحاديين لم يعتنقوا عقيدة «الوحدة الطورانية الشاملة» بكل ما ينتج عنها من مشكلات تحرير تلك الشعوب وضمها، غير أن تعاليم هذه العقيدة أثـرت فيهم تأثيراً قوياً. ولكن تفكيرهم في هذا الموضـوع أيضـاً كـان موصوماً بـالاضطراب والتشوش. فان فكرة الطورانية ـ بدعوتها إلى تمجيد العنصرية التركيـة وابرازها لروابط القربى بـين الاتـراك في الدولـة العثمانيـة واخوانهـم في الجنـس في آسية الوسطى ـ تنقض فكرة الوحدة العثمانية التي كـانت ترمـي إلى توحيـد الاجنـاس المختلفة في الدولة في أمة واحدة على أساس المساواة بين الجميع.

لقد عجزت جمعية الاتحاد والترقي عـن ادراك التنـاقض بـين الفكرتـين، أو أنها أدركته فاختارت سبلاً غير مجدية بمحاولـة التوفيـق بينهمـا. ولم تنجـح هـذه المحاولة إلا في اثارة الاجناس الاخرى، وخاصة العـرب، إلى الاعتقـاد بـأن فكـرة الوحدة العثمانية التي كان يطلب منهم اعتناقها بـاخلاص، إنما هـي تضليـل وأن معناها الوحيد ـ إذا كان لها أي معنـى ـ هـو حملهـم علـى التخلـي عـن أمـانيهم الفكرية العربية، وأن يبيحوا لانفسهم أن «يتَرَّكوا» من أجل الوحدة.

بل لقد اقترف الاتحاديون خطأ أفحش باتباعهم نظام المركزية.

وهو نظام استعاروه ـ كما استعاروا كثيراً غيره من أفكارهم الرئيسـية من مبادىء الثورة الفرنسية، ولكنهم حين استعاروه أغفلوا فارقـاً جوهريـاً بـين حال فرنسة سنة ١٧٨٩ وحال الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨. فمركزيـة الادارة

الجمهورية في باريس إنما هي استمرار لتطور تاريخي، وكانت منسقة مع العوامل التي تفاعلت قروناً عدة وجعلت من باريس مركزاً ثقافياً واقتصادياً، ودفعت فرنسة نحو الوحدة السياسية والادارية حول هذا المركز. أما في الدولة العثمانية فقد كان الأمر على عكس ذلك، فان القوى التي نشأت نتيجة اليقظة القومية كانت تتفاعل متجهة نحو البعد عن المركز، وكانت الفروق في اللغة والعادات والثقافة والتفكير لا تزال هي المنابع التي تنشأ منها هذه القوى. ومع أن القسطنطينية كانت بوتقة للصهر، غير أنها لم تكن بأي وجه مركزاً للوحدة الثقافية الفكرية. وكان تعدد الاجناس واختلافها داخل الدولة يقتضي قيام نظام حكومي لا مركزي مما كان يتيح للولايات العربية والولايات الاخرى غير التركية قسطاً كبيراً من الحكم الداخلي، ويبيح لها أن تساير تطورها السياسي والثقافي بوصفها أعضاء في الدولة لها استقلالها الذاتي . ولكن السياسة التي اتبعها الاتحاديون كانت مناقضة لذلك، فلقد اتبعوا نظام الحكم المركزي الذي وجدوه قائماً حين جاءوا للحكم، ومضوا يشددون من قبضة الحكم المركزي الاستبدادي بدلاً من أن يخففوها. وقد قُدّر لجهودهم في تقوية وحدة الدولة أن تخفق لهذا السبب وحده، وان الاساليب العنيفة الاستفزازية التي اتبعوها لتنفيذ تلك السياسة قد جعلت اخفاقهم أشد وضوحاً وضاعفت من الشعور بالمرارة التي نشأت عن سياستهم.

كان حل الاتحاديين لجمعية، «الاخاء العربي» سبباً في حمل الزعماء العرب على اتباع الوسائل السرية، فنشأت عدة جمعيات لم يعلم الاتراك بوجود بعضها قط. وأصبح منذئذ نشر أفكار العرب القومية يتم في ميدانين: ميدان علني مجاله النوادي والجمعيات المعترف بها رسمياً، وميدان سري تعمل فيه المنظمات السرية

المتآمرة في الخفاء. وقد أنشىء عدد من هذه الجمعيات ومارست أعمالها بين سنتي ١٩٠٩و١٩١٤.

وأربع منها جديرة بالذكر الخاص: اثنتان علنيتان واثنتان سريتان.

وقد كانت أعمال كل مجموعة منهما تكمل إلى حد كبير أعمال الاخرى.

ولعل تداخل أعمالها وارتباطها يتضح إذا عرضنا أعمال الجمعيتين المعترف بهما أولاً، ثم نعرض أعمال الجمعيتين السريتين ـ متجاوزين عن التزام تتابعها الزمني.

١ ـ المنتدى الأدبي :

وكان هذا المنتدى من أقدم تلك الجمعيات حيث أنشأها بعض من الموظفين والنواب والادباء والطلاب في القسطنطينية في صيف سنة ١٩٠٩ لتكون مقراً يلتقي فيه العرب سواء منهم الوافدون على العاصمة والمقيمون فيها. وقد زود مقر النادي بمكتبة وخصص قسم منه للنوم والضيافة، وقد كان هذا المركز دائب النشاط كثير الفائدة بحيث حقق الغاية التي أنشىء من أجلها. ولقد سمح به الاتحاديون، بل وضعوه زمناً تحت رعايتهم، لان أهدافه لم تكن سياسية علنياً. ولكنه في الحقيقة كان له قسط كبير من التأثير السياسي، وقد أتى عليه حين أصبحت فيه لجنته الادارية هي الوسيط المعترف به رسمياً في المفاوضات التي دارت لتسوية الخلاف بين العرب والاتحاديين... ولكن عمله الاساسي كان في توضيح الافكار والآراء وتصفيتها لا في صنعها وخلقها، وكانت مشاركته في

الحركة العربية تتمثل في تقوية دعوتها وتوسيع مداها أكثر مما كانت تتمثل في تزويدها بعوامل جديدة لحياتها. وكان أعضاؤه كثيرين يبلغون ألوفاً أكثرهم من الطلاب، وأنشأ فروعاً له في بلدان كثيرة في الشام والعراق، وكان من أهم الفوائد التي قدمها أنه هيأ مراكز يجتمع فيها العرب من جميع أنحاء الدولة وكأنهم في بلادهم، يتحدثون في حرية ويسودهم جو تطمئن اليه نفوسهم، ويتيح لهم تبادل الآراء.

٢ ـ حزب اللامركزية الإدارية العثماني :

أما الجمعية العلنية المهمة الاخرى فقد أنشئت في القاهرة في آواخر سنة ١٩١٢، باسم «حزب اللامركزية الادارية العثماني». وكانت أهدافها ذات شقين، الاول: أن تبين للحكام في تركية مدى الحاجة إلى اللامركزية الادارية في الدولة، والثاني: أن تعبىء الرأي العام العربي لتأييد اللامركزية. وكان مؤسسوها، في معظمهم، من ذوي الخبرة والمكانة المرموقة الذين أدوا رسالتهم في الحياة العامة. وكانت مواد النظام الاساسي للجمعية تكفل قيام جهاز حزبي محكم. وقد وكل أمر الاشراف عليها إلى لجنة قوية من عشرين عضواً يقيمون في مصر يتألف من بينهم هيئة ادارية مكونة من ستة أعضاء. وأنشئت فروع لها في كل مدينة في الشام، ووكالات صغيرة في عدد من الاماكن الاخرى، وكان ثمة اتصال وثيق بين فروعها والجمعيات السياسية العربية الاخرى في الشام والعراق، و«المنتدى العربي» في القسطنطينية بطبيعة الحال. ولم تمض سنة حتى أصبحت لجنة حزب اللامركزية أفضل من يمثل أهداف العرب وأمانيهم من حيث دقة التنظيم وقوة التأثير.

إن قيمة هذه الجمعية في تاريخ الحركة العربية تتمثل في أنها أول تجربة تخوضها الحركة في ميدان العمل المنظم. فقد مضت ثلاث سنوات والمعركة بين الاتحاديين ـ بسياستهم في التوحيد في المركز ـ وبين العرب الذين ينادون بالحكم الذاتي، متقطعة متفرقة كعادة العرب في حروبهم، وجاء تأسيس الجمعية محاولة لتنظيم الجهود وجمعها في جهد واحد منسق متواصل.

الجمعيات السرية

وفي الوقت نفسه قامت الجمعيتان السريتان. أنشئت الاول، وهي «القحطانية»، في أواخر سنة ١٩٠٩، بعد انشاء «المنتدى الادبي».

وكان مؤسسوها من ذوي الجرأة والاقدام، وكان هدفها تحقيق مشروع جديد جريء، وهو: تحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين.

وكانت هذه محاولة أخرى لحل المشكلة التي أوجدتها سياسة الاتحاديين المركزية. وذلك بأن تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية وتكون اللغة العربية لغة معاهدها ومؤسساتها، على أن تصبح هذه المملكة جزءاً من امبراطورية تركية ـ عربية، تشبه في تكوينها الدولة النمساوية المجرية ويضع السلطان العثماني في القسطنطينية على رأسه تاج المملكة العربية بالاضافة إلى تاجه التركي، كما كان امبراطور آل هابسبورغ في فيينا يضع على رأسه تاج المجر. وهكذا يمكن الوصول إلى الوحدة عن طريق الانقسام، ويصبح مصير الاتراك والعرب أوثق التحاماً على أسس ثابتة لأنها أسس أقرب إلى تمثيل الواقع.

في هذا المشروع تبرز خطة عملية ملموسة تعتمد على فكرة محددة، فكر فيها جماعة من الرجال العمليين ذوي الارادة والتصميم ورأوا استحالة تحقيقها عن طريق الاعلان والدعاية. وكان يقودهم عزيز علي المصري وهو ضابط في

الجيش المصري. وكان أعضاء «الجمعية القحطانية» يختارون بعناية ودقة، فلم يكن يسمح لأحد بالانتماء اليها إلا إذا كانت وطنية فوق مستوى الشبهات وكان ممن يوثق بكتمانه السر. وكان بين أعضائها عدة ضباط من العرب من ذوي الرتب العالية في الجيش التركي واثنان من مؤسسي «المنتدي الادبي». وكان للجمعية كلمة سر واشارة لاثبات شخصية العضو، وأسست لها فروع في خمسة مراكز بالاضافة إلى القسطنطينية. وكانت تستمد قوتها من شخصيات بعض أعضائها، وتتمثل قيمتها في تاريخ الحركة في أنها حاولت أول محاولة معروفة لضم الضباط العرب في الجيش التركي ليزداد التعاون في ميدان الحركة القومية.

كان نشاط الجمعية كبيراً في السنة الاولى من انشائها، إلى أن ظهر من الاسباب ما دعا مؤسسيها إلى الخوف من الخيانة، فبالرغم من الدقة في اختيار المرشحين، غير أنهم أكتشفوا أن أحد الاعضاء قد خان الثقة، فدب القلق في نفوس باقي الجماعة. ولم يصدر قرار من الاعضاء بحل الجمعية فعلاً، غير أن زعماءها وجدوا أنه من المستحيل الاستمرار فيها وبينهم خائن يرتابون فيه، فماتت الجمعية بسبب تعمد الاعضاء اهمالها.

أما الجمعية السرية الأخرى فكانت «جمعية العربية الفتاة» التي أسست في باريس سنة ١٩١١. ولم يكن لأية جمعية أخرى ما كان لهذه الجمعية من أثر فعال في تاريخ الحركة القومية. كان مؤسسوها سبعة من الشبان العرب، وجميعهم مسلمون، وكانوا يواصلون دراستهم العالية في العاصمة الفرنسية. وقد أضفوا على الجمعية روح التماسك والوحدة والنشاط بما كانوا يتمتعون به من شباب، وعزم، واتفاق في الآراء. ولذلك فإن انشاء هذه الجمعية يذكرنا بجمعية

بيروت السرية التي أنشئت سنة ١٨٧٥، غير أن الفرق بينهما أن زمام المبادرة قد أصبح الآن بيد المسلمين. وكانت أهداف الجمعية السعي لاستقلال البلاد العربية وتحريرها من السيطرة التركية أو أية سيطرة أجنبية أخرى. وهذا تقدم ملحوظ بالنسبة للبرامج السابقة التي كانت ترمي إلى الحكم الذاتي في نطاق الدولة، وهو رجوع غير مقصود إلى المثل العليا التي كانت تدعو اليها جمعية بيروت السرية.

وسيظهر لنا بعد قليل أثر جمعية العربية الفتاة في سير الحوادث. أما الآن فان ما يعنينا هو نموها الذي كان يندرج بحذر ولكن بسرعة، حتى أصبحت أكثر الجمعيات العربية في ذلك الحين أثراً. وكما كانت تتميز بأهدافها ووسائل تحقيق هذه الاهداف، كانت كذلك تتميز بالتنظيم الرائع لاعضائها. فقد كان لا بدّ أن يمر العضو في فترة طويلة من الاختبار قبل قبوله. حينئذ يدعى ليقسم أن يسعى لتحقيق أهداف الجمعية ولو أدى ذلك إلى التضحية بحياته إذا اقتضى الامر.

وكان مركز الجمعية في باريس حلال السنتين الاوليين، وبقي أعضاؤها قليلين. وبعدما أنهى مؤسسوها دراستهم وتخرجوا عادوا إلى بلادهم، فنقلت الجمعية إلى بيروت سنة ١٩١٣ ثم نقلت في السنة التالية إلى دمشق. وزاد أعضاؤها على المائتين، وكانوا جميعاً من المسلمين ما عدا قلة قليلة من المسيحيين. وقد ظل سر قيامها مكتوماً حتى النهاية، ولم يذع هذا السر إلا بعد أن نالت البلاد العربية استقلالها وتحررت من الحكم التركي. وفي خلال الحرب، حين كان الاتراك يتتبعون الوطنيين العرب بتهمة الخيانة، حاول أحد أعضائها الانتحار بسبب ما عاناه من التعذيب الجسدي.

وكانت هذه الجمعيات الاربع، وأخرى غيرها أقل منها قيمة، موجودة حين قامت موجة جديدة من الحركة العربية تجتاح مقاومة الاتراك وعنادهم. وبدأت هذه الموجة في بيروت في الايام الاخيرة من سنة ١٩١٢ ولكن مدّها أوصلها إلى باريس حيث عقد مؤتمر عربي بعد ذلك بستة أشهر.

وقد قام بأول خطوة في بيروت هيئة قوية تسمّت باسم «لجنة الاصلاح» وكانت مؤلفة من ستة وثمانين عضواً من جميع الاديان، وقد وضعت اللجنة خطة تنال بها الولايات العربية في الدولة العثمانية الحكم الذاتي. وكانت الدوافع التي حفزتهم إلى ذلك هي الدوافع نفسها التي أدت إلى انشاء «حزب اللامركزية» في القاهرة، فتعاونت الهيئتان تعاوناً وثيقاً. ولم يكن برنامج «لجنة الاصلاح» الا التطبيق العملي للمبادىء التي نادى بها المطالبون بالاستقلال الذاتي على أسس اللامركزية.

وقد وضع البرنامج بحيث يتفق مع شكل التقسيمات الادارية القائمة آنئذ، وتضمن الاعتراف بالسيادة التركية اعترافاً كاملاً. ولكنه ميّز بين المسائل ذات الطابع المتصل بالدولة مثل: الشؤون الخارجية، والدفاع، والمواصلات العامة، والاقتصاد الوطني، وبين المسائل ذات الطابع الاقليمي مثل: ادارة الولاية وايراداتها، والمصالح المحلية، وتضمن البرنامج انتقال المصالح الاقليمية في ولاية بيروت إلى هيئات تمثل الولاية. وتضمن كذلك، من بين ما تضمنه من اصلاحات، الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية، واستعمالها في البرلمان على قدم المساواة مع اللغة التركية. أما الخدمة العسكرية فقد تضمن البرنامج التخلي عن تجنيد الجنود للخدمة في زمن السلم خارج ولايتهم. ونجد في هذه البنود الأخيرة صدى لمطالب جمعية بيروت التي أنشئت سنة ١٨٧٥.

وقد أعلنت "لجنة الاصلاح" برنامجها في نحول منتصف شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٣. فقوبل بمظاهر الترحيب العام، ولم يكن ذلك في ولايات الشام وحدها بل في العراق أيضاً. فعقدت الاجتماعات العامة في دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة، وانهالت البرقيات على القسطنطينية تتضمن تأييد البرنامج وأنه يعبر عن الرغبة العامة في الولايات العربية. ولما كان الاتحاديون في مناصب الحكم يعارضون فكرة اللامركزية فقد اتخذوا الخطوات اللازمة للقضاء على هذه الحركة. فذات يوم، حين كانت "لجنة الاصلاح" مجتمعة، وكان ذلك في الثامن من شهر نيسان (أبريل)، جاء رجال الشرطة وأخبروا الأعضاء أن الحكومة قد أصدرت قراراً بحل اللجنة وإغلاق مراكزها. وقوبل النبأ بالفزع والسخط العامين، فأغلقت جميع المتاجر ودور الأعمال في بيروت أبوابها، وصدرت الصحف وقد أحاطت بها أطر سوداء، وكان الخبر الوحيد الذي نشرته هو قرار حل اللجنة. وانتهجت السلطات سياسة العنف، وهي سياسة محببة دائماً للحكومات التي لا تمثل الشعوب، فاعتقلت الزعماء البارزين وعطلت الصحف. فزاد الهياج، وأدى إلى قيام مظاهرات التأييد في أنحاء أخرى من بلاد الشام فلجأت الحكومة إلى حل وسط : أطلقت سراح الزعماء المعتقلين وأعلنت أن الاصلاحات بصورتها المطلوبة سوف تتم. وفي الخامس من شهر أيار (مايو) نشر الحاكم العام بالفعل قانوناً جديداً للولايات يمنح مزيداً من السلطات للهيئات التمثيلية في الولايات. ولكن ما تضمنه القانون كان أقل جداً مما طالب به برنامج "لجنة الاصطلاح"، حتى أن الناس - ولهم العذر في ذلك - رأوا أن هذا القانون ما هو إلا خطوة مقنعة نحو مزيد من المركزية، وزيادة وطأة القسطنطينية على العرب، وتشديد قبضتها الخانقة على الحرية.

ثم انتقل مركز الحركة إلى باريس. وكانت فكرة عرض القضية العربية ونشرها نشراً شعبياً واسعاً في جو حر محايد، قد راود ـ زمناً ما ــ عقول أولئك الشبان الذين أسسوا جمعية "العربية الفتاة". وكانت الطريقة التي اختاروها لتحقيق ذلك هي عقد مؤتمر عربي، وبعد أن ترددوا بعض الشيء في المكان الذي يعقدونه فيه : هل هو فرنسة أو سويسرة، ثم وقع اختيارهم على باريس. فكتبوا في الرابع من شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩١٣ إلى لجنة "حزب اللامركزية" في القاهرة، يدعونها مع الجمعيات المتفرعة منها إلى حضور المؤتمر. ومن المهم أن نلحظ أن من أول الأسباب التي ذكرت ذلك : التدرع بأن رفض مطالب العرب قد جر الولايات العربية إلى الفوضى فعرضها ذلك إلى التدخل الأجنبي (أي الأوربي). وقد ووفق على الفكرة وقبلت الدعوة فوراً. أما في بيروت فقد أرسلت "لجنة الاصلاح" ـ التي كانت تعاني مرارة قمع الاتحاديين لحركتها ــ تعلن بحماسة مشاركتها وانضمامها للمؤتمر. وبلغ الترحيب والاستحسان العام مبلغاً جعلهم ينتهون من الإعداد للمؤتمر بسرعة من غير أن يعيروا المناطق العربية النائية إلا عناية قليلة. وهكذا عقد المؤتمر جلسته الافتتاحية في اليوم الثامن عشر من شهر حزيران (يونية) في قاعة في شارع سان جرمان.

وكان كشف المدوبين يتضمن أسماء خمسة وعشرين شخصاً معتمداً، حضر منهم أربعة وعشرون. وكانت العضوية مقسومة قسمة تكاد تكون متساوية تماماً بين المسلمين والمسيحيين، والكثرة العالبة من الأعضاءكانوامن أهل الشام. ومثّل العراق عضوان، كما حضر ثلاثة أعضاء آخرين يمثلون الجاليات العربية في الولايات المتحدة. وكان ممثلو البلاد العربية ـ باستثناء الشام ـ قليلين. وقد استمر المؤتمر ستة أيام عقد فيها أربع جلسات رسمية، وانتهى إلى مجموعة

من القرارات بالإجماع. وحضر الاجتماعات نحوٌ من مائتين من العرب مستمعين، ثم فتحت أبواب المؤتمر في يومه الأخير على مصاريعها لجميع الزائرين من غير قيد، وكانت المداولات تدور باللغة الفرنسية.

واتسمت المناقشات بالصراحة وأسلوبها المتزن الهادئ، وتدل القرارات على الرغبة في الاعتدال. وكانت القرارات ترديداً للمبادئ التي أعلنها "حزب اللامركزية" وللاقتراحات المحددة التي قدمتها "لجنة الاصلاح" بيروت، مع تأكيد مطالب العرب بالحقوق السياسية الكاملة ونصيبهم في الاشتراك اشتراكاً فعالاً في إدارة شؤون الدولة. وقد أشير خلال المناقشات ـ إشارة مقنعة بالحذر لمساسها بالمطامع الفرنسية ـ إلى احتمال التدخل الأجنبي وإلى أنه خطر يجب درؤه بعزم وتصميم. ولم يدر أي حديث عن الانفصال أو الانشقاق. والحق أن المتكلمين قد بذلوا أقصى الجهد في تأكيد الرغبة العامة في الاحتفاظ بوحدة الدولة بشرط الاعتراف بحقوق العرب من حيث هم شركاء في الدولة، وأن يتاح لأهدافهم الفكرية مجال حر في نظام لا مركزي للحكم. وتضمنت بعض الخطب ما يدل على إدراك سياسي وبعد نظر. فقد استطاع أحد المتحدثين ـ في مجال عرضه لأسباب الخلاف ـ أن يلمس جوهر الموضوع حين كشف عن تناقض مبدأ المركزية الذي يتمسك به الاتحاديون كما استعاروه من الثورة الفرنسية، وأظهر في تحليل جلي أنه يعتبر عملاً انتحارياً إن قبله العرب.

كان الاتحاديون آنئذ في الحكم، وكان موقفهم بطبيعة الحال عدائياً. فدبروا حركة ـ كانت تغذيها صحفهم والمظاهرات التي افتعلوها ـ ترمي إلى الانتقاص من المؤتمر وبذر بذور الخلاف بين أعضائه وأنصاره، وحاولوا تحريض

الحكومة الفرنسية لتمنع عقده على أرض فرنسية. فلما أخفقوا في ذلك أرسلوا سكرتير حزبهم إلى باريز وأمروه أن يفاوض رؤساء المؤتمر، وقد نجح في هذه المهمة. فقد اتفقوا على بعض المبادئ التي رأى الزعماء العرب أنهم يستطيعون قبولها لتكون أساساً لمفاوضات تليها. وسافر ثلاثة منهم إلى القسطنطينية لتأكيد ما فازوا به.

كانت الاتفاقية التي تمت في باريس ـ وفقاً لما ورد فيها ـ نصراً للعرب في ظاهرها. فقد منحتهم مطالبهم في الخدمة العسكرية الإقليمية، وفي استعمال اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية واستعمالها لغة للتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، وأقرت تعيين مفتشين أوربيين ليشاركوا في إصلاح الإدارة. أما موضوع اللامركزية فكان تسليم الاتفاقية به تسليماً ظاهرياً أكثر منه حقيقياً. فقد وسعت من سلطات الهيئات الإقليمية في بعض المصالح الثانوية، واحتفظت ببعض المناصب في دوائر الدولة العليا ليتولاها العرب. وبذلك تقرر أن يكون منذ ذلك الحين ما لا يقل عن خمسة ولاة من العرب في مناصب الدولة باستمرار، وثلاثة على الأقل من العرب وزراء في الوزارة العثمانية.

ولا يعلم هل كان مندوب الاتحاديين ـ في اقراره لهذه الاتفاقية ـ قد تمشى مع تعليمات صدرت إليه من حزبه، أو أنه أراد أن يسترضي العرب بمكيدة دبرها بنفسه. وربما كان الأمر على الوجهين معاً، إذ تبين بعد ذلك ـ حين أخذت مواد الاتفاقية تتضاءل وتبتر حتى وصلت إلى حضيض الإغفال والإهمال ـ أن زعماء الاتحاديين لم يكن في نيتهم قط أن ينفذوها. ومع ذلك استمروا في مهزلتهم شهرين : فقد رحبوا بالزعماء العرب الثلاثة الذين حضروا من باريس

ترحيباً حاراً، وأقاموا لهم حفلات الاستقبال والمآدب واستضاف "المنتدى الأدبي" العربي بعض ذوي المكانة السامية، وتكرر الحديث الطويل الذي دار سنة ١٩٠٨ عن التآخي المبتذل.

وفي الثامن عشر من آب (أغسطس) صدر مرسوم سلطاني يتضمن المصادقة على شروط اتفاقية باريس، غير أن كثيراً جداً من موادها اختزل، وأحيط ما بقي بالتحفظ والغموض. ففي موضوع اللغة نص المرسوم على أن تكون اللغة العربية منذ صدوره لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، ولكنه أضاف إلى ذلك أن المدارس الثانوية في عواصم الولايات تستمر في التعليم باللغة التركية، وكانت جميع المدارس الثانوية قائمة في تلك العواصم. وعدّل كذلك النص الخاص بالخدمة العسكرية تعديلاً مشابهاً لذلك. ولم يرد أي ذكر لجعل اللغة العربية لغة رسمية، أو لاعتبارها إحدى اللغات الرسمية، في الولايات العربية أو للاحتفاظ ببعض مناصب الوزارة أو الولاية للعرب.

لقد أثار صدور المرسوم السلطاني في النفوس خيبة الأمل، ثم ما لبث هذا الشعور أن أصبح يأساً، إذ تبين للعرب المتيقظون شيئاً فشيئاً أن هذا المرسوم أيضاً خدعة، وأن حيلة الاتحاديين كانت ترمي إلى إهمال القضية. وأرسلت إلى الولاة في بعض الولايات العربية تعليمات عليها طابع عدم الاكتراث تنص على "تمهيد السبيل للتنفيذ المنتظر للمرسوم السلطاني الصادر في آب (أغسطس)". وفي الوقت نفسه أرسل الاتحاديون رسلهم ليتقربوا من بعض الشخصيات العربية بمنحهم المناصب ثمناً لسكوتهم. وقد قبل خمسة منهم تعيينهم أعضاء في مجلس الأعيان، وكان أربعة من هؤلاء غرباء عن الحركة القومية، أما الخامس، وهو

عبد الحميد الزهراوي، فكان من صميم الحركـة، إذ كـان هـو رئيـس المؤتمـر في باريس. وقد ذكر أن الدوافع الـتي حملتـه على قبـول التعيـين مردهـا إلى مهـارة سياسية: وذلك أنه شعر بأن المؤتمر ـ وقد عقد مباشرة بعد حملة بـيروت ـ سـار بالعلاقات التركية العربية في طريق خطرة حتى أوشكت أن تنفصم عراهـا، وأنـه ـ بوصفه عضواً في مجلس الأعيان ـ قد يسـتطيع أن يسـتفيد مـن نفـوذه فيحسـن هذه العلاقات ويقنع الاتحاديين باتباع سياسة فيها قسط أوفر من الحريـة. ولعلـه كان مخلصاً في ذلك وقد أيده في رأيه هـذا بعـض رفاقـه المقربـين، وإن لم يكونـوا كثيرين. على أن رجال الحركة عدوا قبوله التعيين خيانة. ونشر خبر تعيينه رسمياً في الصحف في الرابع من كانون الثاني (ينـاير) سـنة ١٩١٤، فأثـار مـن النفـور والاشمئزاء ما يعد نقطة تحول. لقد أخفقت حركة بيروت ومؤتمر باريس في تحقيق أهدافهمـا الرئيسـية، فانتكسـت موجـة الشـعور الـتي أثاراهـا وأصبحـت مـرارة ويأساً. ولم تقم بعد ذلك أية محاولة للاتفاق مع الاتحاديين، ومما زاد الطين بلّـة أن الاتحـاديين بعـد أن أحـرزوا هـذا النصـر بالاحتيـال والخـداع، أخـذوا يثبتـون مكاسبهم بضروب من الوحشية بلغت من سوء التدبير مبلغاً متفرداً.

في التاسع من شباط (فبراير) من السنة نفسها، بينما كان الرائد (الرئيـس الأول) عزيز علي المصري، من هيئة اركـان حـرب الجيـش، خارجـاً مـن فنـدق طوقاتليان بعد الغداء بادره ثلاثة من رجال الشـرطة السـريين ودعـوه إلى مركـز الشرطة المركزي في القسطنطينية. وهناك ألقي عليه القبض من غير أن توجه اليه أية تهمة، فذاعت الشائعات بأنه سيحاكم بتهمة الخيانـة. وقـد أثـار نبـأ اعتقالـه الدهشـة بـين العـرب هنـاك ثـم تحولـت الدهشـة إلى سـخط تمثل في مظـاهرات الجماهير في الشوارع.

كان عزيز علي قد أصبح - وهو في الخامسة والثلاثين من العمر - شخصية مشهورة ــ وقد وُلد في القاهرة حيث كان يقيم والده، ثم التحق بالكلية العسكرية في القسطنطينية، ثم بكلية الاركان، وبعد أن تخرج فيها بتفوق سنة ١٩٠٤ عين في هيئة اركان حرب الجيش الثالث في مقدونية. وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وكان أحد الضباط الذين قادوا الثورة العسكرية سنة ١٩٠٨ واشترك في الزحف على القسطنطينية في نيسان (ابريل) من السنة التالية. ولكن انضمامه إلى جمعية الاتحاد والترقي كان لعاملين: مثله العليا القومية العربية، واخلاصه لمصلحة الدولة العثمانية، فحين أدرك، في الشهور التي تلت الثورة المعاكسة سنة ١٩٠٩، أن سياسة الاتحاديين كانت تعارض العامل الاول، كما كانت تسيء التصرف بالنسبة للعامل الثاني، أخذ يبحث حوله عن حلفاء له أجدر من الاتحاديين.

وكان نفوذه أعظم كثيراً من مستوى رتبته العسكرية، وسبب ذلك أنه كان يحاضر في وقت ما في كلية الاركان فاستطاع أن يستميل قلوب الجيل الناشىء من ضباط الجيش، كما امتاز في ميدان العمل بالخلق والجرأة والحكمة، وأهلّه اخلاص نيته وثبات عزمه في وطنيته أن يرضى بزعامته من هم أسن منه. وكان هو الذي أسس ــ بمعاونة وطني بارزاً آخر هو زميله الضابط سليم الجزائري - «الجمعية القحطانية» ببرنامجها المتضمن مملكة ذات تاجين تلتقي فيها الاهداف العربية مع الاخلاص للدولة العثمانية. وفي سنة ١٩١٠ أرسل إلى محاربة اليمن، فاستطاع أن يفوز بإقناع الامام أن يسوي خلافاته مع الباب العالي، ثم تطوع في ليبية حيث أحرز أمجاداً رائعة بقيادته المقاومة العربية ضد العدوان الايطالي، وعاد إلى القسطنطينية في صيف ١٩١٣ ليرى الآمال العربية

تذوي ببطء في الشهور التي تلت مؤتمر باريس. ووجد ان الفوضى والفساد كانا يسودان وزارة الحربية، التي كانت تنتقص من شأن انتصاراته في افريقية بعامل الحسد. ورأى اتجاه الاتحاديين إلى اصدار الأمر بنقل الضباط العرب المقيمين في العاصمة، جماعات جماعات ـ وهو من بينهم ـ إلى حاميات الولايات النائية فاستقال من منصبه مشمئزّاً.

جمعية العهد

في بداية سنة ١٩١٤ أخذ عزيز علي ينفذ خطة اختمرت في فكره منذ أيام «الجمعية القحطانية» بعد أن تخلى عن اهتمامه بها بسبب اكتشاف أحد الخونة بين أعضائها يسترق السمع. وكانت خطته أن يحولها إلى جمعية تتألف من ضباط الجيش فقط. وأخيراً أنشأ منظمة منفصلة مستقلة عن الجمعية الاولى، وان كان برنامجها يشبه من بعض الوجوه برنامج سابقتها.

وسميت الجمعية الجديدة باسم «العهد» وكانت أهدافها هي أهداف «الجمعية القحطانية» نفسها مفرغة بأسلوب عسكري. ولم يقبل فيها من المدنيين غير اثنين اختيرا لوطنيتهما الموثوق بنزاهتها، وكان احدهما، وهو الامير عادل ارسلان، من الاعضاء الاوائل في الجمعية السابقة. ولما كان العنصر العراقي أكثر العناصر عدداً في الجيش العثماني لذلك كانت له قوته في مجالس «جمعية العهد» وأنشأ لها فروعاً في بغداد والموصل. وأصبحت الجمعية بالنسبة للضباط مثل «جمعية العربية الفتاة» بالنسبة للمدنيين، ومع أن الجمعيتين لم تعلم احداهما بوجود الأخرى في بداية الامر غير أن نشاط كل منهما ـ في ميدانها ـ كان متسماً ومكملاً لنشاط الثانية، إلى أن وافت سنة ١٩١٥ فاتصلت الجمعيتان في مدينة دمشق ووحدتا وسائلهما معاً لايقاد الثورة العربية.

ولعل الاتحاديين كان قد تسرب اليهم نبأ عن تأسيس «العهد» حين أمروا باعتقال عزيز علي، ولكن لم تكن لديهم أنباء مؤكدة، ولم تذكر له أية علاقة

بالجمعيات السرية في التهم التي وجهت اليه. وبدأت محاكمته سراً في الخامس والعشرين من شهر آذار (مارس) أمام مجلس تأديب عسكري، وعرف الناس أن صحيفة الاتهام تضمنت اتهامه باقتراف جرائم لا يمكن تصديقها أبداً، وهي: أنه اختلس أموال الجيش، وأنه سلم برقة للإيطاليين مقابل رشوة، وانه سعى إلى إقامة مملكة عربية في شمال افريقية. وكان الهياج الذي أثاره نبأ اعتقاله قد انتشر انتشاراً واسعاً آنئذ. ففي مصر، موطن ميلاده، كان الناس يعربون عن سخطهم بالاحتجاج العام، فعقدت الجماهير الاجتماعات، وشنت الصحف حملات عنيفة، وتألفت لجنة يرئسها شيخ الازهر، وقصدت الوفود لورد كتشنر ـ المعتمد البريطاني في القاهرة ـ تطلب منه أن تتدخل بريطانية بالطرق الدبلوماسية.

وفي أوائل نيسان (ابريل) عرف الناس أن الحكم قد صدر سرّاً باعدام عزيز علي. وازداد الهياج عنفاً وحدة، وصار الضباط العرب ـ حيثما يجتمعون ـ يقسمون أن يثأروا لإعدامه بالقتل وسفك الدماء.

وفي الخامس عشر من الشهر نفسه، أعلن أن الحكم كان قد صدر باعدام عزيز علي غير أن السلطان خفف الحكم إلى السجن خمسة عشر عاماً مع الاشغال الشاقة. ومع أن ذلك أشاع الارتياح العام غير أن الهياج على ظلم المحاكمة استمر. وأخيراً صدر العفو عن عزيز علي في الواحد والعشرين من الشهر نفسه وأطلق سراحه، فأبحر في اليوم التالي إلى مصر، واستُقبل استقبالاً حماسيّاً عند وصوله. ولقد هزت محاكمته البلاد العربية هزة ربما كانت أعنف وأعمق من أية هزة أخرى سببها أي عمل مفرد من أعمال الطغيان التركي، وقد هزت نفوس الجماهير كما هزت نفوس المفكرين، ولذلك قوت عزم العرب على وجوب نيل حريتهم.

الوضع العربي العام
مع بداية القرن العشرين

بـالرغم مـن تشـابه المعانـاة العربيـة في تلـك الفـترة في كافـة دول الوطـن العربي، فقد كانت هنالك خصوصيـة متميـزة لكـل دولـة علـى حـدى، وذلـك حسب طبيعة وسياسة الدول المستعمرة لها. إضافة إلا أن لكـل معانـاة جذورهـا التاريخية الخاصة، مما يفرض علينا بـدوره أن نتعـرف علـى ظـروف ومعانـاة كـل دولة على حدى. حيث سنبدأ الحديـث عـن دولـة الجزائـر الـتي تعتـبر مـن أولى الأقطار العربية التي ابتليت بالإستعمار الإفرنسـي الـذي جعلهـا جسـراً لامتـداد نفوذه الإستعمارية على كل من تونس شرقاً ومراكش غرباً بعدما كانت الـدول الثلاثة جزءاً من الإمبراطورية العثمانية كما سنرى.

الجزائر

استولى الاسطول العثماني في أواسط القرن السادس عشر على الجزائر بشيء من اليسر لما يجمع بين سكانه والدول العثمانية من وحدة الدين ورابطة الخلافة الاسلامية العامة، ولم تلبث أن قامت فيه حكومة تركية ارتبطت بالدولة المذكورة برباط خفيف من التابعية نظراً للبعد بينها وبين العاصمة وغدا مع الزمن ارتباطاً إسمياً وفي نطاق شمول الخلافة التي تتسم بها هذه الدولة.

وهكذا كانت الجزائر مستقلة إستقلالا تاما، وكان رؤساء الدولة الذين يتلقبون بلقب «الداي» يمتون الى العنصر التركي الذي استعرب وتأقلم، وكان لها اسطول قوي بلغت سفنه المسلحة بأربعين مدفعاً (٧٢) والمسلحة بعشرين مدفعاً فما دون (١٤٠)، وكان عدد جيش الاسطول ثلاثين الفا، وكل هذا قبل الثورة الفرنسية أي في أواسط القرن الثامن عشر، وكان للدولة بقوة هذا الاسطول صولة في البحر الابيض عادت عليها وعلى رعاياها بالثروات الطائلة.

وقد كانت الجزائر بخيراتها وثروتها وموقعها تحرك مطامع الدول الأوروبية البحرية، وقد تحرشت بها أكثر من دولة وأكثر من مرة فلم تنل منها منالا.

ولقد انكسر الاسطول الاسباني مرة أمامها أشنع كسرة وغنم الجزائريون كل ما أتت الحملة الاسبانية الغازية به من سلاح وعتاد ومؤن، وأعاد الاسبان الكرة فلقوا نفس المصير. ولقد قذفت أساطيل الدول الأوروبية مدينة الجزائر

اكثر من مرة دون جدوى، حيث كانت من أعظم مدن البحر المتوسط حصانة ان لم تكن أحصنها، وفيها من المدافع الضخمة ما يفوق في رميه وقوته مدافع تلك الاساطيل.

وفي إبّان ثورة فرنسا الكبرى وتألب الدول الأوروبية عليها مدت الجزائر يد العون اليها بالتموين، حيث سمحت لها بشراء قمحها وأقرضتها بعض المال بدون فائدة برغم مساعي الانكليز في صدها عن ذلك، كما بادرت الى امدادها بما امكنها من مواد ووسائل نقل ومواش، مما جعل نابليون أيام عهد قنصليته يزجي شكر فرنسا الحار اليها، وفي سنة ١٧٩٥ اعتدت سفينة اسبانية على سفينة فرنسية وأسرتها على مقربة من الجزائر فسير الداي بعض سفنه وفك أسر السفينة الفرنسية واسترد ما سلبه الاسبان منها. ولقد كانت الصلات ودية بين فرنسا والجزائر بحيث كان بعض رعايا هذه أيضاً يمدون يد المساعدة الى تلك إبان محنتها. ومن ذلك ما أقرضه جزائري يهودي لفرنسا من قروض عديدة بلغت عدة ملايين اشترت بها فرنسا القمح والمواد الغذائية الأخرى وكان ذلك بتشجيع الداي وكفالته، وقد استغلت فرنسا هذه الصلات الودية فانشأت مراكز تجارية في بعض الانحاء الساحلية كانت فيما بعد نقطة ارتكاز للبغي والعدوان!

ولقد عاملت فرنسا الجزائر كما يعامل الضيف اللئيم مضيفه حيث ثار شرهها وطمعها فيها بدلاً من شكرها والاعتراف بجميلها. فلم ينته دور امبراطورية نابليون، ويستأنف دور البوربونيين ثانية وتستريح فرنسا من شدائد المحنة التي انتابتها خلال اربعين عاماً حتى أخذت تبيت الغدر للجزائر لتستولي على ثرواتها وخيراتها وتكون لها مستعمرة ومستغلاً، فسلحت سراً بعض

المراكز التجارية التي انشأتها، وأستسنحت فرصة انشغال بعض أقسام الأسطول الجزائري في الحرب العثمانيـة اليونانيـة الـتي استمدت الدولـة العـون فيهـا مـن الجزائر كما اسـتمدته مـن محمـد علـي الكبـير والي مصـر، فـأصدرت تعليماتها لقنصلها بخلق فرصة مناسبة للعمل.

وفي نيسان عام ١٨٢٧ خاطب الداي القنصل بلهجـة حـادة محتجاً على عدم اجابة حكومته على بعض مطالبه ورسـائله فأجابـه القنصـل بإجابـة جارحـة أثـارت غضبـه وجعلتـه يضـرب وجـه القنصـل بمروحتـه ويطـرده مـن حضرتـه. فسارعت فرنسا إلى إنذار الداي باعتذار لا يمكن ان يقبله فأعلنت عليـه الحـرب والحصار، وأخذت تعد حملة كبيرة للغزو. وكانت السفن الجزائرية الـتي تحـارب في مياه اليونان قد تحطمت مع مـا تحطـم مـن الاسـطولين العثمـاني والمصـري في موقعة نافارين، فأضعفها ذلك أمام الحملة القوية التي أعدتهـا فرنسـا وسـيرتها في صيف عام ١٨٣٠.

وكانت هذه الحملة مؤلفة من اسطول حربي عـدد سـفنه (١٠٣) مجهـزة بنحو ثلاثة آلاف مدفع، ومن جيش مقاتل عدته أربعـون الفـاً، وأسـطول تجـاري يحمل المؤمن والعتاد مؤلف من نحو (٤٠٠) سفينة. وأنزل الفرنسيون قواتهـم في احدى النقاط الساحليه التي تبعد قليـلا عـن الجزائـر وتحصنـوا فيهـا وكـانوا قـد أعدوها لمثل هذه المناسبة من قبل.

ومن الجدير بالذكر أن الملـك شـارل العاشـر ودع الحملـة بخطبـة صليبيـة دلت على الروح التي كـانت تحفـز فرنسـا الى البغـي جـاء فيهـا فيمـا جـاء «ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الفرنسي سـيكون بمسـاعدة العلـي القدير لفائدة المسيحية كلها»

ولقد ظن الداي أن نزول الفرنسيين في النقطة الـتي نزلـوا فيهـا ييسر له حصارهم وإبادتهم وكان واثقاً من قدرته على ذلك بما استطاع أن يجمعه من جموع فاقت بعددها جموع العـدو كثيرا. ودارت رحى معركة عنيفة في تاريخ ١٩ حزيران ١٨٣٠ كادت الدائرة تدور على الفرنسيين فعلاً، غير أن تفوق القيادة الفرنسية على القيادة الجزائرية ضيع على الجزائريين فرصة الموقف الـذي لم يلبث أن انقلب ضدهم، فاستطاع الفرنسيون أن يستولوا علـى المعسكر وما فيه وأن يحطموا خط الدفاع الأول، وأن يتقدموا نحو العاصمة ويحاصروا قلعتهـا ويضيقوا الخناق عليها بالرغم من المحاولات التي حاولها الجزائريون للكرة. ولقـد دافعوا عـن القلعة حتى نفد ما عندهم من عتاد وهلك القسم الاكبر من المدافعين؛ وحينئذ أشعلوا النار في مخـزن البـارود فـانفجر وانـدك البرج حتى لا يستولي عليه الفرنسيون سليما، ثـم تحرج الموقف فطلب الأهلون من الـداي مفاوضة الفرنسيين على الصلح فأبى هؤلاء إلا الاستسلام المطلـق لان الغـزوة لم تكن تهدف الى ما تهدف اليه حرب بين دولتين وإنما كـانت تهدف الى سلب واستعمار، فتقدم بعض أعيان المدينة موافقين على تسليم العاصمة وانتهاء حكـم الدولة الحسينية (نسبة للداي حسين).

وعقدت معاهدة بذلك كان من نصوصها تخيير الـداي في مغادرة البلاد بأمواله أو البقاء فيها في حراسة فرنسا، والتعهد باحترام حرية الجزائريين الدينيـة والمدنية وعدم التعرض لأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم وبالرغم من ذلك فـان الفرنسيين لم يتورعوا حينما دخلوا العاصمة من إعمال السلب والنهب والتهـاك الحرمات مما اضطر كثيراً من السكان الى مغادرة المدينة والفرار الى داخل البلاد.

ولقد وجد الفرنسيون في خزانة الدولة ومخازنها نحو خمسة وعشرين مليوناً

من الفرنكات ذهباً وأربعة وعشرين مليوناً فضة وما قيمته سبعة ملايين من السلع فاستولوا عليها غنيمة باردة.

وقد غادر الداي بلاده مع اسرته وحاشيته الى ايطاليا ومن هناك أخذ يتصل بأنصاره للإنقضاض على الغزاة وقام فعلاً ببعض المحاولات أكثر من مرة ولكنه أخفق فاضطر الى نفض يده والإنتقال الى الإسكندرية حيث استقر فيها إلى أن مات عام ١٨٣٨.

ولقد كان تصرف الغزاة في حملتهم الباغية سيئاً كل السوء ووحشياً كل الوحشية لم يرعوا فيه عهداً ولا ذمة ولا شرفاً، ولم يستشعروا فيه بأي عاطفة من عواطف الرحمة والرأفة والانسانية والدين مما كان مثار دهشة ونقد من قبل لجنة عينها الملك عقب احتلال العاصمة أي في تموز عام ١٨٣٣ لتفقد الاحوال وتنوير الحكومة في البلاد المفتوحة. فقد احتوى تقرير هذه اللجنة فضائح يندى لها الجبين، ومظالم تقشعر لها الجلود لم يكن يستهدف بها إلا الإرهاب والإخضاع والسلب، ولم يكن لها من موجب، لأن البلاد قد استسلمت للغزاة حسب طلبهم ووفقاً لمعاهدة وعدوا بها برعاية تقاليد أهلها وحقوقهم. وهذه مقاطع مما احتواه التقرير «لو يقف الانسان لحظة متأملاً الطريقة التي عامل بها الإحتلال سكان البلاد لرأى أن سيره لم يكن مخالفاً للعدالة فقط بل كان يخالف العقل ايضاً، حيث أننا على حساب استسلام شريف وعلى حساب أبسط حقوق الشعوب الطبيعية قد تجاهلنا كل المصالح فلم نراع حرمة العادات والأرواح، وأضفنا الى ملكية الدولة أملاك المؤسسات الدينية وصادرنا أملاك طبقة من السكان وعدناها باحترام حقوقها واستولينا بالظلم والضغط والجرد على الأملاك الخاصة الشخصية دون أي مقابل ثم أجبرنا المالكين الذين جردناهم

بتلك الطريقة على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها بل نفقات تدمير مسجدهم!
ولقد أرسلنا الى ساحات التعذيب والتنكيل والاعدام لمجرد الشك رجالاً لم تثبت إدانتهم ولم تجر محاكمتهم، وقتلنا رجالاً يحملون جوازات المرور، وذبحنا جماعات من السكان بصورة إجماعية لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم، وقدمنا للمحاكم رجالاً مشهورين بسمعتهم الطيبة في البلاد لأن شجاعتهم جعلتهم يأتون الينا ويقفون أمام غطرستنا متوسلين لانقاذ مواطنيهم المساكين. وقد وجد منا قضاة لم يتورعوا عن محاكمتهم ورجال لم يحجموا عن تنفيذ حكم الاعدام فيهم. ولقد ألقينا في غياهب السجن الانفرادية المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاجىء ومؤن. لقد أطلقنا على الخيانة والغدر اسم المفاوضة وجعلنا منها كميناً للغدر والتقتيل. وبكلمة موجزة لقد تجاوزنا بربرية البرابرة. القد جئنا لتمدينهم ثم ظللنا نشكو إخفاقنا فيهم.»

ولقد أثار هذا التصرف نائباً فرنسياً حراً اسمه دي شاد فوقف في مجلس النواب الفرنسي في نيسان عام ١٨٣٤ يندد به ويذكر بعض مشاهده وقد قال فيما قال: هدمنا في الجزائر تسعمئة بيت دون اتخاذ أي إجراء ودفع أي تعويض واستولينا على ستين مسجداً وهدمنا منها عشرة وحوّلنا بعضها الى كنائس ودسنا المقابر وبعثرنا الرفات في بلد شديد التمسك بدينه. ولقد كانت مدينة الجزائر قبل الاحتلال محاطة بالحدائق والقصور الجميلة الفخمة وكانت ضواحيها تماثل ضواحي مرسيليا في بهجة المناظر، ولكن كل ذلك قد زال بعد أن اجتيحت حيث خربت سواقيها وقنواتها ودمرت البيوت والقصور واتخذت سقفها حطباً واقتلعت الأشجار وجعلت وقودا..

ولقد احتوى تقرير مفصل لقنصل فرنسي وصفاً مروعاً لبعض ما كان في

مذبحة أوقعها جيش الاحتـلال في نيسـان عـام ١٨٣٢ في منطقـة الولايقـة لمجـرد شكه في اختطاف افراد ينتسبون الى قبيلة موالية حيــث قـال إن الحملـة فاجـأت القبيلة عند بزوغ الشمس فذبحت كل افرادها دون أن يستطيع أي منهم دفاعـاً وقضت على كل حي دون تمييز بين شاب وشـيخ وامـرأة ورجـل وعـاد الجنـود حاملين رؤوس الضحايا على رماحهم. أما الأغنام التي وجدوها في ساحة المأسـاة فقد بيعت لقنصل الدانيمارك، وأما بقية الغنيمة وهي مسـلوبات المذبوحـين فقـد عرضت للبيع في سوق عام حيث تشاهد أساور النساء في المعاصم المبتـورة الـتي ظلت الأكف الدامية عالقة بها وحيث تشاهد أقراط النساء وبقايا اللحم متدليـة منها. وبعد توزيع حصيلة السلب بين الذابحين صدر بـلاغ يومـي يـوم ٨ نيسـان ١٨٣٢ يبارك هذا العار حيث يعـرب عـن مـدى الرضـا البـالغ الـذي شـعر بـه الجنرال إزاء الحزم والكفاءة التي أظهرها جنوده البواسل..

على أن أهل القطر لم يستسلموا باستسلام العاصمة، وازداد نفورهم مـن التصرفات الوحشية التي أخذت اخبارهـا الرهيبـة تنتشـر فتمـلأ القلـوب رعبـا، وأخذت كل ناحية من أنحاء القطر تستعد للدفاع وتحصّن مواقعها وتنظم وسـائل مقاومتها، غير أنها لم تتحد تحت قيادة واحدة. فكـان هـذا مـن أسـباب إخفاقهـا حيث تمكن الفرنسيون من القضاء على مقاومة النواحي واحدة بعد اخرى بالمكر والدس والقوة الغاشمة معاً.

حركة الأمير عبدالقادر

كانت حركة الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين من أهم الحركات النضالية في تاريخ الجزائر. فلقد اجتمع رؤساء القبائل في كافة الأنحاء الغربية وبايعوه مبايعة شرعية بالإمارة وعاهدوه على السمع والطاعة وكان ذلك عام ١٨٣٢، فأنشأ دولة في هذه الأنحاء وأخذ يستعد للنضال؛ وقد جنح القائد الفرنسي الى مسالمته ريثما يتمكن من الأنحاء الاخرى فاعترف بأمارته. ولقد أهاج هذا باريس وحملها على استبدال القائد وزودت الجديد بالمدد والأمر المحتم بالقضاء على دولة الأمير الفتية، غير أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وانتصر الامير عليها وأوقع فيها جسيم الخسائر، فسيرت عليه حملة اخرى نجحت في احتلال عاصمة الامير «المعسكر» وإحدى مدن أمارته الكبرى «تلمسان».

وكان الامير قد جنح الى حرب الكر والفر دون معركة كبيرة، وظل كذلك يزعج الفرنسيين الى أن اضطروا الى التعاهد معه عام ١٨٣٧ والاعتراف بأمارته في مقاطعة وهران مقابل اعترافه بسلطتهم على مقاطعة الجزائر وغيرها مما دخل في حوزتهم. وسنحت للأمير بذلك فترة سلم تفرغ فيها لتنظيم دولته وتدريب جنده والاستعداد للطوارىء. وكان الفرنسيون مشغولين في هذه الفترة في إخضاع المقاطعات التي لم تكن قد خضعت لهم بعد.

ولما تم لهم ذلك التفتوا الى الامير ليصفوا الحساب معه، وأخذت تدور بين الفريقين حروب ومعارك عديدة، والتزم الامير طريقة الكر والفر وعمد

الفرنسيون الى الدس والاغـراء ونجحوا في تخذيـل بعض القبـائل عنـه، وحـاول الامير ان يجد في الارض المراكشية ملجأ للاستجمام والتنظيم فـأنذر الفرنسـيون سلطانها فاضطر هذا الى منـع الأمـير مـن اتخـاذ بـلاده قـاعدة لحركاتـه مـع الالم والحسرة، ومع كل هذا وبالرغم من تضييق الفريسيين الخناق عليـه واسـتيلائهم علـى مخيماتـه وأسـرهم بعـض أفـراد اسـرته وعـدداً كـبيراً مـن خلـص انصــاره ومصادرتهم لأمواله ظل يصول ويجول ويكـر ويفـر حتـى انتهكـت منـه القـوى وفقد القدرة على الاستمرار ولم يبق له مناص فاستسلم عام ١٨٤٧ حيـث بقـي في أسر فرنسا الى عام ١٨٥٢، ثم غادرها الى البلاد العثمانية واستقر في دمشـق حيث توفي فيها.

ومُذ لاحت للفرنسيين بشائر نجـاح حركتهـم الباغيـة في الجزائـر اختطـوا خطة جعل هذا القطر مستعمرة فرنسية محرومة من الوان الحكم الوطني.

فأنشأوا إدارة مدنية لتنظيم مصالح الحكومة تحت إمرة القيادة العسـكرية. وكان من أول ما فعلوه وضع اليد على املاك ضباط وجنـود الجيـش الجزائـري وأراضيهـم في السـهول الخصبـة المحيطـة بمدينـة الجزائـر وإقطاعهـا للمسـتعمرين الفرنسيين الذين صحبوا الحملة. ثـم أخـذوا يشـجعون غـيرهم علـى الهجـرة إلى الجزائر ويقطعونهم الأراضي مجاناً أو يهيئون لهم شـراءها بـأبخس الأثمـان. وكـان شعارهم الفتح بالسيف والمحراث معاً وكان كل مستعمر يعد جندياً رديفاً فيسلم له السلاح والارض ووسائل العمل معاً، فلم تنته مقاومة الأمير عبد القـادر عـام ١٨٤٧ حتى كان عدد المستعمرين مئـة وعشـرين ألفـاً! وقـد سـنت السـلطات قوانـين للخدمـة الاجباريـة توجـب العمـل الاجبـاري علـى الجزائريــين في كــل مشروع عام تعلنه، وبالاجرة الـتي تقدرهـا تحـت طـائل العقوبـة علـى الممتنعيـن

واعتبرت العمل في مزارع المستعمرين من المشاريع العامة فيسرت بذلك لهؤلاء بالاضافة الى الأرض المجانية اليد العاملة الرخيصة والتحكم بمأجوريهم تحكم السادة بالعبيد.

وفي السنة التالية لاستسلام الامير قررت الجمعية الوطنية الفرنسية إعتبار الجزائر أرضا فرنسية وتطبيق شرائع فرنسا عليها ولكنها لم تمنح الحقوق السياسية إلا للفرنسيين المستعمرين فقط، وهو ما لا يمكن أن يدخل في منطق غير منطق الاستعمار الفرنسي الذي اختط خطته الرهيبة. فالجزائر فرنسية ولكن الجزائريين غير فرنسيين. وهذا يعني أن قرار الجمعية هو جعل الجزائر ملكاً للشعب الفرنسي أرضاً وسكاناً!! وقد ظل الجزائريون بعد هذا القرار تحت كابوس الحكم العسكري الإرهابي، مما كان يثير القبائل حيناً بعد حين، حيث ثارت قبائل الجرجرة ثم قبائل أولاد سيدي الشيخ واستمرت ثورتهم مدة طويلة كلفت الفرنسيين الكثير من الجهد والخسائر، وقد نجح الأمبراطور نابليون الثالث في التنفيس عن العرب وتهدئة خواطرهم أثناء ثورات القبائل العنيفة، عندما أعلن بأنه امبراطور للعرب كما هو امبراطور على فرنسا. وأن العرب يجب أن يعاملوا بنفس العدل والمساواة مع الفرنسيين. ثم أصدر الأوامر والتشريعات التي تتناسب مع هذا الإعلان، وتؤدي إلى قيام حكومات محلية وطنية، فثارت إثر دلك ثائرة المستعمرين ورجال السلطة الفرنسية في الجزائر، وأقاموا العراقيل أمام إمكانية تحقيق آمال الأمبراطور.

وحدث أن اندلعت الحرب في تلك الفترة بين فرنسا وألمانيا عام ١٨٧٠ وأدت إلى سقوط الإمبراطورية وقيام عهد الجمهورية الثانية. حيث قررت الجمهورية أن تجعل من الجزائر دار هجرة واستعمار للنازحين عن الالزاس

واللورين. وكان في هذا القرار قضاءً تاماً على تلك البادرة التنفسية، حيث أخذ سيل المهاجرين يتدفق على الجزائر، فيقطعون الأراضي ويمنحون ما يحتاجون إليه من وسائل العمل المجاني. حتى أنه قد أنشيء بين الأعوام ١٨٧٥ ـ ١٨٨٠ حوالي مائتي مستعمرة، وتجاوز عدد المستعمرين عام ١٨٨١ نصف المليون.

وفي سنة ١٨٨١ قامت ثورة جديدة في جنوب وهران وبلاد الزاب أزعجت الفرنسيين أيّما إرعاج، غير ألهم قمعوها في النهاية واستولوا على اراضي الثوار وأخذوا يمنحونها للمستعمرين الوافدين. ثم سنوا قانوناً جزائياً ارهابياً اسمه «الانديجين» أناطوا الحكم به بالحكام الاداريين بحيث يستطيع هؤلاء أن يحكموا بالسجن لمدة خمس سنين على كل من يتفوه بما لا يليق في حق فرنسا وحكومتها، أو لا ينفذ أمر الحراسة او يتهاون فيه، أو يتمنع عن تسليم وسائل النقل والمؤنة والماء والوقود بالتسعيرة التي يضعها الحكام، أو يسهو عن قيد المواليد والوفيات، أو لا يحترم القرارات الادارية في قسمة الارض المشاع، أو يتأخر عن دفع الضرائب أو عن الاجابة الى دعوة المراقبين الفرنسيين، أو يؤوي شخصاً من غير أهل منطقته، أو يسكن في مكان غير مكان إقامته بدون إذن، أو لا يسجل قدومه ومغادرته بلداً ليست بلده، أو يزور مقاماً من مقامات الأولياء، أو يقيم له نذراً بدون إذن، أو ينشيء مسجداً أو زاوية أو مدرسة بدون إذن، أو لايساعد السلطات الإدارية في أي شيء تطلبه منه ..الخ..

وعلى هذا فقد كان القانون الجديد بمثابة السيف المسلط على رقاب الشعب، والكابوس المفزع الذي قاسى منه العرب هناك أصعب أنواع الشدائد والمحن حيث سيطر الفرنسيون بموجبه على مختلف مرافق البلاد.

وفي أواخر القرن التاسع عشر انتهى عهد القيادة العسكرية بعدما استمر حوالي ستين عاماً، وحل مكانه حكم مدني فرنسي، وغدا إسم فرنسا الإفريقية يطلق على الجزائر.

وصار يمثلها في البرلمان نواب وشيوخ ينتخبهم المستعمرون فقط استمراراً للجاري، والغي ما بدىء بانشائه في عهد الامبراطورية الثالثة من حكومات محلية، وجعلت الجزائر ثلاث مناطق افرنسية، وغدت الوزارة الفرنسية مصدر الحكم والسلطات بطريق الوالي العام الذي يمثلها كما غدا التشريع الجزائري يصدر عن البرلمان الفرنسي، وظل أهل البلاد في منأى عن كل ما يتصل ببلادهم من تمثيل وحكم وتشريع مع تسميتها بافريقية الفرنسية واعتبروها منطقة فرنسية وتطبيق الشرائع الفرنسية عليهم فيها.

وفي سنة ١٩٠١ أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة فأدى هذا الى ضبط كافة الاوقاف الاسلامية التي كانت تقوم بأود المساجد ورجال الدين والقضاء الاسلامي، وادخلت ضمن املاك الدولة، وانيطت ادارة المساجد والقضاء بمصلحة فرنسية، وابيح منح الاراضي الواقفية للمستعمرين بأثمان بخسة جداً ولآجال طويلة الأمد.

وعلى ان فرنسا عادت فرأت أن الفرق الشاسع والتباين الكبير بين سكان فرنسا والجزائر وحالتيهما الاجتماعية والثقافية أشد من أن تسمح بحكم الجزائر حكما فرنسياً مماثلاً لفرنسا في التشريع والادارة

فقررت عام ١٩٠١ أن تجرب فيها نظام الدومنيو البريطاني، فأنشىء للجزائر برلمان محلي، كما تم فيها إنشاء مصالح وسلطات محلية متنوعة، وجعل للحاكم الإفرنسي العام مجلس خاص من سكان الجزائر الإفرنسيين والعرب.

وغير أن التجربة كانت تقليداً ساذجاً ولم تؤدي إلى النتيجة المطلوبة، وذلك لأن الإفرنسيين لم يستطيعوا أن يهضموا فكرة التخفيف من السيطرة على كل شيء، والتخلي على شيء ولو بسيط من الصلف الذي اعتادوا عليه، أو يفهموا حق الشعب الجزائري في بلاده. وبقي الوالي العام الفرنسي هو القابض على زمام الأمور صغيرها وكبيرها، ويتلقى الأوامر مباشرة من وزير الداخلية، وظل مع هذا عدد غير يسير من دوائر الحكومة المهمة كالجيش والبحرية والمعارف والموازنة تابعة للوزارة الإفرنسية مباشرة. وظلت أكثر الوظائف الحكومية في يد الإفرنسيين.

ولم يكن لسكان الجزائر، وخاصة العرب المسلمين الذين هم الأكثرية العظمى أي كيان أو أثر إيجابي في هذا النظام الذي كان مفروضاً أنه أنشىء لهم، وكانت غالبية المجلس الخاص والبرلمان المحلي اللذين أشرك فيهما الجزائريون الفرنسية مع اعتبار قراراته استشارية.

وفي العام ١٩١٢ فرضت فرنسا الجندية الإجبارية على المسلمين، وكان القانون يقضي بخدمة الجزائري المسلم ضعف المدة التي يقضيها الإفرنسي دون أن يكون هناك بينهما أية مساواة في المرتبات والمراتب والمعاملة، فدفع هذا خاصة مع ماكان من اضطهاد وحرمان شديدين كثيراً من المسلمين على النزوح عن وطنهم إلى بلاد الشام وغيرها من البلدان الإسلامية.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى أعلنت الأحكام العسكرية في الجزائر وأصلت سيف الإرهاب فوق الرؤوس أشد مما كان قبلها على شدته، وقد جندت فرنسا من الجزائريين ربع مليون جندي ومائة ألف عامل، وارسلتهم إلى

جبهات القتال في أوربا. كما زيدت الضرائب على المواطنين، وطرحت التكاليف التموينية الباهظة على الأهلين وحظرت عليهم الإجتماعات والتنقلات وحيازة السلاح، وأنشئت المحاكم العسكرية التي كانت تصدر الأحكام القاسية لأتفه الأسباب والتهم والمخالفات.

وكانت فرنسا مع هذا تغدق الوعود الزائفة على الشعب الجزائري وتعده بحياة سعيدة بعد النصر، ولكن، ولما تحقق لها النصر بعدما أهلكت في الحرب مائة الف جزائري كان كل ما فعلته هو تخفيف أحكام ذلك القانون الإرهابي مع تخفيف بعض الضرائب، إضافة لتوسيع نطاق ممارسة انتخاب المجالس البلدية والمحلية، والسماح بتشكيل الجمعيات المحلية واهتمامها بشؤون الأهالي، وتوسيع نطاق التعليم بعض الشيء، مع الإحتفاظ بأساس بقاء الجزائر ضمن الفرنسيتها.

ومع ذلك فإن الروح الإستعمارية الفرنسية جعلت هذه التعديلات التافهة بدون ثمرة مجدية، وظلت حالة الحرمان والإضطهاد الشديدة هي القائمة المستمرة على أشد ما يكون من بغي وسوء.

تـونـس

ما أن ثبتت فرنسا أقدامها في الجزائر حتى أعـدت العـدة لخطوتها الثانيـة حيث اتجهت انظارها الى القطر التونسي أولا؛ وكانت تونس منـذ اوائـل القـرن الثامن عشر تتمتع باسـتقلالها في ظـل دولـة تمـت في اصلهـا الى العنصـر الـتركي الذي استولى على الجزائر وتونس في أوائـل القـرن السـابع عشـر باسـم الدولـة العثمانية. وكان رؤساء هذه الدولة يتلقبون بلقب الباي والباشا. وقد تمكنوا بعد فترة من الزمن من الانفراد في الحكم دون الدولة العثمانية. وتعربوا وتأقلموا هم ومـن كـان معهـم ممن يمت الى العنصـر الـتركي، واندمجـوا في القوميـة العربيـة التونسية.

وفي أوائل القرن التاسع عشـر أخـذت الـدول الأوروبيـة تعـترف بتونـس كدولة مستقلة وتنشىء معها صـلات عهديـة تجاريـة وسياسـية. وأخـذ أمراؤهـا يسيرون في طريق اصلاح جهاز الحكم وتقوية الجيـش وتنظيمـه وإنهـاض البـلاد إقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. وقد سارت تونس في عهد إمرائها أحمد باشا ومحمـد باشا والصادق باشا خطوات حثيثة في هذا السبيل. ففي عهد الأول نظم الجيـش والنشـيء اسـطول بحـري وأسسـت مصـانع الأسـلحة والذخـيرة ودار لصناعـة السفن، وفي عهد الثاني سن دستور حديـث يقـوم علـى المبـادىء الديموقراطي بحيث سجل بذلك أولية الحكم الدستوري الحديث بين الدول العربية والاسلامي ـ إذ كان هذا في أواسط القرن التاسع عشر ـ، وقام مجلس تشريعي ذو سـلطات واسعة ونظم جهاز الحكم تنظيماً عصرياً وسـن قـانون ضمـان حقـوق الفلاحـين

ووضع منهج خاص لتوزيع الأراضي الاميرية على سكان البادية وأصلحت مناهج التعليم، وأسست المدرسة الصادقية للعلوم واللغات، وأرسلت البعثات العلمية إلى فرنسا وإيطاليا وغيرهما، كما استقدم خبراء أجانب وسمح لرؤوس الاموال الاجنبية بالنشاط والاستثمار.

ومنذ بدأت تونس نهضتها هذه أخذ التنافس يشتد على الاختصاص بها بين فرنسا وايطاليا بنوع خاص. وكانت رؤوس الأموال الأجنبية والخبراء الفنيون من مجالات هذا التنافس ومظاهره كما كانت سبباً في نكبة تونس بالاحتلال الافرنسي، حيث أخذ قناصل الدول المتنافسة يغرون الامراء بمشاريع اصلاحية، ويورطونهم في الاستقراض بسبيل القيام بها، ويضعون في عنق البلاد الاغلال واحدا بعد آخر. وقد أدى هذا الى فرض ضرائب مرهقة للشعب نتج عنها ثورة داخلية عنيفة عام ١٨٦٤ واضطر الباي بقوة الضغط الدولي الى قبول لجنة مالية دولية لتوحيد الديون والى رهن ايراد الجمارك مقابل وفائها. وكانت هذه الديون تبلغ عام ١٨٧٠ نحو ١٢٥ مليون فرنك. وظل التنافس قائماً بين ايطاليا وفرنسا على مرافق البلاد وامتيازات مشاريعها، وحالف النجاح فرنسا أكثر فنالت إمتيازات عديدة بإنشاء سكك حديدية وموانىء ومن ثم اخذت تعمد الى تعطيل اعمال اللجنة الدولية أو عرقلتها لتزداد أحوال تونس سوءاً وتقتنع الدول بتسليم مقاليد امورها اليها.

على انها لم تترك ذلك للصدف؛ حيث أخذت تهيء الظروف المساعدة على ما تريد ولا سيما انها رأت قنصل ايطاليا يسعى حثيثاً في منافستها وينال امتياز مصلحة البرق ويتمكن من شراء خط حديدي من شركة انجليزية بثمن كبير.

ولقد كانت تقع على الحدود الجزائرية بعض الاحداث المخلة بالامن فاتخذت حادثاً منها ذريعة إلى تنفيذ عزيمتها وسارعت الى تسيير بعض قواها من ناحية هذه الحدود من جهة وإنزال قوة بحرية في مينائي بنزرت وطبرق من جهة اخرى دون ان تعير احتجاجات الباي واعلانه استعداده لدفع الغرامات وضمان الحدود وأمنها اهتماماً.

وفي تاريخ ١٢ مايس من عام ١٨٨١ حوصر الباي في قصره في باردو وأجبر على توقيع المعاهدة التي تعرف بمعاهدة باردو.

وقد نصت هذه المعاهدة على حق فرنسا باحتلال الأماكن التي ترى احتلالها ضرورياً لحفظ الأمن وتأمين الحدود، على أن ينتهي الاحتلال حينما تتفق السلطتان الحربيتان الافرنسية والتونسية على قدرة الحكومة الوطنية على تأمين الأمن؛ وتعهدت فرنسا فيها بتنفيذ المعاهدات النافذة بين تونس والدول الاخرى وتمثيل تونس ورعاية مصالح رعاياها في البلاد الأجنبية من قبل ممثليها وقناصلها؛ وتعهد الباي بعدم ابرام أي عقد ذي صيغة عامة مع دولة أخرى دون علم فرنسا وموافقتها.

ولم تكتف فرنسا بما فرضته في هذه المعاهدة من شروط ونصوص تنطوي على القضاء على سيادة تونس، بل أجبرت الباي في نفس السنة على اصدار مرسوم باعتبار المقيم الافرنسي العام ـ المندوب السامي ـ الذي سيمثل فرنسا في تونس وزيراً للخارجية كما أجبرته بعد سنتين على توقيع معاهدة اخرى نصت على الاعتراف بحماية فرنسا والتعهد بالقيام بالاصلاحات الادارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة الافرنسية فائدة لها؛ وخطت بعد سنة أخرى خطوة

خطيرة حيث ذهبت الى تأويل المعاهدتين تأويلا لا يتسق مع النصوص، وعمدت الى التصرف بالأمور تصرف الدولة تجاه ولاية من ولاياتها؛ فأصدر رئيس الجمهورية مرسوماً يمنح المقيم الافرنسي العام نيابة عن الحكومة الافرنسية حق المصادقة على ما يصدره الباي من أوامر ومراسيم وعدم نفاذ أي شيء يصدره من دون موافقته.

وهكذا حلّت فرنسا محل الدولة، وأتاحت لنفسها حكم البلاد حكما مباشراً وجعلت مقيمها الحاكم الأعلى والآمر المستبد فيها بغياً وعدواناً وبقوة الحديد والنار.

على أن تونس لم ترضخ للواقع. فهاج الشعب منذ وطئت أقدام القوى الافرنسية أراضي بلاده وازداد هياجه مذ علم أن الباي انما أجبر على ما وقعه اجباراً، فنشبت الثورة وعمت جميع أنحاء البلاد؛ وحينئذ أخذت النجدات تتوارد وأخذت السلطات الافرنسية تشتد في القمع والتنكيل وكانت معارك طاحنة استمرت بضعة اشهر واشتهرت القيروان وسوسه وقابس والقلعة الصغيرة وزغوان وتستور وصفاقس خاصة بمقاومتها الضاربة وبسالتها وضحاياها. وقد حوصرت الاخيرة حصاراً شديداً براً وبحراً ودمرت تدميرا.

ومع أن القوة غلبت الحق في هذه المعارك التي انعدم فيها التكافؤ فقد ظلت المنطقة الجنوبية خاصة تقاوم القوة الغاشمة بزعامة قائدها الكبير علي بن خليفه نحو ثلاثين عاماً أي الى سنة ١٩١٠ كما أن الشعب التونسي ظل يعلن رفض الحماية التي فرضت عليه بالقوة ويقاومها بكل وسيلة استطاع اليها سبيلاً من ثورات واحتجاجات وحركات وطنية ومواقف تمردية ومؤتمرات قومية، ولم

يدع فرصة تمر دون أن ينتهزها في إعلان إرادته وتوكيد رفضه والسعي للتخلص من النير الذي وضع في رقبته بغياً وطمعا واستناداً الى تفوق القوة، بالرغم مما عمدت اليه فرنسا وظلت تمارسه من القمع والتنكيل والدس والتفريق والاضطهاد والارهاق والتشريد والتشريع في سبيل إخضاع هذا الشعب العربي الأبي.

ومما كان يزيد من شدة الكفاح والمقاومة القومية العربية أن فرنسا استهدفت في تونس نفس الهدف الذي استهدفته في الجزائر وهو قلبها الى مستعمرة افرنسية وتبديل وجهها العربي المسلم بوجه إفرنسي مسيحي، وانها ظلت تبذل جهودها العظيمة طيلة المدة الطويلة التي مرت والتي تقرب من سبعين عاماً في الوصول الى هذا الهدف وخاصة عن طريق فتح أبواب تونس للمستعمرين، ونزع أراضي العرب بمختلف الأساليب وإقطاعها لهم، وتهيئة أسباب استقرارهم وتحكمهم في مختلف شؤون القطر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتشريعية والتنفيذية والثقافية وتسييد اللغة الافرنسية بحيث كادت تصبح لغة الدولة، ومحاربة اللغة العربية والدين الاسلامي بكل الوسائل، وإبقاء أهل تونس في اطار حديدي من الجهل والفقر والمرضى.

ولقد كان في تونس قبل النكبة حكم دستوري ديقراطي تقوم على أساسه سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية فكان من أول ما فعله الافرنسيون لاصلاح شؤون تونس إلغاء الدستور وحل المجلس التشريعي وحكم البلاد حكما فردياً إستبدادياً. وقد ستروا يدهم المباشرة في الحكم بنقل السلطات إلى يد الباي الأسير الذي قيدوه بقيود جعلت هذه اليد صورة لا تتحرك إلا بما يريدون، سواء اكان ذلك في الشؤون التشريعية أم الادارية أم المالية أم القضائية. وحينما

توطدت أقدامهم وكثر المهاجرون والمستعمرون أنشأوا مجلساً إستشارياً خاصاً بالافرنسيين لتنسيق جهود الجاليات الافرنسية والمصالح الحكومية التي يسيطر عليها الأفرنسيون في صدد توطين المهاجرين وتأمين مصالحهم وسيطرتهم على الشؤون الزراعية والتجارية والصناعية. ومع أنه أدخل في هذا المجلس مؤخراً عنصر تونسي فقد جاء هذا على منتهى ما يمكن من الاستهتار حيث جعل عدد اعضاء المجلس (٥٢) منهم (٣٦) إفرنسيون ينتخبون إنتخاباً من الجاليات الافرنسية و (١٦) تونسيون يعينهم المقيم العام تعييناً... وتعالت الأصوات المستنكرة لهذا الوضع العجيب فأنشىء مجلس جديد باسم المجلس الكبير، غير أنها حفظت الأكثرية فيه للافرنسيين فضلاً عن جعل قراراته منوطة بمصادقة المقيم العام وموافقة الحكومة الأفرنسية

وعلى كل حال فقد ظل المقيم العام صاحب السلطة التشريعية حيث كان وما زال هو الذي يهيء المراسيم ويحمل الباى على توقيعها. وما يوقعه الباى بسبب ما يصدره هو بصفة قرارات ولوائح تكون في منزلة واحدة مع المراسيم مع أنها في الاصل تفسير لها.

ولقد كان يتولى السلطة التنفيذية قبل النكبة مجلس وزراء، أفشلت السلطات يد هذا المجلس، ووضعت بجانب كل وزير مديراً إفرنسياً بيده السلطة النافذة، وأحدثت منصباً باسم أمين السر العام مرتبطاً بالمقيم العام وربطت به المديرين الافرنسيين المذكورين، فغدا أمين السر العام والمديرون هم المباشرين للسلطات التنفيذية فعلاً وغدا المقيم العام بمثابة الرئيس الاعلى لهذه السلطات، فضلاً عن أنه كان رسمياً يشغل منصب وزير الخارجية. وهكذا جمع المقيم العام بيده جميع السلطات الاجرائية الداخلية والخارجية، أما الوزراء التونسيون فليس

لهم من كل مناصبهم إلا الأسم والمرتب. ويقتصر عملهم على جلسة في كل شهر يدعوهم اليها المقيم العام باسم مجلس الوزراء، تهيأ مواضيعها وقراراتها من قبل أمين السر العام، فضلاً عن أنها ذات صفة إستشارية... ومع أنه أدخل شيء من التعديل على هذا النظام عقب الحرب الأخيرة نتيجة للحركة الوطنية حيث منح مجلس الوزراء والوزراء التونسيون بعض الصلاحيات إلا أنه جعل للمديرين الافرنسيين حق حضور هذا المجلس والاشتراك في الرأي فيه، وأبقى لهم حقهم الأول بحيث لا تأخذ الأوامر والرسائل التي يصدرها الوزير صفة قانونية وتنفيذية الا بعد توقيعهم عليها، كما أبقيت رابطتهم بأمين السر العام وأبقيت سلطات هذا ورابطته بالمقيم العام على ما كانت عليه من قبل.

وقد جمعت في يد هذا الموظف جميع السلطات الادارية. فهو الذي يصادق على المراسيم بعد توقيع الباي عليها ولا تنفذ الا بعد توقيعه وهو الذي يصادق على جميع القرارات الصادرة من الوزير الاكبر وبقية الوزراء والمديرين ولا تنفذ الا بعد توقيعه أيضاً. وهو الذي يشرف على هيأة الموظفين وعلى المصروفات العامة. وهو الذي يضع المناهج الاقتصادية ويسهر على تنفيذها. وليس للوزراء التونسيين ان يتصلوا بالوزير الاكبر الا عن طريقه.

وهكذا كان التعديل صوريا بل شراً لأن سلطات الوزارة قبله لم تكن مقيدة بنصوص رسمية وإنما كانت معطلة تعسفاً.

وإلى هذا فهناك إدارات تعتبر إفرنسية حيث لا توجد لها وزارات كالأشغال العامة وإدارة البرق والبريد وادارة المعارف، فرؤساء هذه المصالح وجل موظفيها افرنسيون.

وقد وضع الى جانب كل عامل اداري في القطر مراقب مدني افرنسي، وجعل لهم الامر كله فلا ينفذ شيء من اجراءات وقرارات العمال التونسيين الا بمصادقتهم ولهم نفوذ عظيم وهم مسؤولون أمام المقيم العام وحده ويمثلونه. وقد اشتهروا بجبروتهم حتى لقبوا بقياصرة الآفاق.

وقد سلخت المنطقة الجنوبية من القطر عن السلطة التونسية بالمرة، واعتبرت منطقة عسكرية يدير شؤونها ضباط خاضعون لادارة الشؤون الأهلية التابعة للمقيم العام. وقد امتاز الحكم العسكري في هذه المناطق بجبروته واضطهاده للسكان.

والوضع العام للحكم أن الوزراء والمديرين مسؤولون أمام المقيم العام الذي يخضع لوزارة الخارجية الافرنسية، وان فرنسا تحكم في تونس كما تحكم في مستعمرة افرنسية ضاربة بمعنى الدولة القائمة فيها وما اعترفته لها ولأهلها من حقوق عرض الحائط.

وقد ملئت دوائرها في المركز والملحقات بالموظفين الافرنسيين من جميع الدرجات استهدافا لإضعاف العصر التونسي في الحكم وصبغه بالصبغة الإفرنسية فضلاً عن ايجاد مجال الرزق لجيش جرار من المستوظفين الافرنسيين بحيث كادت تونس تصبح مستعمرة موظفين افرنسيين وقد بلغ عددهم في سنة ١٩٤٧ خمسة وعشرين الفا. وهو رقم هائل لا يكاد يصدق لولا أنه مستند الى الاحصاءات المنشودة.

وتكاد وظائف التونسيين أن تكون قاصرة على الدرجات الثانوية والتافهة اذا استثينا الوظائف الحكومية العليا التي لا مناص من قيام تونسيين عليها مثل

الوزارات والعمال الاداريين (الحكام الأداريون) الذي جعل المراقبون والمساعدون والمستشارون الافرنسيون هم اصحاب الشأن في عملهم. ويتقاضى الموظفون الافرنسيون مرتبات عالية وعلاوات وامتيازات متنوعة، فضلا عن استثمار وظائفهم في الاثراء وعن الغطرسة والصلف، مما يقاسي منه التونسيون الشدائد ومما شاهدنا بعض صوره في سوريا ولبنان. ومن تحصيل الحاصل ان تصبح اللغة الافرنسية هي لغة التعامل والتسجيل والمراسلات والمراجعات في دوائر الحكومة وان يغدو مكان العربية فيها ضيقا أو معدوما..

وقد أنشئت محاكم افرنسية الى جانب المحاكم التونسية، ومنحت اختصاصات واسعة، وحرم على القضاء التونسي النظر في قضايا الأجانب والأفرنسيين والقضايا التي يكون فيها التونسيون مع الأجانب طرفا ثانيا، كما حصر فيها حق فصل المنازعات المتعلقة بالعقارات والقضايا السياسية. هذا فضلا عن أن المحاكم التونسية نفسها قد نظمت وفق قوانين افرنسية وعهد برأسة كثير منها الى قضاة إفرنسيين وحصرت مهام نيابة الحق العام فيها في نائب عام افرنسي ووكلاء افرنسيين وتونسيين يأتمرون بأمره. وكثيراً ما كانت المحاكم الافرنسية أداة أرهاب على الحركة القومية والنشاط السياسي حيث حصرت القضايا المتصلة بذلك فيها.

وفضلاً عن هذا فقد خوّل المقيم العام حق الامر باعتقال أي شخص لمدة سنتين قابلتين للتجديد دون أي محاكمة، فكان هذا تتمة لاحكام نطاق الارهاب.

ولقد شهر سيف الارهاب والأرهاق على الحريات العامة بسلسلة من

المراسيم واللوائح الظالمة فالصحافة العربية مقيدة بقيود شديدة تجعلها معرضة لاقسى العقوبات والاجتماعات كذلك، وقد قيدت حرية تنقل التونسيين في داخل بلادهم بقيود شديدة، وقد سنت قوانين الخدمة الاجبارية بحيث يكون التونسي مجبراً على أي عمل عام تعلنه السلطات انه كذلك بالاجر والشكل الذي تراه وتحت طائلة العقوبات الشديدة. وكثيراً ما أعلنت السلطات صفة العمل العام لمشاريع استثمارية واستعمارية وزراعية تخص المستعمرين الافرنسيين واضطرت التونسيين الى خدمتها.

كما أنشأت السلطات الافرنسية في أول ما أنشأته ادارة خاصة باسم مصلحة الاستعمار والفلاحة وأناطت بها تنظيم توزيع الاراضى واستثمارها، ثم أخذت تنفذ سياستها المذكورة على يد هذه المصلحة. ومن أول ما فعلته الغاء مشروع توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين الذين لا أرض لهم، والذي بدىء بتنفيذه قبل النكبة وانتزعت ما وزع منها من الفلاحين وأخذت توزعها على المستعمرين. وتبلغ مساحتها نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم ونسبتها لمجموع الاراضي الزراعية هي اثنا عشر من المئة. ثم اصدرت تشريعاً الحقت بموجبه الاراضي البور بأملاك الدولة وأخذت تتعسّف في تحديد هذه الاراضي وتدخل فيها مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة لها، وتقطعها تدريجيا الى المستعمرين ايضا.

وتبلغ مساحة هذه الاراضي ضعف مساحة الأولى. وفعلت مثل ذلك بأراضي الغابات التي تبلغ مساحتها نيفاً ومليوناً من الهكتارات، وتعسفت كما تعسفت في تحديد أراضي البور فأدخلت مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة ايضا.

وعهدت بحراسة الغابات والاشراف على استثمارها لجيش من الموظفين الافرنسيين الذين كانوا كابوسا شديد الوطأة والبغي على الناس في فرض الغرامات الفادحة تحت ستار الحراسة والتفتيش وحرمانهم من الانتفاع بشيء من أحراشهم ووضعت يدها على مصادر مياه الري في المنطقة الجنوبية واعتبرتها ملكا للدولة ثم اخذت توجه صرفها الى اراضي المستعمرين في هذه المنطقة فيسرت لهم بذلك حظا سعيداً ببساتين النخيل الواسعة. والحقت اراضي المشاع التي كان يتصرف فيها القبائل بأملاك الدولة أيضا وأخذت تقطع ما تشاء منها للمستعمرين، وأخمدت بالحديد والنار كل حركة صدرت من القبائل بسبيل الدفاع عن أراضيهم ومورد رزقهم، وهذه الاراضي تبلغ نحو أربعة ملايين هكتار ولم تتورع عن اراضي الاقاف العامة والخاصة، ففرضت على مصلحة الأوقاف أن تضع تحت تصرف مصلحة الأستعمار مساحة لا تقل عن الفي هكتار سنوياً منذ سنة ١٨٩٨ وجعلت لهذه المصلحة حق اختيار الأراضي التي توضع تحت تصرفها منها مقابل ثمن بخس يقدره خبير افرنسي، ومنعت وقف الأراضي على المعاهد الدينية وحصره بالعقارات وأباحت بيع الاراضي الوقفية دون اعتداد بالشروط الوقفية. وهكذا نظمت سلسلة نهب أراضي تونس على اختلاف انواعها دونما رادع من شرف أو ضمير أو حق أو قانون لاحلال المستعمرين الافرنسيين فيها محل أهلها.

ولأجل تسهيل توزيع الاراضي على المستعمرين وإستثمارها أنشأت صندوقاً باسم صندوق الاستعمار رأس ماله من ميزانية الدولة ومن قروض على حساب هذه الميزانية! ومن الاقساط التى تستوفى ثمناً للاراضي المقطعة مع التنبيه بأن ثمن الأراضي كان تافهاً جداً فضلاً عن تقسيطه لعشر سنوات!

وقد بلغت مساحة الاراضي المقطعة للمستعمرين حتى سنة ١٩١٤ (٧٥٧٠٠٠) هيكتاراً أي سبعة ملايين وسبعمئة الف دونم ومن سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٨ (١٩٧١٦٠) هيكتاراً حسب الاحصاء الرسمي واستمرت هذه السياسة الباغية بنفس القياس.

والأراضي الصاحلة لزراعة الحبوب في تونس تبلغ نحو ثلاثة ملايين هيكتار لم يبق منها في أيدي التونسيين إلا مليون.

ولقد كان من نتائج هذا النهب المنظم الغاشم ان عم الفقر بين طبقات الفلاحين وكثرت فيهم البطالة وانخفضت مستويات معيشتهم وأصبحت تغذيتهم سيئة وصاروا على شفا المجاعات التي تنتشر انتشاراً مريعاً عند أي أزمة من الأزمات. ثم عمدت السلطات الإفرنسية إلى فتح باب التجنس للتونسيين لتحويلهم الى رعايا افرنسيين كوسيلة من وسائل الهدف الذي استهدفوه، وجعلته مغرياً بالمنح والامتيازات وميسراً بأخف الشروط، في حين حرم على الأجانب التجنس بالجنسية التونسية؛ حتى لقد أصدر تشريع يقضي بإخراج الاجانب الذين ولد اجدادهم في تونس من الرعوية غير التونسية والحاقهم بالجنسية الافرنسية!

وقد نشط كذلك التبشير في اواسط المسلمين وخاصة قراهم وباديتهم كوسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف هدف تبديل وجه تونس العربي المسلم، ويسرت الوسائل والحماية لبعثاته ومنحت المساعدات المالية الكبيرة.

وقد انشئت كتائب تونسية تحت قيادة الافرنسيين وتنظيمهم على أساس

التطوع والاغراء، وكان عددها يزاد حين الحاجة. وكثيراً ما حاربت الى جانب الافرنسيين في اوروبا وغيرها، واستخدمت في مصالحهم ومآربهم الاستعمارية. وقد جعلت هذه الطريقة وسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف حيث يكاد المجند احياناً في حياته الطويلة التي يحياها في الوسط الافرنسي والنظام الافرنسي ينسى لغته ودينه وعاطفته!

ولقد ابى التونسيون كما قلنا ما اريد لهم ولبلادهم من استعمار واذلال وارهاق وتبديل وجه ودين، فأخذوا منذ بدء النكبة يقفون موقف المناوىء المناضل ويقومون بالحركات الوطنية الثورية. وقد ذكرنا ما كان من ثورات عنيفة في السنة الاولى من الاحتلال، وما كان من ثورة ابن خليفة التي امتدت ثلاثين عاماً في المنطقة الجنوبية ولم تفتر إلا في سنة ١٩١٠.

ولقد اخذت حركة المقاومة والنضال تدخل في نطاق التنظيم الوطني منذ بدء القرن الحالي؛ وكان من اول من تولوا زعامة الحركة الوطنية الزعيم علي باش. ومن ابرز وأقدم حوادث هذه الحركة مظاهرات عام ١٩١١ وما كان فيها من اشتباكات دموية بين الجماهير وقوى الاحتلال بسبيل الاحتجاج على عسف السلطات الافرنسية.

وقد أعلنت السلطات الأفرنسية بمناسبتها الأحكام العسكرية التي ظلت البلاد تحت كابوسها إحدى عشرة سنة؛ واضطر الزعيم وكثير من أنصاره الى الفرار الى خارج البلاد وخاصة إلى الأستانة فأصدرت السلطات أمراً بمنعهم من العودة إلى وطنهم.

وفي أثناء الحرب العالمية الاولى اعتقل اكثر من بقي مـن رجـال الحركـة أو الذين يمتون اليهم. ومع ذلك فقد ثار سكان الجنوب ثانية عام ١٩١٥ وخاصة قبائل بني زيد ثورة عنيفة استمرت سنتين وكلفت الافرنسيين كثـيراً مـن الجهـد والخسائر والضحايا.

مـراكـش

ومنذ أن أنشبت فرنسـا مخالبهـا بتونـس انصرفـت إلى التفكـير الجـدي في القفزة الثالثة. أي إنشاب هذه المخالب بمراكش التي كانت تحرك مطامعها قديمـاً لتتم بذلك إحكام السلسلة التي اعتزمت على كل أقطار المغرب العربي بحلقاتها، وقلبها جميعاً الى مستعمرات فرنسية.

ولقد لعبـت المملكـة المراكشـية أو «المغـرب الاقصـى» حسـب تسـميتها العربية القديمة أدواراً عظيمة في تـاريخ الاسـلام وتعاليمـه وحضارتـه وفتوحاتـه على مختلف الأدوار، ومنها اتجه الفاتحون الاولون الى الأندلس وأطـراف أوروبـا الغربية، والى أواسط افريقية كما انها ظلت تمد السلطان العربي في اسبانيا بالدم الجديد آناً بعد آن حيـث يعـود اكـبر الفضـل الى الـدول التـى قـامت فيهـا فـي القرون الوسطى فى بقاء ذلك السلطان نحو ثمانية قرون.

ومنذ ثلاثة قرون قامت فيها الدولة العلوية. وقد تقلبت الحالة في مراكـش في عهـد هـذه الدولـة بـين اليسـر والعسـر والقـوة والضعـف، واسـتطاع بعـض سلاطينها ان يجعلوا الدولة في بعض الظروف قوية محترمة الجـانب مخطوبـة الـود، وأن يقفوا من مطامع الدول منها موقف الاباء والنضال المجدي.

غير أنها كان يعتورها ظرف فتور وضعف وارتباك بسـبب مـا كـان يقـوم فيها من فتن قبائلية من آن لآخر وبسبب سني الجدب التي كانت تحدث المجاعات المبيـدة، فكـان الطـامعون يغتنمـون الفـرص لـدسِ يـد الفسـاد، وكـانت اسـبانيا

وفرنسا بنوع خاص اكثر الدول تبييتاً للطمع في هذه البلاد الغنية الواسعة واكثرها ترقبا للفرص وتوثباً للقفزة وتحريكاً للفتن واشدها تنافساً فيما بينها عليها. وقد استطاعت الأولى في بعض ظروف الضعف ان تستولي على بعض المراكز والشواطيء الشمالية الواقعة على البحر الأطلانطي، وكان هذا مما أدى الى نضال مرير ومديد بينها وبين الدولة العلوية لم يكن ينجح في اجلاء اسبانيا عن جميع ما في يدها.

ولقد مر بين احتلال فرنسا لتونس وفرضها الحماية على مراكش نحو ثلاثين عاما ١٨٨٢ - ١٩١٢ لم تنِ فيها فرنسا عن تهيئة الاسباب وتحين الفرص لتنفيذ عزيمتها وكان التنافس والتجاذب والتشاد الاستعماري بين الدول الاوربية الكبرى على الشرق الأوسط وشمال افريقيا قد اشتد في أواخر القرن التاسع عشر فأخر فرنسا عن الوصول الى بغيتها.

وقد تداعت هذه الدول كنتيجة من نتائج التنافس والتشاد حول مراكش الى مؤتمر انعقد في مدريد عام ١٨٨٠ لتنظيم علاقاتها بمراكش اشترك فيه احدى عشرة دولة اوروبية والولايات المتحدة الاميركية وانتهى بمعاهدة فرضت على مراكش كثيراً من الالتزامات ومن جملتها دولية طنجه، وان كانت نصت على الاعتراف باستقلال مراكش وتمام سلطانها واحترام اراضيها، وصيغت قضية مراكش بصيغة دولية أوهمت أنها تدرأ عنها شر مطامع فرنسا واسبانيا خاصة.

ولكن فرنسا لم تعبأ بذلك ونشطت الى استغلال تلك الالتزامات اكثر من غيرها حيث رأت فيها الثغرة النافذة، فأخذت ترسل عمالها الاستعماريين في

شكل بعثات طبية وتبشيرية، وتنشيء الشركات والبيوتات التجارية مما كان من تلك الالتزامات الممنوحة للدول على السواء. وقد استطاعت ان تحصل على طلب من السلطات لبعثة عسكرية لتنظيم الجيش وتدريبه فكانت هذه البعثة وسيلة الى نفوذ فرنسا العملي والرسمي، ثم أخذت تغري بعض اصحاب الطرق الصوفية وتعمل على كسب و لائهم وتسييرهم في الخطة التي اختطتها بسبيل ما اعتزمت عليه من نية الغدر، حيث كان للطرق الصوفية ومشايخها تغلغل شديد في السواد الاعظم.

ولقد حرك هذا النشاط الدول، فأخذت كل من انكلتره وايطالية والمانية تتحفز للسير في خطط مماثلة، وحركت اسبانيا خاصة لانها رأت فيه خطراً على ما تعده منطقة حيوية لها، فاضطرت فرنسا الى السعي في سبيل التفاهم مع هذه الدول وتصفية الجو والطريق لنفسها، ونتج عن هذا السعي ابرام سلسلة اتفاقات سرية بينها وبين ايطاليا سنتي ١٩٠١و١٩٠٢ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراكش مقابل حريتها في العمل في ليبيا، وبينها وبين انكلتره سنة ١٩٠٤ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراكش مقابل اطلاق يدها في مصر، وبينها وبين اسبانية سنة ١٩٠٥ تعهدت فيها هذه بعدم معارضة مشاريع فرنسا في مراكش مقابل اعتراف هذه باحتلالاتها ومركزها الخاص في المنطقة المراكشية الشمالية وتعهدها بتسوية حدود مرضية.

وسارعت بعد ذلك الى خطوة ثانية فقدمت مذكرة للحكومة المراكشية تطالب فيها بزيادة عدد أعضاء البعثة العسكرية وحصر جميع الشوؤن العسكرية في يد هذه البعثة، وبالسماح بمراقبة الشؤون الادارية المحلية من قبل مراقبين افرنسين بحجة ان امن البلاد الداخلي والخارجي مما يهمها هماً عظيماً بسبب

مصالحها الاقتصادية والحدود المشتركة بينها وبين مراكش في الجنوب والشـرق. غير انها اصطدمت بموقفين موقف سلطان مراكـش الـذي عـرض المطـالب علـى مجلس اعيان البلاد فقرر رفضها لتعارضهـا مـع معـاهدة مدريـد وطلـب عرضهـا على الهيئة الدولية، وموقـف المانيـا الـتي تجاهلتهـا فرنسـا حيـث زار الامـبراطور غليوم طنجة بمظاهرة صاخبة وصـرح لممثلـي الحكومـة المراكشـية بأنـه ينظـر الى السلطان على اعتبار أنه الحاكم الشرعي المستقل وأدى الموقفان الى انعقاد المؤتمر الأول في سنة ١٩٠٦ في الجزيرة كـان مـن نتائجـه تجديـد الاعـتراف باسـتقلال مراكش ووحدتها وسيادة السلطان، وعـدم الاعـتراف لأي دولـة بمركـز خـاص فيها؛ وهكذا منيت فرنسا بالهزيمة في هذه الجولة ولكنها لم تنهزم وظلـت تـترقب الفرصة للتنفيذ والانقضاض. ونصحت داهية الاستعمار التي لا يهمها عهــد ولا ذمة في سبيله وهي بريطانيا زميلتهـا بارضـاء المانيـا قبـل أن تخطـو خطـوة عمليـة وقالت ان مؤازرتها لها والاغضاء عن قرارات مؤتمر الجزيرة منوطان بذلك.

غير ان فرنسا لم تأخذ بهذه النصيحة واستسنحت فرصة فتنة داخليـة قـام بها ثائر نعت بأبي حماره وكان يزعم أنه ذو حق في العرش فأمدته وساعدته حتى عمت فتنة البلاد واستمرت بضع سـنين. وقـد اسـتنفدت الفتنـة طـائل الامـوال فاضطر السلطان المولى عبد العزيز الى الاستفراض من فرنسا واسبانيا وانكلـتره، واستغلت فرنسا الموقف فأجبرت السلطان علـى قبـول مراقبتهـا علـى الجمـارك ضمانة للأمـوال الـتي استقرضتها. وحينمـا بلغـت الفتنـة ذروتهـا ارسـلت قـوة احتلت مدينتي الدار البيضاء ووجده المجاورة لحدود الجزائر بحجه منع الفتنة عـن هذا القطر وحماية حدوده، واجبرت السـلطان علـى توقيـع معـاهدة اعـترف بهـا بهذا الاحتلال وبحق فرنسا في التدخل في الرسوم الجمركية وباقرار نظـام خـاص

للدار البيضاء ومناطق الحدود المجاورة للجزائر واسناد ادارتها لعمال الفرنسيين على ان يكون كل هذا موقتاً.

وأهاج هذا الشعب وألمانيا معاً. أما الشعب فقد اتفق جمهرة من رؤسائه مع المولى عبد الحفيظ أخي السلطان على خلع الأخير واعتلائه العرش مكانه على اساس إنهاء الإحتلال الإفرنسي، وانتهاج منهج إصلاحي شامل في الدولة، فثار عبد الحفيظ على أخيه وتمكن من خلعه ثم أخذ فعلاً في اتخاذ الإجراآت الإصلاحية في مختلف المناحي من دستور، وقوانين تعليم، وعمران، الخ..

أما المانيا، فقد أرسلت بارجة إلى ميناء أغادير كتهديد لفرنسا وطلبت من هذه ومن اسبانيا أن تسحبا قواتهما الإحتلالية. وحينئذ رأت فرنسا أنه لا مناص لها من إرضاء المانيا، فوقعت معها معاهدة عام ١٩١١ اعترفت المانيا بموجبها بحق فرنسا بحماية مراكش مقابل تنازل فرنسا لألمانيا عن بعض ممتلكاتها في افريقيا الإستوائية.

وبهذه الطريقة استحكمت حلقات المؤامرة الإستعمارية الأوربية وسخرت الدول على اختلاف نزعاتها من معاني الحق والشرف، كما نسيت معاهداتها واعترافها بسيادة مراكش ووحدتها حينما نال كل منها تعويضاً، وتركت هذه وحدها وجهاً لوجه أمام فرنسا، وقد أدرك الشعب المؤامرة فانفجرت ثورته على السطان، وضعف أمر الحكومة ضعفاً شديداً، فاستغلت فرنسا الفرصة وزحفت بقواتها نحو العاصمة فاس وذلك في أواخر العام ١٩١١ بحجة تأمين الأمن الذي هو من مسؤوليتها وفقاً للإتفاقات السابقة، ثم حماية السلطان من رعيته. فاحتلت العاصمة، ثم قدم الوزير الفرنسي معاهدة الحماية إلى السلطان، وراح يضغط عليه حتى أرغمه على توقيعها في ٣٠ آذار عام ١٩١٢

وكانت المعاهدة تنص على إنشاء نظام جديد يسمح بالإصلاحات الإدارية والقضائية والثقافية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الفرنسية فائدة في إدخالها لمراكش، وتعهد فرنسا ببذل تأييدها الدائم للسلطان وخلفائه ضد كل خطر يهدد شخصه أو عرشه أو يقلق أمن مملكته، وانطواء النظام الجديد على احترام التقاليد الدينية الإسلامية واستمرار تطبيقها، وحرمة السلطان ومكانته المعتادة، وصيانة المنشآت الإسلامية الوقفية، وتخويل فرنسا بمفاوضة إسبانيا والإتفاق معها على تنظيم مركزها في القسم الشمالي من البلاد، وموافقة السلطان على احتلال فرنسا لكل مكان ترى فيه ضرورة لإستتباب الأمن وضمان حرية التجارة، وحق فرنسا بمزاولة كل عمل من أعمال الحراسة البرية والبحرية في المياه المراكشية، وواجب السلطان وخلفائه بإصدار الأوامر التي يقتضيها النظام الجديد طبقاً لإقتراحات الحكومة الإفرنسية، وتمثيل فرنسا لدى السلطان بمقيم عام مفوض ومسؤول عن تنفيذ المعاهدة، ويكون في ذات الوقت هو الوسيط الوحيد بين السلطان وحكومة فرنسا، وبين الممثلين الأجانب، والمكلف بجميع القضايا التي تهم الأجانب في المملكة المراكشية، وصاحب الحق في المصادقة بإسم الحكومة الفرنسية على كل أمر يصدر من السلطان والإذن بنشره ليصبح نافذاً، ورعاية مصالح مراكش ورعاياها في الخارج من قبل ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها، وتعهد السلطان بعدم عقد أي قرض عام أو خاص أو منح أي امتياز على أي شكل دون موافقة مسبقة من فرنسا، وتنظيم الشؤون المالية بضمان الخزينة وجباية مداخيل الدولة من قبل خبراء فرنسيين، مع رعاية الحقوق المخولة لحاملي سندات الدين المراكشي العام.

والنصوص العجيبة الفظيعة التي تمنح فرنسا بها لنفسها حق التصرف

المطلق في البلاد، وتجعل مقيمها العام فوق السلطان، وتقيد هذا بحيث لا تجيز لـه أية حركة أو عمل إلا بموافقة هذا المقيم، بل والـتي تجاوزت في صراحتها وبعد مداها النصوص المفروضة على تونس والجزائر مع اتحاد الجوهر والقصد لا تـدع مجالاً للشك فى أنها أمليت بالقوة والإكراه والخديعة. كما أن موقف السلطان عبد الحفيظ لم يؤيد ذلك حيث ثارت ثائرته حينما عرضت عليه ورفض التوقيع عليها قائلاً إنه يأبى ان يهين نفسه بنفسه، وأخـذ يفند النصوص ويتساءل عن الضمانات التي تقدمها فرنسا بشأن التقاليد الاسلامية. غير انه وجد نفسه امام تهديد ظن انه سيكون اوخم عاقبة على بلاده فوقع المعاهدة كارهاً تفادياً لهذه العاقبة، ثم انسحب من العرش عقب توقيعها.

وقد احتوى نص تنازله اشارة صريحة الى ظروف التوقيع ونتائجه حيث جاء فيه:

لقد رأينا أنفسنا عاجزين عن القيام بواجباتنا التي يجب أن نقوم بها كملك نحو شعب فقرّرنا التنازل...

ولقد كان وقع المعاهدة والاحتلال على الشعب شديداً صاعقاً، اهاجت ثائرته وجرحت كبرياءه، وكان من نتيجة ذلك ان انقض الجنود المراكشيون ليلة ١٧ ـ ١٨ نيسان ١٩١٢ على ضباطهم الافرنسيين وقتلوهم وكانوا ثمانية وستين ضابطاً ثم خرجت الكتائب المراكشية فاستولت على معظم المدينة واخذ الجنود يتعقبون الافرنسيين في العاصمة (فاس) ويفتكون بهم وانضم اليهم الاهالي هائجين صاخبين ليعبروا عن شعور الألم الشديد الذي ألم بهم، وسادت الفوضى في العاصمة في الايام التالية، وكان دوي الرصاص يلعلع فيها ليلاً

ونهاراً، وازداد الحرج والفوضى عندما أخذت القبائل المجاورة تزحف على العاصمة لتشترك مع الثائرين في الفتك بالغزاة البغاة.

وهلعت فرنسا من الاخبار فأرسلت اعنف رجالها واصلبهم وهو المارشال ليوني الذي يعد سفاح مراكش الباغي وارسلته قائداً ومقيماً عاماً، وجاء بموكب عظيم تعمد اظهار الابهة والارهاب، ودخل فاس في اواسط شهر مايس ١٩١٢ دخول الغازي المطمئن، فكان دخوله بمثابة صب الزيت على النار حيث اشتد لهيب الثورة في كل مكان في العاصمة وحاصرتها القبائل الثائرة، وكانت الفرق الافرنسية تنهزم واحدة بعد اخرى حتى لقد حدث المارشال نفسه بالانسحاب، ولكن المدفعية استطاعت ان تنقذ الموقف وتفك الحصار فأدى هذا الى خمود النار في فاس.

غير ان روح التمرد والألم كانت قد سرت في انحاء البلاد الاخرى فثار الشيخ ماء العينين وابنه في الجنوب واكتسحه واحتل في آب ١٩١٢ مدينة مراكش وبدأ يستعد للزحف على منطقة الشاوية. ومع ان الجيش الافرنسي انتصر على جيش الشيخ وأرغمه الى الانسحاب من مراكش إلا ان حركة التمرد والمقاومة بفضل دعوة الشيخ ظلت مستمرة الى سنة ١٩٣٥.

وكذلك ثار الزعيم موسى وحمو في منطقة تافيلات في اقصى الجنوب في نفس الظروف وكانت ثورة عسكرية قوية واسعة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والتضحيات، والهزمت فيها بضع حملات، ومع ان الافرنسيين دبروا اغتياله فإن حركته لم تخمد حيث خلفه على رأسها ابو القاسم النقادي الذي استطاع ان يستمر في تمرده ومقاومته الى سنة ١٩٣٥ أيضاً.

وفضلا عن هاتين الثورتين الكبيرتين والمديدتين فقد شبت ثورات عديدة في مناطق مختلفة من البلاد وخاصة في مناطق جبال الأطلس واستنفدت من الافرنسيين الجهد العظيم والدماء الغزيرة، وكانت كلما خمدت واحدة شبت اخرى الى سنة ١٩٣٣.

ولقد كان السلطان عبد الحفيظ شديد الالم من الموقف. وكان الشعب يعرف انه اجبر على المعاهدة إجباراً فلم تتزلزل مكانته في نفوسهم. فرأى ليوني ان يستغل هذه المكانة فحاول تهدئة السلطان واستدراجه باللين، وهدده بالواسطة بفقد عرشه إذا لم يتضامن معه على تسيير الامور، ولكنه ابى ان ينقاد اليه وأعلن عزمه على مغادرة مراكش وانتقل الى ميناء الرباط بسبيل ذلك بعد ان اسمع ليوني قارص النقد وحذره من النتائج الخطيرة التي تترتب على سياسة البغي التي انتهجها الافرنسيون، ووقع وثيقة التنازل عن العرش وغادر البلاد في ١١ آب ١٩١٢، وخرج اهل المدينة زرافات زرافات ليلقوا آخر نظرة على الملك الذي آثر ان يقضي بقية عمره في المنفى على ان يحتفظ بالعرش ويساهم في ما يُبَيّتُ لبلاده من غدر وعسف، وخلفه اخوه المولى يوسف الذي قبل ان يمثل مع الافرنسيين الدور الذي اباه اخوه.

ولقد نصت المعاهدة المفروضة على تخويل فرنسا تنظيم علاقة اسبانيا بمراكش ومركزها ولم يكن يوماً ما شرعياً وظلت مراكش تكافحه في كل مناسبة فكانت نكبة مراكش بهذا النص مزدوجة تقسيم واستعمار. وقد جرت المفاوضات بين الدولتين الباغيتين وانتهت بعقد معاهدة في ما بينهما في تاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٢ نصت على بقاء المنطقة الشمالية التي تبلغ مساحتها نيفاً وعشرين الف كيلومتر مربع تحت الاحتلال الاسباني على ان تكون داخلة

في نطاق سيادة السلطان الدينية والمدنية يمثله فيها خليفة عنه، يختاره من مرشحين تقدمهما اسبانيا له، ويكون لإسبانيا ما لفرنسا في المنطقة الجنوبية فتمثلها في الخارج وتدخل ما تراه من نظم واصلاحات، ويكون لها مقيم عام له من الصلاحيات ما للمقيم الافرنسي العام في المنطقة الافرنسية.

ومنذئذ وفرنسا في معظم البلاد المراكشية واسبانيا في المنطقة الشمالية منها تطبقان مناهج استعمارهما المظلمة التي تماثل ما يطبق منها في الجزائر وتونس، وتحكمان البلاد بالحديد والنار وتقمعان كل حركة نضالية او وطنية بكل شدة وقسوة، وتقبضان على مصالح البلاد ومرافقها بيد استعمارية جشعة، وتستغلان خيراتها لصالح رعاياهما وتحولان دون اي تقدم جدي علمي او اقتصادي او عمراني في البلاد وتحاربان العروبة والاسلام فيها حرباً شعواء، وتبثان روح الوهن والفتنة والفرقة بين طبقات الاهلين تحقيقاً للهدف الباغي اللئيم وهو تبديل وجه البلاد وهدم كيانها القومي وقلبها الى مستعمرتين افرنسية في الجنوب واسبانية في الشمال لغةً ووجهاً وديناً واستثماراً.

ولقد كانت مراكش قبل النكبة دولة مستقلة ذات سيادة تامة لها قوانينها ووزراؤها وحكامها وهيئاتها الشورية وسفراؤها وقواها البرية والبحرية وحركتها العلمية والعمرانية والزراعية والاجتماعية التي اخذت بالسير في المدة الاخيرة في سبيل التحسن، فاتجه اهتمام الافرنسيين والاسبانيين الى وقف ذلك كله، وإنشاء جهاز يقوم على موظفين منهم ويسير في تحقيق الهدف الاستعماري الباغي الذي استهدفوه بأسرع ما يمكن من الخطى.

ليبيا

كان ذلـك الجزء مـن ليبيـة الـذي يشـمل ولايـتي طرابلـس وبـني غـازي قـد سـقط في قبضـة ايطاليـة في حـرب سـة ١٩١١، واضطـرت تركيــة إلى أن تعترف رسمياً ـ في معاهدة «أوشي» ـ بالتنازل عن سيادتها عليهما. ويقيـت، مـع ذلك، هضبة برقة القليلة السكان دون أن تحتلها الجيوش الايطاليـة. وكـان لهـذه المنطقة في ذاتها قيمة سياسية، إذ انها موطن السنوسيين وزعيمهم النشط السـيد أحمد الشريف، وكان نفوذه في افريقيـة الشـمالية يتجـاوز كثيراً حـدود منطقتـه الخاصة.

نشأ المذهب السنوسي في برقة في منتصف القرن التاسع عشر على يـدي رجل جزائري تقي كان قد قضى أكثر عمره في مكة ووقف نفسه علـى الدعـوة إلى اصلاح العقيدة الاسلامية. وكانت تعاليـم هذا المذهـب كبـيرة الشـبه بتعـاليم الحركة الوهابية: إذ أنهما كليهما كانا يدعـوان إلى الرجـوع إلى أسـاليب صـدر الاسلام وعاداته. وكان المذهب يرمي إلى نشر دعوتـه، كمـا أن «الزوايـا» الـتي بثها في أنحـاء البـلاد مكنتـه مـن أن يكـون لـه كذلـك نفـوذ سياسـي، وأن يجنـد المتطوعين لاغراض عسكرية. ومن مميزات هذه الحركة أنها شجعت الناس على الاستقرار وزراعة الارض ـ واستطاعت هذه الجماعة ــ خـلال نصـف قـرن مـن انشائها ـ أن تحقق لنفسها القوة والتماسك، وأن تضـم إليها جماعـات كبـيرة مـن الانصار في منـاطق واسـعة في افريقيـة الوسـطى. وكـان رئيـس الجماعـة في هـذا

العهد السيد أحمد، من سلالة مؤسسها. ولم يكن على وفاق مع الاتحاديين، ولكن لم يكد الايطاليون يبدأون بتغلغلهم في داخل البلاد، حتى تعاون مع عزيز علي لتنظيم مقاومة عربية قوية، وكان لا يزال يقود حركة المقاومة حين نشبت الحرب.

وبعد هذه الاحداث التي تتالت نتيجة للخلافات السياسية بين الدول في أوروبا، حيث كانت المطامع لا تنتهي عند حدّ، إذ كانت كل دولة من الدول الكبرى، تعتمد في آن معاً، القوة والدهاء في سبيل الوصول إلى غاياتها الاستعمارية وبالتالي لتقاسم المكاسب على حساب الدولة العثمانية التي كانت تتلقى الضربات من جميع الجهات؛ أخذت المشاريع المتعلقة بتقسيم هذه الدولة تختمر في النفوس، لتصبح قريبة المنال، وبخاصة إثر الوجود الفرنسي والإسباني في مرّاكش، فكان من جراء ذلك أن اغتنمت إيطاليا الفرصة المناسبة فانقضت فجأة على ولاية طرابلس الغرب التابعة لتركيا بغية استيطانها واستعمارها أسوة بما فعلته فرنسا في الجزائر وتونس فاحتلّ أسطولها السواحل البحرية، وبنغازي ليبيا في الخامس من تشرين الأول ١٩١١م بعد أن أعلنت الحرب على الدولة في ٢٩ أيلول ١٩١١م.

ولم تكتف إيطاليا بذلك إنما امتد نشاطها البحري إلى الدردنيل فضربت الحصار عليه، ثم استولت على جزر الدوديكانيز ورودس وراحت سفنها الحربية تجوب عرض البحر المتوسط، فظهرت أمام مرفأي طرابلس الشام وبيروت، حيث ألقت قذائف مدافعها على المرفأ الأخير وأوقعت به أضراراً وأصابت البنك العثماني الواقع قريباً منه.

وإذ لم يكن باستطاعة الدولة العثمانية آنئذ، الوصول إلى ليبيا، لا بحراً ولا براً، أولا لعدم أهلية أسطولها البحري الذي كان ضئيلاً جداً لا يزيد عن ثلاث سفن حربية، قديمة العهد، فلا يمكنها مضاهاة الأسطول الإيطالي، وثانياً، لأن الانكليز في القطر المصري كانوا قد منعوا مرور الجيش العثماني من حدود مصر بالإتفاق مع حكومة القاهرة التي كانوا يسيطرون عليها، ولذلك كان على الضباط الأتراك الذين يريدون المقاومة والإنضمام إلى الجيش العثماني في طرابلس الغرب، السفر على طريقتهم الخاصة وبالإنفراد. وبهذه الطريقة التحق عدد كبير من الضباط في الجيش التركي ومن بينهم أنور وفتحي ومصطفى كمال، فاتخذوا طريق البر مجتازين آسيا الصغرى فسوريا، ففلسطين حتى وصلوا إلى الإسكندرية وهناك علموا بأن طريق مصر مقفلة على الحدود، فتفرقوا كل من جهته، على أن يلتقوا فيما بعد في طرابلس الغرب. وهكذا كان، وبعد الكثير من المضايقات والعذاب تمكنوا من الوصول إلى هدفهم فاشتركوا في المقاومة وقيادة الجيش التركي هناك، واستعانوا بزعماء القبائل العربية في حربهم مع الإيطاليين الذين لم يستطيعوا التقدم إلى داخل البلاد فأخذوا مواقعهم على طول خط الساحل دون أن يتمكن الجيش التركي والزعماء العرب وعلى رأسهم، السنوسي، من إخراجهم من تحصيناتهم، حيث بقي الوضع على حاله طيلة السنة، إلى أن أعلنت دولة الجبل الأسود الحرب على تركيا، وتبعتها بلغاريا واليونان والصرب تشرين الأول ١٩١٢م وهي المرة الأولى التي اتفقت فيها هذه البلدان البلقانية المسيحية على محاربة تركيا الإسلامية، فما كان من هذه الأخيرة إلاّ الإسراع بوضع حدّ للقتال مع إيطاليا فعقدت الدولتان معاهدة الصلح في لوزان وذلك في الثامن عشر من تشرين الأول ١٩١٢ وبمقتضاها

تخلّت تركيا لإيطاليا عن ولاية طرابلس الغرب على أساس منحها استقلالاً إدارياً وفق اختيار أهلها، والعفو عن أميرها وأعوانه وعن أهالي الجزر المحتلّة التي تخليها إيطاليا بموجب هذه المعاهدة.

مصر والسودان٭

كانت مصر خاصة من البلدان التي اشـتد حولها التنـافس والمطـامع نظـراً لموقعها الجغرافي الممتاز المتصل بتجارة الشرق ومواصلاته وسياسته.

وعندما رأت بريطانيا أن نابليون يسبقها ويسارع الى غـزو مصـر في عـام ١٧٩٨ ثارت ثائرتها ومخاوفها سواء من اسـتقرار فرنسـا في مصـر وتمكنهـا مـن الشرق العربي الذي تعد مصر أكـبر أقطـاره أو مـن محـاولات نـابليون وخططـه البعيدة ضد مواصلاتها وامبراطوريتها الهندية، فأرسلت اسطولها يتعقب اسـطول الحملة حتى حطمه في ابو قير قرب الاسكندرية، ثم تحالفت مع الدولة العثمانيـة على نابوليون وحاربته معها في فلسطين حتـى ارتـد خائبـاً الى مصـر، ثـم انزلـت جيوشها الى مصر بسبيل محاربة حملته وإجلائها عن مصر بالاشتراك مـع الجيـوش العثمانية التي جاءت الى مصر كذلك من البر والبحر، وظلت الدولتان تضيقـان الخناق على الحملة حتى تم لهما إجلاؤها عن مصـر. ولقـد حـاولت بريطانيـة أن تستسنح الفرصة وتمكن قدمها في مصر في هذا الوقت تحقيقاً لمطامعها في الشـرق العربي وضماناً لطرق مواصلاتها وتجارتها وتفادياً مـن احـداث مماثلـة لاحـداث الحملة الافرنسية حتى لقد اضافت شرطاً ملحقاً بمعاهدة التحـالف الـتي عقدتهـا مع الدولة العثمانية ضد الحملـة ينـص علـى أن الجيـش الانكلـيزي لا يجلـو عـن مصر الا بعد استتباب الامن في ربوعها»، واخذت تحرك فلول الامـراء المـماليك وتصطنعهم بل وتتآمر معهم بسبيل التدرع للبقاء، غـير أن نـابوليون الـذي غـدا صاحب الشأن الأكبر في فرنسا وأوروبا جعل من شـروط معـاهدة الصلـح الـتي

عقدها مع بريطانية عام ١٨٠٢ جلاء قواتها عن مصر، وظل يلاحق تنفيذ هذا الشرط ملاحقة شديدة حينما رآها تتلكأ وتماطل فلم يسعها في النهاية إلا التنفيذ فجلت عن مصر عام ١٨٠٣ على مضض بعد ان وثقت صلاتها مع الأمراء المماليك ليكونوا عدة لها في المستقبل وقد استصحب قائد الحملة محمد الالفي كبير هؤلاء الأمراء على امل التفاهم على الخطط بسبيل الكرة على مصر مرة اخرى.

وفي سنة ١٨٠٤ تقلد محمد علي الكبير ولاية مصر بالتضامن مع زعماء الشعب الذين رأوا من دهائه وحسن إدارته ما جعلهم يقفون في جانبه، وأخذ يضيق الخناق على الأمراء المماليك ويوطد أقدامه في مصر، فسارع الانكليز لتلافي خطره فاعادوا الألفي إلى مصر من جهة وضغطوا على الدولة العثمانية وجعلوها تصدر أمراً بعزل محمد علي وإعادة الحكم ثانية الى المماليك بزعامة الألفي من جهة اخرى على أمل أن يكون لهم في عهدهم الفرصة المنشودة للسيطرة على مصر. غير أن محمد علي أبدى حزماً ودهاء وتضامن معه زعماء الشعب فتمكن من إحباط المكيدة وثبت أقدامه في الولاية واستطاع أن يوجه الضربات العديدة الى المماليك ويضحد شوكتهم.

وقد ازداد بذلك حنق الانكليز على محمد علي وتوجسهم على خططهم منه فأخذوا يتربصون به ولم يطل الأمر لخلق الفرصة المنشودة، فقد تحسنت الصلات بين الدولة العثمانية وفرنسة بعد قليل وأخذت فرنسة تستغل الموقف الجديد للكيد لانكلترا ومصالحها: فغضب الانكليز وجاهروا الدولة العثمانية بالعداء وتحالفوا ضدها مع روسية ثم سارعوا إلى إرسال أسطولهم إلى المياه المصرية واحتلوا الاسكندرية ورشيد وكان ذلك عام ١٨٠٧، وكانوا يعولون تعويلاً كبيراً على الالفي ورفاقه. غير ان الحظ خانهم حيث مات الالفي قبل

وصـول حملتهـم ببضعـة أسابيع كما مـات أحـد كـبراء المماليك الـذي كـانوا يعتمودن عليه أيضاً وهو عثمان البرديسي قبله بأسـابيع قليلـة، واسـتطاع محمـد علي أن يشـل بدهائـه وحزمـه قـوى بقيـة الامـراء المماليك وان يواجـه القـوى الانكليزية بالتضامن مع الزعماء والقوى الوطنية المصريـة وأن يهزمهـا في رشـيد والاسكندرية وأن يكبدها الخسائر الفادحة وأن يستولي على مقـادير كـبيرة مـن معداتهـا وسـلاحها. فلـم يـر قوادهـا بـداً مـن مفاوضتـه علـى الجـلاء وانتهـت المفاوضات إلى ذلك على أن يعاد اليهم اسراهم وجرحاهم وتم التنفيذ في أواخـر عـام ١٨٠٧ بعـد سـتة أشـهر مـن الاحتـلال. وهكـذا بـاءت المحاولـة الثانيـة بالاخفاق. على أن الانكليز ظلوا يتربصون بمحمد علي ويـترقبون الفـرص للثـأر منه، واشتد حنقهم عليه وتخوفهم منه خاصة بعد أن رأوا سـلطانه يشـتد ويتسـع وقدمه ترسخ، وجيشه وأسطوله يقويان، وحروبه في السودان وفي جزيرة العرب تكلـل بالنجـاح مما يحمـل في طياتـه حيويـة عظيمـة ومطـامح بعيـدة تقـف دون مطامعهم وتعرقل أغراضهم ومآربهم، وبنوع أحص بعـد أن رأوا فرنسـا توطـد صلاتها به، وتعقد معه أواصر الصداقة وتعاونه في خططه ورغباته وتمده بالخـبراء العسـكريين وغـير العسـكريين وتفتـح أبـواب معاهدهـا لبعثاتـه، وبالتـالي تهـيء لنفسها في مصر المركز الممتاز الذي تطمح اليه سلمياً بعد أن أخفقت في إحرازه حربياً.

وفي سنة ١٨٣١ نشب الخلاف بين محمد علي والدولـة العثمانيـة كـانت من نتيجته أن سير محمد علي جيوشه بقيادة ابنه ابراهيم فاستولى على بلاد الشام وهزم الجيوش العثمانية واحداً بعد آخر، وأخذ يتوغل في الأناضول حتـى وصـل إلى كوتاهيه وكاد يدق أبواب الأستانة، وبدا مـن خـلال هـذه الحركـة الخطـيرة إحتمال قيـام دولـة عربيـة إسـلامية كـبرى علـى أنقـاض الدولـة العثمانيـة الـتي

أنهكتها الشيخوخة والغفلة والضعف، وسارعت الدولة المذكورة إلى الارتماء في أحضان روسية بسبيل حمايتها مما يهددها من الانهيار بسبب هـذه الحركـة. وقـد اهتمت بريطانية للأمر وقلق بالها. فنجاح حركة محمـد علـي قـد يشـوش عليهـا سياستها ويعرقل خططها الـتي يمكـن تحقيقهـا بيسـر اكـثر في حالـة بقـاء الدولـة العثمانية، كما انه يكون بمثابة إندحارها أمام منافستها فرنسا الـتي كـان ضلعهـا بارزاً فيها، فضلا عما كان من خطر روسية من جراء ارتماء الدولـة العثمانيـة في أحضانهـا فنشـطت لتلاقـي خطـر هـذا الكـابوس الجديـد الـذي يجـر معـه هـذه المضاعفات، وعادت إلى الوقوف ثانية إلى جانب الدولـة العثمانيـة لتحـول دون مطامع محمد علي وغيره من الدول التي كانت تتعجل إنحلال هذه الدولة ووضع اليد على تركتها وتتهدد بذلك مصالحها القريبة والبعيـدة وطـرق مواصلاتهـا في سواحل البلاد العربية ومعابر البلاد العربية، وكان من جراء ذلك تلـك الحركـة الدولية الـتي وقفـت في وجـه محمـد علـي بحجـة المحافظـة علـى اسـتقلال الدولـة العثمانية وتمام ملكهـا والـتي اضطرتـه إلى سـحب جيوشـه والـتراجع إلى مصـر، وهكذا حالت إنكلترة دون قيام دولة عربية كبرى ربمـا كـان لهـا شـأن كـبير في تاريخ العرب الحديث. وكان ذلك أولى الضربات الشـديدة الـتي وجهتهـا هـذه الدولة إلى العرب في تاريخهم المذكور.



الخديوي توفيق ابن الخديوي اسماعيل

قصة قناة السويس

ومع أن فرنسا قد اندمجت في حركة التأليب الانكليزية ضد محمد علي ولم تستطع أن تنصر صديقها وكان ذلك من أسباب خذلان حركته وإخفاقها فقد استطاعت أن تحتفظ بمركز الصديق المعين عند محمد علي وأبنائه بسبب الموقف العدائي الذي وقفته إنكلترة، وكان من نتائج ذلك ان نال دي ليسبس امتياز حفر قناة السويس، فأثار هذا مخاوف إنكلترة إثارة كبيرة لما ينطوي عليه من الأخطار الحربية وغير الحربية على مصالحها وطرق مواصلاتها، فحاولت إحباط المشروع بمختلف الوسائل فلم تستطع، وفكرت في مشاريع عديدة في بلاد العرب لتلافي الخطر مثل مد خط حديدي بين خليج البصرة واسكندرونة وحفر قناة من خليج العقبة الى البحر الأبيض بطريق فلسطين فلم تساعدها الظروف، وتم حفر القناة عام ١٨٦٩ فاشتد همها لأنها رأت طريق مواصلاتها وعصب حياتها مهدداً من قبل منافستها ولم يهدأ بالها من ناحية المشروع إلا حينما اشترت في غفلة من فرنسا وبعد ست سنين أي عام ١٨٧٥ من الخديوي إسماعيل الأسهم التي اخذها مرأسهمشركة قناة السويس البالغة (١٧٧٠٠٠) سهم فغدت بذلك قسيمة فرنسا في الشركة ثم سعت فحصلت على مقدار آخر من الأسهم بحيث أصبحت صاحبة كلمة نافذة في ادارة شركة القناة. على أن هذا لم يكن في نظرها كافياً لزوال هواجسها فظلت تترقب الفرص للسيطرة على مصر فعلاً حتى تطمئن طمأنينة كاملة. وقد واتتها هذه الفرصة بعد سبع سنين اخرى. فقد أخذت هي وفرنسه تتدخلان في شؤون مصر الداخلية بسبب

القروض التي استقرضها الخديوي اسماعيل من الانكليز والافرنسيين وأنفقها على رحلاته ومآربه وقصوره فحاول منعهما فسعتا مع السلطان العثماني وتمكنا من خلعه وتنصيب ابنه توفيق مكانه. وقامت حركة وطنية تطالب بالاصلاح وتقوية الجيش والحياة النيابية ومنع تدخل فرنسة وانكلترة وتطورت الى حركة عسكرية وطنية بقيادة البطل المصري عرابي باشا. وخشي الانكليز أن تنجح هذه الحركة فينسد امامهم الباب فحركوا بعض أذنابهم في الاسكندرية فأثاروا فيها فتنة دموية فاتخذوا ذلك وسيلة الى احتلال الاسكندرية سنة ١٨٨٢ بحجة حماية مصالحهم وحماية دماء ومصالح الأجانب وحماية العرش المصري معاً. وحاول عرابي باشا بالتضامن مع المصريين الوقوف في وجههم ولكنهم أخفقوا وكان من أسباب اخفاقهم محاصرة الخدويي توفيق مع الانكليز والتجائه اليهم بعد احتلالهم الاسكندرية، ونتج عن ذلك قمع الحركة الوطنية واحتلال القاهرة ورضوخ الخديوي وحكومته لأوامرهم ونفوذهم. وقد عرض الانكليز على فرنسة الاشتراك معهم في الاحتلال فتبادلت فكان ذلك من تمام فرصتهم المشؤومة

واحتلالهم مصر من قبل الانكليز كان الضربة الشديدة الثاية التي ضربوا بها العرب في تاريخهم الحديث، لأن مصر أقوى وأغنى بلاد العرب، وقد كانت دخلت في نطاق الاستقلال الذي كان يمكن ان يصل الى نهاية محمودة تكون تتمة للعهد العربي الاسلامي الجديد الذي بدأ بمحمد علي، وان يتسع ذلك النطاق حتى يشمل بلاد الشام وغيرها من بلاد العرب كما كان شأن مصر في ادوار تاريخية عديدة بعد الاسلام.

ولم يكتف الانكليز باحتلال مصر. فقد قامت في هذه الأثناء في السودان ثورة عربية اسلامية بقيادة محمد عبد الله المهدي تهدف الى تخليص السوادن من فساد حكام الأتراك الذين كانت ترسلهم حكومة مصر التركية وتجديد حياة الاسلام واصلاح الحكم فيه. وقد استطاع المهدي ان يبسط سلطانه على جميع السودان وينشيء دولة عربية اسلامية واخذ ينشط لنشر دعوته في مصر والبلاد الاسلامية الاخرى. فخشي الانكليز من نتائج هذه الحركة وتطورها ووقوفها في وجه مطامعهم فأقنعوا الخديوي بضرورة مشاركتهم في اخمادها على شرط ان يكون لهم شركة في ادارة السودان. ثم اخذوا يسيرون الحملات المشتركة التي تمكنت في النهاية من قمع الحركة واحتلال السودان، وحينئذ أملوا على الخديوي معاهدة اعترف فيها بأن يكون حاكم السودان انكليزياً وبأن يكون للانكليز شركة في ادارته ومرافقه ثم تذرعوا بقوتهم حتى كادوا ان ينفردوا في حكم السودان واستثمار مرافقه. وهكذا حالوا دون هذه الحركة الاسلامية الجديدة التي كان من المحتمل ان تقوى وتتطور وتتجدد بها حياة وادي النيل كما حالوا دون حركة محمد علي.

ولقد سار الانكليز في مصر والسودان على نهج استعماري خبيث شل قواها ونشاطها، وضيق في وجهها ابواب الأمل والحياة والطموح، وكان من نتائجه التي لا تزال آثارها قائمة إلى الآن أن انشغلت بنفسها وانحصرت في نطاق ضيق من الاقليمية و, لم تتأثر بما جرى من تيارات قومية عامة وعربية مع شدة صفاء روحها وعناصرها العربية وشمولها، و بقي السواد الأعظم من أهلها في لجج الامية والفقر والامراض المحلية الوبيئة، و تأرث العداء والأحقاد بين طبقاتها و, امتلأ الأقباط والطوائف المسيحية الاخرى والجوالي الأجنبية

بالخوف من المسلمين الذي جعلهم يرون في الانكليز الحماة المنقذين ويتمسكون بهم، و. اكتظت دوائر الحكومة بالمستشارين والخبراء والموظفين الانكليز الذين كانوا أصحاب الامر والنهي في كـل شـأن، و. انحصـرت المنـاصب والوظـائف بالمستسلمين المائعين والغرباء الطفيليين الذين يكونـون آلات صمـاء في ايديهـم، و. ضعفت قوة مصر الحربية كمية وكيفية الى ان كادت تكون في حكم العدم، و. كان منهج التعليم ضيق النطاق جداً ليس من شأنه الا تخريج طبقة الموظفـين والمستخدمين الآليين الذين فقدوا الروح والحيوية.

ولقد انتبهت فرنسا إلى غفلتها وحماقتها اللتـين تكررتـا اكـثر مـن مـرة في حقبة قصيرة وكانتا سبباً لتغلب السياسة الانكليزية عليها في هذه الساحة؛ حيث اخذت تستنجز الانكليز وعودهم الـتي اعلنوهـا بـالجلاء عـن مصـر حالمـا يعـود الأمن والطمأنينة الى نصابها وتحرض الاستانة ومصر على ذلك، غير ان الانكليز لم يبالوا وظلوا يكررون الوعـود ويستمهلون الوفـاء بهـا؛ ثـم رأوا ان يسـكتوا فرنسا فعقـدوا معهـا عـام ١٩٠٤ اتفاقاً اطلقـوا فيـه يدهـم في مراكـش مقـابل سكوتها عنهم واطلاق يدهم في مصر، فكانت هذه المؤامرة كاشفة لحقيقـة نوايـا الافرنسـيين وزيـف صداقتهـم لمصـر، ومظهـراً مـن مظـاهر الكيـد الاسـتعماري الانكليزي الافرنسي ضد بلاد العرب واستغلالها ويقظتها، كما كانت عاملا من عوامل استقرار الاحتلال الانكليزي، حيث كانت فرنسا اقوى منافس لبريطانيـا في هذه الساحة والدولة التي يمكن ان يحسب الانكليز لها بعض الحساب فيها.

ولقد ظل منهج الانكليز الفظيع المذكور آنفاً نافذاً في مصر والسودان نحو خمسين عاماً بالرغم مما كان من تململ ومحاولات وطنيـة واصلاحيـة. ولم يـتزلزل نوعاً ما الا بعد الحرب العالمية الاولى. وكان من اثر ذلك اليقظة الوطنية المصريـة

الجديدة. على ان الانكليز لم يألوا جهداً في اضعاف اثر هذه اليقظة بما كانوا يعدون اليه من الدسائس والمراوغات والمماطلة وتشجيع الفتن والفساد والاحقاد.

ولقد قبلوا في النهاية بعقد معاهدة اعترفوا بها باستقلال مصر وسيادتها على شرط بقاء جنودهم محتلة للقناة وبقاء مصر مرتبّطة بعجلتهم ومنحهم مرافقها المتنوعة في زمن الحرب. ولقد انفسح الهم المجال في ظل هذه المعاهدة أيضاً للتدخل في شؤون مصر وبث الدسائس المتنوعة كما سنرى لاحقاً.

الجزيرة العربية

وأما في آسية، فقد كانت البلاد العربية الخاضعة للسلطان سنة ١٩١٤ هي نفسها التي أشرنا اليها حين عرضنا لذكر السنوات الالى من حكم عبد الحميد. وقد استمر انتشار النفوذ البريطاني، وأدى ذلك إلى عقد عدة معاهدات بين حكومة الهند وبعض الامراء العرب الحاكمين في البلاد الواقعة على الشواطىء الجنوبية والشرقية من شبه الجزيرة العربية.

وأما المنطقة المجاورة لعدن ـ وتتألف من تسع حكومات صغيرة تعرف باسم محميات عدن ـ فقد خضعت لنفوذ بريطانية وحمايتها، وجددت المعاهدة مع مسقط ومع البحرين، وعقدت معاهدات أخرى (وأهمها التي عقدت مع الكويت سنة ١٨٩٩) وتضمنت الاعتراف لحكومة الهند بالحماية الفعلية، وسلبت سيادة السلطان في الواقع العملي. وأرسل إلى الشيوخ العرب ضباط ممن يعملون في الوظائف السياسية في الهند، ليعملوا مع هؤلاء الشيوخ، وعُين «معتمد بريطاني» للإشراف على أعمال هؤلاء المبعوثين، واتخذ مقره في «بوشير» الواقعة على ساحل إيران. وأصبح الخليج في الحقيقة «حكراً» بريطانيّاً إذ أن حرية المرور فيه أصبحت أمراً حيويّاً بعد أن عهد إلى شركة بريطانية باستغلال آبار النفط الثرة الواقعة في الجنوب الغربي من بلاد ايران.

أما في داخل شبه الجزيرة فقد ازداد النفوذ التركي بوجه عام. ففي المناطق المتاخمة للخليج العربي حفلت السنوات الثلاثون الاخيرة بصور من الكر والفر

بين الاسرتين الحاكمتين: آل الرشيد وآل سعود، حين أخرج السعوديون من نجد، ثم استولّوا عليها مرة أخرى في مطامع القرن الحالي بقيادة رجل شجاع من السلالة السعودية هو عبد العزيز آل سعود.

وحدث في احدى مراحل هذا الصراع أن الحاكم من آل الرشيد آنئذ قد رمى نفسه في أحضان تركية وطلب عونها، فأرسل الاتراك حملة عسكرية لنجدته، وبذلك رفرفت رايتهم في وسط شبه الجزيرة لأول مرة بعد هجوم ابراهيم باشا. ثم نمت قوة عبد العزيز، واستطاع بإحدى هجماته الجريئة سنة ١٩١٣ أن ينهي احتلال تركية لمنطقة الاحساء البحرية، وكانت ضربة نالت من هيبة السلطان في تلك المنطقة، غير أن الأتراك عوضوا ذلك بعض التعويض. وذلك بتقوية صلاتهم مع آل الرشيد في منطقة شمر.

أما في منطقة البحر الأحمر، فقد ساء موقف عبد الحميد جداً في اليمن، خاصة وأن اليمن تعتبر من أعرق المناطق الحضارية. فقد سبق لها أن شهدت في الفترة من ١٥٠٠ ق م نشوء أشهر الممالك اليمنية القديمة كمملكة معين التي قامت في منطقة الجوف، ومملكة حضرموت التي شملت مساحة تمتد من بئر علي غرباً إلى ظفار شرقاً، وكانت عاصمتها شبوة. ومملكة قشبان التي نشأت في وادي بيجان، ومملكة أوسان في وادي وقة.

إضافة إلى مملكة سبأ التي قامت في منطقة مراوح ثم امتدت إلى وادي ذنه حيث أقامت فيه سد مأرب. وجعلت من مأرب عاصمة لها قبل استيلائها على أراضي الممالك الأخرى.

أما دولة حمير فقد كانت ظفار عاصمة لها، وبلغت اليمن أثناء تلك الحقبة

من التاريخ مرحلة مزدهرة، حيث أنشئت فيها قنوات الري والقصور الفارهة. والمعابد. وأقيمت السدود كسد مأرب الذي كان منشأة مركزية لمنظومة الري في جنوب شبه الجزيرة العربية.

وكان العامل الإقتصادي في تلك الحقبة مبعث جملة من التطورات الإجتماعية والسياسية والثقافية. وكانت الأرض هي المصدر الأساسي للإنتاج. وبسبب ذلك العامل الإقتصادي نشأت العديد من الصراعات والحروب. سواء بين اليمنيين أنفسهم. أو بينهم وبين القوات الغازية في أحيان أخرى. مما أدى بدوره إلى تدهور الحياة الإقتصادية التي كانت مزدهرة.

وفي مطلع القرن الأول قبل الميلاد تحولت اليمن إلى واحدة من ساحات الصراع بين الروم والفرس.

ففي عام ٢٤ قبل الميلاد أرسل الرومان حملتهم الشهيرة بقيادة حاكم مصر آنذاك «اليوس جالوس» فتصدرت لهم مقاومات شعبية أجبرتهم على التراجع.

وبعد ذلك جاء الغزو الحبشي وكان حليفاً للروم آنذاك واستمر تواجده في اليمن من ٥٢٥م إلى ٥٧٥م. حيث عانت البلاد أثناء ذلك من أبشع الجرائم. وكان ذلك تحت شعار الدعوة للمسيحية والقضاء على الديانات الوثنية واليهودية. وكانت تلك الديانات قد تسربت للبلاد أصلاً عن طريق يثرب في الحجاز حيث كان أصحابها يمارسون أعمالاً تجارية وبعضها الآخر جاء أصحابها هرباً من الإضطهاد الروماني لها.

وعندما طرد الأحباش من اليمن خلفهم الفرس بالسيطرة عليها.

مما أدى إلى مزيد من التدهور. فتعطلت قوى الإنتاج بسبب تخريب الكثير من الأراضي الخصبة. وخسرت اليمن مركزها التجاري الذي كانت تتمتع به. وحل البؤس والشقاء والفقر الشديد. وعانى الشعب أنواعاً من الإضطهاد والإستغلال من قبل مالكي الأرض من جهة.

وحكام الفرس من جهة أخرى. وكان الجزء الأكبر من فائض الإنتاج يذهب إلى جيوب الإقطاع أو خزائن الأمبراطورية الفارسية.

وعندما أنبثقت الدعوة الإسلامية سارع أهل اليمن إلى اعتناقه بكل فئاتهم. الغنية منها والفقيرة وذلك بهدف تغيير الوضع الإجتماعي لكل منها. فالفقراء مثلاً اعتنقوه بسبب العدالة التي يدعوا إليها والمساواة بين الغني والفقير.

أما الاقطاعيون، فقد اعتنقوه لأنهم وجدوا فيه وسيلة للخلاص من الاستعمار الفارسي، الذي كان ينازعهم السلطة الإقتصادية و السياسية. وهذا ما يبرر المبادرة الطوعية في اعتناق الدين الإسلامي في اليمن.

إضافة إلى أن اليمنيين لم يفاجأوا بالدعوة الإسلامية الجديدة، فقد عرفوا سابقاً الديانات اليهودية والمسيحية. ووجدوا في الإسلام أفكاراً ناضجة ومتممة لجذور المفاهيم الدينية المعروفة لديهم.

ولكن وعند وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبداية الصراع حول أحقية الخلافة، شهدت اليمن العديد من حركات التمرد ضد الخلافة الإسلامية وكانت أسبابها العودة إلى الروح الجاهلية حيث ابتدأ الأسود العنسي

بالتمرد وتبعه عمر بمن معدي يكرب الزبيدي، ثم الأشعث بن قيس الكندي. ثم كانت حركة عبد الله بن يحيى الكندي، الذي لقب نفسه باسم «طالب حق».

ومن البديهي أن تندثر تلك الحركات ويقتل مدبروها.

وقد كان أهل اليمن منزعجين من وجود «باذان الفارسي» حاكماً عليهم، ويرون بذلك تجاهلاً لشعورهم الوطني ونزعتهم الجاهلية إلى الاستقلالية التي كانت شعارهم منذ القدم.

إضافة إلى أن استحواذ القريشيين على السلطة السياسية والإقتصادية كان يزيد من استيائهم، خاصة وأن الكثيرين من أبطال المعارك الإسلامية كانوا من اليمن. وكذلك كانوا يستاؤون من الضرائب التي كانت تجبى منهم إلى بيت المال في عاصمة الخلافة.

وكان بالطبع وراء كل ذلك بعض المحرضين من القادة المحليين الراغبين في الإستقلال والزعامة مما يؤكد أن دخولهم الإسلام كان بالأصل من أجل مصالحهم.

ومهما كانت طبيعة الحياة والدوافع وراء تلك الحركات، فإن حياة اليمن في صدر الإسلام اتسمت بالإزدهار والتقارب والإلفة.

حيث انصهرت العديد من القبائل في إطار المجتمع الإسلامي، وبقيت هكذا حتى بدأ التفكك في دولة الخلافة حيث انعكس ذلك بدوره على اليمن وأدى إلى قيام إمارات. وظهور حركات سياسية وصراعات داخلية مما جعل اليمن وليمة سهلة بنظر الدول الأخرى فبدأت تتعرض للغزوات المتتالية تمكن

الأتراك على أثرها من احتلال المنطقة الساحلية عام ١٥٣٨م فتصدى لهم الشعب وأجبرهم على الإنسحاب عام ١٦٣٥. إلا أنهم عادوا ثانية واحتلوا الحديدة عامة ١٨٤٩ في الوقت الذي كان الإنكليز قد سبقوهم لإحتلال عدن عام ١٨٣٩.

ومع ذلك فإن رجال «تركية الفتاة» استطاعوا أن يتسلموا زمام الموقف ويستردوا من المكانة أكثر مما ضاع. لقد استطاعت الحملة التي زحفت على اليمن سنة ١٨٧٢ أن تحتل صنعاء، ولكنها لم تخضع المناطق الداخلية التي بقيت مصدراً للاضطرابات والثورات. وفي سنة ١٨٩١ نشبت ثورة خطيرة اقتضت ارسال قوة كبيرة لاخضاعها، ثم نشبت ثورة أخرى سنة ١٩٠٣ أثارها وقادها الامام يحيى، وكانت هذه الثورة بداية سلسلة من الهزائم والنكبات العسكرية في تاريخ الاتراك في شبه الجزيرة العربية.

وقد احتل الثوار صنعاء، وبقيت في حوزتهم أكثر من سنة. واحتلوها مرة أخرى في سنة ١٩١١، حتى أنهكت الثورات الاتراك واستنزفت قوتهم وأدركوا أن الامر لا نهاية له، فلانوا، ومالوا إلى الاتفاق. وفي أول فرصة طرأت، تولى عزيز علي المصري المفاوضات ووصل إلى اتفاق رحب به القائد التركي العام وأقره، وانتهى الامر إلى عودة السلم وإلى منح الامام يحي سلطات جوهرية مهمة، وتقديم منحة مالية كبيرة تساعد على ممارسة هذه السلطات. وكان ذلك بداية لقيام المملكة المتوكلية اليمنية كما سنرى لاحقاً.

هذا وكانت تجاور اليمن من الشمال منطقة عسير، وقد بدأ يصعد في سمائها نجم جديد هو السيد محمد بن علي الذي اشتهر بالإدريسي.

وهو من أسرة لم تستوطن شبه الجزيرة إلا من عهد قريب، وبدأت قوته بالظهور عند مطلع هذا القرن، وكان اجداده من العرب المغاربة الذين جاءوا إلى مكة للحج في أواخر القرن الثامن عشر، ثم استقروا في مرتفعات عسير.

وأقدم من هاجر منهم أحمد الادريسي، وكان ذا ورع وعلم فذاعت شهرته بالتقوى، ولما توفي ورث سلالته من بعده جميع الحقوق والمغانم التي تؤول عادة، في المجتمع الاسلامي، الى أفراد الاسرة التي تعتبر أسرة شريفة. واتخذ الادراسة عسير موطناً لهم، وتكاثر عددهم، وعاشوا قالعين بما هم فيه من رخاء قلمّا يتناسب مع الورع والتقى. الى ان قام من بينهم رجل يمتاز بالمقدرة والطموح فبدأ يسعى ليدعم مكانة الاسرة بتحويلها الى اسرة حاكمة متحررة من السيادة التركية، انه الزعيم الادريسي السيد محمد. ولم يكن أفقه محدوداً بشبه الجزيرة العربية، فقد عاش في القاهرة طالباً في الجامعة الازهرية، وأقام مع زعيم السنوسيين في برقة، وحين عاد الى موطنه اقام حكماً اداريّاً في جبال عسير من وضعه وتنظيمه. وفي سنة ١٩٠٩، حين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، ثار على الاتراك، وسارع الى نجدة الامام يحيي في ثورته، ولكنه هزم، ثم أعانته ايطالية على الوقوف مرة أخرى، غير ان ذلك لم ينفعه؛ فانتهى به الامر الى الاقتصار على ان يعود كما بدأ سيداً لتلك المنطقة الجبلية لا يتجاوزها. وكان في سنة ١٩١٤ لا يزال تابعاً للسلطان بالاسم، ولكنه كان في الواقع ثائراً لا يسكن، فأخذ يجمع جيشه ليحاول مرة اخرى خوض المعركة مع الاتراك.

أما في الحجاز فكانت سلطة السلطان ارسخ منها في اي مكان آخر في شبه الجزيرة العربية، وأكبر الفضل في ذلك يعود لامتداد سكة الحجاز الحديدية الى المدينة، وكان من المحتمل أن تكون هذه السلطة مطلقة لولا الشريف الجديد.

فقد أظهر الحسين من قوة العزم أكثر مما كان يتوقعه منه الاتحاديون حين اختاروه لهذا المنصب الرفيع باعتباره «ارستوقراطيّاً» رقيقاً مسالماً. فحين وصل الحجاز سنة ١٩٠٨ وجد أن أسلافه قد فرطوا في كثير من حقوق هذا المنصب، فبدأ يستردها.

ونجح خاصة في استرداد سيادة الشريف على قبائل الحجاز، ثم اتجه شرقاً الى ما وراء حدود الحجاز وحاول أن يفرض سيادته على القبائل التي كان يرى ابن سعود ان ولاءها له حق من حقوقه.

وحينما أعلن الاتحاديون أن نظام الادارة في الحجاز سيكون منذ ذلك الحين متمشياً مع نظام سائر الدولة، على أساس الحكم المركزي، وان التجنيد الاجباري سيفرض فيها، اعترض الحسين على ذلك، وقدم لاعتراضه سبباً مقنعاً وهو ان الامر غير عملي ولا يمكن تطبيقه. فصمم الاتحاديون على عزله، ولكنه كان أحصن وامنع من ان يخاطروا بعزله عزلاً سريعاً، وأرادوا ان يمهدوا الطريق لعقاب الشريف فأرسلوا والياً على الحجاز معروفاً بالغلظة والفظاظة وسرعة الغضب. فقاومه الحسين وتشبث في مقاومته له بالعناد والدهاء حتى انتصر. وبلغت الأمور نهايتها في ربيع سنة ١٩١٤ بعد ان كادت احدى المشادات الطويلة بينهما تنتهي بالثورة، فصدرت الاوامر الى الوالي أن يصالح الشريف وان يتم الصلح في احتفال عام فيقبّل الوالي ذيل رداء الحسين دلالة على خضوعه لقداسة منصبه.

وفي تلك الأثناء كانت الامبراطورية العثمانية عموماً تتعرض للضغوطات والحروب مع جيرانها بشكل دائم.

ولكن أهم الحروب التي تعرضت لها في تلك الفترة هي حرب البلقان الأولى والثانية.

حرب البلقان الأولى

فيما كانت الحرب تدور بين إيطاليا وتركيا في طرابلس الغرب، بقيت الحال في البلقان تزداد سوءاً بسبب الخلاف الحاصل بين بلغاريا والصرب، نتيجة لمعاهدة سان استفانو التي تعمّدت فيها الدول العظمى، بالإتفاق مع ألمانيا، اضعاف نفوذ الروسيا في البلقان، وإيقافه عند حدّه، مما القى الشقاق يومذاك بين الأمم البلقانية، وبخاصة المواطنين البلغاريين والصربيين المقيمين في مقدونية، لعدم تحقيق أماليهم وآمالهم التي كانوا يطالبون بها، فقامت الجمعيات الثورية في مقدونية بالعمل على إصدار بعض المناشير للفت أنظار العالم المتمدن إلى ما صدر عن الأتراك من ظلم تجاه غير المسلمين أواخر شهر تشرين الثاني ١٩١١م؛ لا سيما بعد قرار الباب العالي بوجوب تنفيذ المشروع الرامي إلى دفع حركة استيطان إسلامية جديدة في مقدونية، مما يخالف أحكام المادة ٢٣ من معاهدة برلين التي تصون حقوق الشعوب المسيحية. وعلى إثر ذلك اضطرت حكومتا بلغاريا وصربيا إلى إبرام معاهدة سرية ضد تركيا ١٣ آذار ١٩١٢م يعمل بها إلى آخر العام ١٩٢٠م. وقد جاء فيها: «أن كلاً منهما يعطى بعض الممتلكات المعيّنة في هذه المعاهدة، بحيث يكون لهما اللجوء إلى تحكيم القيصر في حلّ أي خلاف يقع بينهما في هذا الشأن» وبالإضافة إلى ذلك فقد تكفّلت الدولتان بإعلان الحرب على رومانيا في حال مؤازرتها لتركيا.

وفي ٢٠ أيار ١٩١٢م إنضمت اليونان إلى المعاهدة السرية المذكورة ووقعتها؛ فما كان من الدول العظمى عند ذاك إلاّ اتخاذ موقف موحّد، لتلافي

وقوع حرب، وذلك بالإعلان (أنها سوف تتولى الإصلاح المنشود، بمقتضى المادة ٢٣ من معاهدة برلين المشار إليها). وتبعاً لذلك أرسلت مذكرة إلى الباب العالي بهذا الشأن، وقّعتها كل من دول الاتفاق الثلاثي: إنكلترا وفرنسا والروسيا، بالإضافة إلى المانيا والنمسا ٢٨ أيلول ١٩١٢م.

وبعد تعهّد الباب العالي بتطبيق قانون ١٨٨٠م المنبثق عن المادة ٢٣ من معاهدة برلين، عاد وتراجع عن تعهّده تحت تأثير تظاهرات الأتراك ومعارضتهم للإصلاح، بحيث أدى ذلك إلى فشل وساطة الدول العظمى في هذا المجال، وعند ذاك أقدمت حكومة الجبل الأسود على إعلان الحرب من جهتها على تركيا ٨تشرين الأول ١٩١٢م، وسارت على منوالها حكومات بلغاريا واليونان والصرب في ١٨ تشرين الأول ١٩١٢م. وهذا ما دعا دول الأتفاق الثلاثي لإبلاغ الطرفين مذكرة جاء فيها: «إذا قامت الحرب خلافاً لمشيئتها بين تركيا والدول البلقانية، فإنها أي دول الإتفاق لا تسمح بأي تغيير في خريطة أوروبا».

وعندما أعلنت تركيا الحرب على دول البلقان المذكورة، وجّه السلطان محمد الخامس إعلاناً إلى الجيش التركي طلب منه فيه الدفاع عن شرف وحقوق الأمة.

ويمكن استخلاص المعارك الحربية التي جرت بين المتحاربين على الوجه التالي:

- في ٢٠ تشرين الأول ١٩١٢م استولى الصربيون على بريستينا ــ Pristina.

ـ في ٢٢ تشرين الأول ربح الصربيون المعركة في: كومانوفو ـ Komanovo، وأخلى الأتراك كيركيلسّا ـ Kirkilesse مندحرين.

ـ في ٢٦ تشرين الأول استولى الصربيون على أسكوب ـ Usckub.

ـ في ٢٨ تشرين الأول انتصر البلغاريون في معركة: لول ـ بورغاس ـ Lul-Bourgas.

ـ في ٥ تشرين الثاني فاز اليوناليون في معركة بنتيبغاديا ـ Pentepigadia.

ـ في ٨ تشرين الثاني دخل اليونانيون مدينة سالونيك بعد استسلامها.

ـ في ١٣ ـ ١٦ تشرين الثاني خسر الأتراك معركة مُنسَتير أمام البلغاريين.

ـ في ١٧ تشرين الثاني تقدم البلغاريون إلى تحصينات وخطوط: تشاتالجا ـ Tchatalja على بعد ثلاثين كيلو متراً من العاصمة: استانبول.

ـ في ١٨ تشرين الثاني، استولى الجبليون على أليسّيو ـ Alessio.

ـ وفي ٣ كانون الأول جرى توقيع الهدنة التي سعى إليها الباب العالي بشخص الصدر الأعظم كامل باشا والذي حلّ محل مختار باشا في الحكم.

ـ وفي ١٦ كانون الأول عقد مؤتمر للصلح في قصر سان جيمس بلندن حضره ممثلون عن الدول المتحاربة.

ـ وفي ٦ كانون الثاني ١٩١٣م توقفت المفاوضات بسبب الخلاف بين

المجتمعين حول أدرنة التي طالب البلغاريون بالتنازل عنها لمصلحتهم، وأصر الأتراك على الاحتفاظ بها، وذلك بعد أن تقدم سفراء إنكلترا وفرنسا والروسيا وألمانيا وإيطاليا والنمسا، بمذكرة إلى الباب العالي في ١٤ كانون الثاني ١٩١٣م جاء فيها ما نصه:

«أنه لتلافي ويلات الحرب، تعتقد الدول الستّ أن من واجبها لفت انتباه الدولة العثمانية إلى المسؤولية الخطيرة التي تقع على عاتقها من جراء مقاومتها لمؤتمراتهم وعرقلتها إقرار السلام: فما عليها إلا ملامة نفسها إذا أسفر دوام الحرب عن وضع مصير العاصمة التركية على بساط البحث وربما أيضاً امتداد الحرب إلى الولايات الآسيوية من الأمبراطورية العثمانية»، وانتهت المذكرة إلى القول: وعليه ترى الدول العظمى أن من واجبها تجديد النصح للحكومة العثمانية، بالموافقة على أن توكل إلى الدول العظمى أمر البت بمصير جزر بحر إيجه.

وبتاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٩١٣م دعا الصدر الأعظم كامل باشا وكلاء الوزارات وبعض الأعيان والشخصيات المهمة إلى مجلس عال عقد في دالمه باعجه برئاسة السلطان محمد الخامس للتشاور والنظر في موضوع المذكرة الوارد ذكرها أعلاه، فأجمع الحاضرون بمن فيهم، المشير فؤاد باشا والغازي أحمد مختار باشا وسعيد باشا، على القول بضرورة عقد الصلح والقبول بمطالب الدول العظمى.

وفي تلك الأثناء كانت الحرب لا تزال مستعرة، ولكن ما أن علم الاتحاديون بما أسفر عنه اجتماع الباب العالي حتى راحوا يُعدّون انقلاباً عسكرياً

نفذوه في الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٩١٣م وكان ذلك بتدبير من الاتحادي أنور باشا الذي عاد حديثاً من طرابلس الغرب وقتذاك؛ فجمع ضبّاطه الشباب وتوجّه على رأسهم إلى مقر مجلس الوزراء وهناك حاول وزير الحرب ناظم باشا أيقافهم، فأطلق عليه أنور باشا رصاصة من مسدسه صرعته في الحال، ثم أقدم على طرد كامل باشا وباقي الوزراء من مراكزهم. وبعد تصفية الوزارة الحاضرة، بدون موافقة السلطان المسبقة، عمل أنور باشا على تأليف وزارة جديدة دخلها هو وطلعت باشا وجمال باشا كأعضاء، تحت رئاسة محمود شوكت باشا. وكان أول تدبير اتخذته هذه الوزارة هو تسريح النواب وتعليق جلسات المجلس العمومي، ثم الاعلان عن رفضها التخلي عن أدرنة التي كانت لا تزال تقاوم بصمود هجمات الجيش البلغاري عليها، وبالتالي عدم قبول شروط الصلح المقدمة من الدول البلقانية ٣٠ كانون الثاني ١٩١٣م. ولكن حينما أرسل أنور باشا تعزيزات عسكرية قوية إلى مدينة: أدرنة لرفع الحصار عنها، صُدت تلك القوات بعد أن فقدت نصف عناصرها ٨ شباط ١٩١٣م.

- وفي ٦ آذار سقطت يوانينا - Janina بيد اليونانيين.

- وفي ١٧ آذار احتل اليونانيون أرجيروكسترو - Argyrocastro.

- وفي ١٨ آذار دارت معارك عنيفة أمام تشاتالجا.

- وفي ٢٥ آذار استسلم جاويد باشا للصربيين على ضفاف نهر أسكومبي - Scumbi.

- وفي ٢٦ آذار وقعت أدرنة بيد البلغاريين.

- وفي أول نيسان طلبت الحكومة التركية التفاوض على أساس الشروط المعروضة من الدول العظمى والمماثلة لتلك الشروط التي قبلتها سابقاً حكومة كامل باشا.

في تلك الأثناء، كانت مدينة أشقودرة محاصرة من قبل الجبليين ثم سقطت بيدهم في ٢٢ نيسان ١٩١٣م فلم يرق ذلك لدولة النمسا، فجعلت تتهدد حكومة الجبل الأسود بالحرب، حتى توصلت إلى إقناع الدول العظمى بوجوب إعلان الحصار البحري على سواحله، مما حمل حكومة الجبل على الانصياع لطلب هذه الدول، وبالتالي على الجلاء عن تلك المدينة التي عُهد في احتلالها إلى قوات أوروبية مشتركة ٢٥ نيسان ١٩١٣م.

- وفي ٣٠ أيار جرى إبرام معاهدة الصلح في لندن، وذلك على الأساس التالي وهو (جعل حدود تركيا في أوروبا خطاً مستقيماً يمتد من إينوس على بحر إيجه إلى ميديا على البحر الأسود، بحيث تتخلّى الدولة العثمانية والحالة هذه عن جميع المناطق الواقعة إلى الغرب من هذا الخط).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المعاهدة لم ترَ النور لتنفيذها وتطبيقها إنما بقيت حبراً على ورق، بسبب الخلاف الذي كان لا يزال ناشباً على الحدود بين رومانيا وبلغاريا، نتيجة لمعاهدة برلين بشأن مقاطعة الدوبروجة ـ Doubrouja. الأمر الذي حدا بالدول العظمى للتدخّل بين هاتين الدولتين من أجل فصل ذلك الخلاف الذي انتهى بتوقيع البررتوكول الصادر بهذا الشأن في سان بطرسبورج بتاريخ ٢٦ أيار ١٩١٣م أي قبل توقيع معاهدة الصلح المشار إليها أعلاه بقليل.

وفيما الأمور جارية على هذا النحو، إذ بالحلفاء البلقانيين يتنازعون فيما بينهم حول تقسيم الغنائم من الممتلكات العثمانية؛ ذلك أن بلغاريا تطمع في الإستيلاء على تراقيا بالرغم من معارضة الصرب لها، والتي سارعت إلى توقيع تحالف عسكري مع اليونان في حزيران ١٩١٣م، وهذا ما جعل الروسيا تتدخل لإصلاح الأمور بين بلغاريا والصرب حرصاً على إبقاء الحلف البلقاني متكاملاً. ولهذا الغاية أرسل القيصر في ٨ حزيران ١٩١٣م برقية إلى ملكي بلغاريا والصرب،يطلب منهما فض الخلاف الواقع بينهما بواسطة التحكيم، موافقاً على ذلك مع التحفظ.

وفي ذلك الحين استقالت الحكومة البلغارية وعُيِّن رئيساً للحكومة الجديدة السيد دانيف الذي ما أن استلم مهام منصبه حتى أمر بمهاجمة المراكز التي كان يحتلها اليونانيون والصربيون في مقدونية ٢٩ ـ ٣٠ حزيران ١٩١٣م. وهكذا قامت الحرب البلقانية الثانية وإن لم تعلن رسمياً.

حرب البلقان الثانية

كان للعمل الذي قامت به بلغاريا ضد اليونان والصرب رنة استهجان في المحافل الأوروبية التي رأت فيه خرقاً للتوازن البلقاني. وكان أول من أعلن الحرب على بلغاريا ملك اليونان قسطنطين، الذي استدعى سفيره من صوفيا، وتبعه ملك الصرب، قاطعاً علاقاته الديبلوماسية مع بلغاريا أيضاً ٦ تموز ١٩١٣م ثم سار على منوالهما ملك رومانيا كارول فأعلن الحرب على هذه الدولة الأخيرة ١٠ تموز ١٩١٣م.

وهكذا بدأ تقاتل الحلفاء السابقين دون أن يحسبوا حساباً لتركيا، وكان الوزير أنور باشا يترقب الفرصة المناسبة لانتهازها وعند سنوحها سارع على رأس قوة قام بتجميعها فوراً فاجتاز بها خطوط آنوس ـ ميديا متقدماً نحو أدرنة التي استقبلته بالترحاب عند دخوله إليها مظفّراً بعد أن أخلاها الجيش البلغارى. وكانت هذه الفرقة تضم المقدم مصطفى كمال ٢١ تموز ١٩١٣م. وفي خضم هذه الأحداث أغتيل رئيس الوزارة التركية: محمود شوكت باشا فتألفت حكومة ثلاثية جديدة استلم فيها أنور باشا وزارة الحربية.

وفي الثلاثين من تموز ١٩١٣م فتح مؤتمر الصلح في بُخارست برئاسة رئيس الوزراء الروماني مايورسكو وحضور ممثلين عن دول: رومانيا والصرب والجبل الأسود واليونان وبلغاريا، وبعد تذليل بعض الصعوبات التي اعترضت مباحثاتهم توصلوا بالنتيجة إلى الإتفاق على توقيع معاهدة الصلح في ١٠ آب ١٩١٣م وهي تتضمن:

١ ـ توسيع رقعة رومانيا على حساب بلغاريا بإعطائها مدينة سيلستريا بمقاطعة دوبروجه على الدانوب.

٢ ـ إعطاء الصرب شمالي مقدونية مع مناستير.

٣ ـ أعطاء اليونان الجزء الهلالي من الأبير ويوانينا Janina وجنوبي مقدونية وسالونيكا وجزءاً من تراقيا مع كفالا ـ Cavala.

٤ ـ توسيع رقعة بلغاريا في تراقيا مع مرفأ على البحر الأرخبيل بحر إيجه.

٥ ـ رفع إيالة ألبانيا إلى دولة مستقلّة على رأسها أمير ألمانيا وكانت ألبانيا تشكل إيالة تركية معزولة عن باقي الأمبراطورية العثمانية.

٦ ـ تجريد تركيا من معظم ممتلكاتها الأوروبية.

وبتاريخ ٢٩ أيلول ١٩١٣م وقّعت تركيا وبلغاريا في الاستانة معاهدة الصلح التي تعزّزت بموجبها استعادة الأتراك لقسم واسع من إقليم تراقيا بما في ذلك مدينة أدرنة.

الأمير عبد الله

كان في مقدمة النواب العرب في البرلمان العثماني: الامير عبد الله، الابن الثاني لشريف مكة. وكان هذا الشاب أنئذٍ، ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره، شخصاً بارزاً في الدوائر السيّاسية. وكان منذ صباه يمتاز عن ذوي قرباه بروحه المستقلة واعتزازه بنسبه وتحمسه لإظهار فضل بني قومه. وقد اتاح له مقامه الطويل في القسطنطينية ـ اثناء احتجاز الشريف هناك ـ ان يجيد اللغة التركية وان يتحلى بالكثير من طبائع علية الاتراك، فخفف ذلك من حدّته العربية الاصيلة من غير ان يقضي عليها ويجتثها. وكان ميله الطبيعي لمزاولة الشؤون السياسية القبلية وحماسته لإعلاء شأن اسرته، سبباً في ان اختاره والده للأمور التي تحتاج الى الثقة: كالنيابة والوساطة، وكان في ذلك يبدو انه أليق من أخيه الاكبر عليّ، الرقيق الخجول؛ ومن اخيه الاصغر فيصل الذي كان حتى ذلك الحين يبحث عن المجد في اعمال البطولة العسكرية، وحقق مبتغاه من ذلك. وكان عبد الله أشهر الاخوة الثلاثة واحبهم الى الناس. وكانت جاذبيته الشخصية من اهم مزاياه، وكان شغفه بالشعر العربي من جملة ما حبب به زملاءه العاملين في القضية العربية. وكان يقرأ ويحفظ كثيراً منه، وكان احساسه بمواطن الروعة في الادب يجعل حديثه خصباً فيّاضاً، ويجعل تفكيره ـ حتى في تلك السن الفتية ـ يرتدي رداء الحكمة.

وقد أفاد عبد الله، خارج الحجاز، من جميع الفرص التي سنحت له بصفته ابن الشريف، وساعده الايمن. فحينما كان مبعوثاً عن مكة بذل وِسعه ليستفيد

من منصبه ونفوذه لدى الباب العالي في دعم مركز والده في الحجاز، وكان مركزه قلقاً آنئذ في ربيع سنة ١٩١٤.



الأمير عبد الله بن الحسين

وقد ارتاب الاتحاديون في انه هو الذي يحرض والده الشريف على التصلب في مواقفه ثم يلتمس له المعاذير على عناده، فحاولوا ان يستميلوه بالهبات، فعرضوا عليه اولاً ان يتولى احدى الوزارات، ثم عرضوا عليه ان يكون والياً على اليمن. ولكنه احسّ بالشّرك، فاعتذر عن القبول وحافظ على استقلاله. وكان كوالده ميالاً الى اختبار قوته مع الاتراك. وكانا كلاهما طموحين، وكانا كلاهما يحلمان باستقلال يشبهه. وكان الفرق الرئيسي بين الأب وإ بنه فرقاً في الخطط الجزئية، أو بتعبير أدقّ، في المزاج الشخصي. فقد كان الحسين في غاية الحذر الى أن يحين الوقت المناسب ليجازف بكل شيء في اندفاع وجرأة، أما عبدالله فكان قليل الصبر، واثقاً بنفسه، متسرعاً. لا يتحلى إلاّ بالقليل من عمق والده ونفاذ بصيرته، وقد وجد في نفسه الجرأة على أن يذهب إلى لورد كتشنر ليعرف منه موقف انجلترة.

وكان ذلك في الاسبوع الاول من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٤، وكان كتشنر آنئذ معتمداً بريطانياً في مصر وعبدالله في القاهرة في طريقه من مكة إلى القسطنطينية، فاتصل بكتشنر متظاهراً بأنه يرد زيارة مجاملة. وحضر اجتماعهما المستر (الآن السير) رونالد ستورز، وكان آنئذ السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني. فسرد عبدالله لكتشنر تفصيلات عن العلاقات المتوترة بين السلطات التركية والشريف.

وكان يعرف ان الاتحاديين قرروا، سرّاً، ان يعزلوا والده، فأتاح لكتشنر أن يفهم من حديثه انه يحتمل نشوب ثورة في الحجاز إذا نفذ الأتراك عزمهم. وحاول بأسلوب حذر أن يعرف من كتشنر موقف الحكومة البريطانية إذا ما

نشب صراع سافر بين الاتراك والعرب. ومع أن كتشنر لم يتقيد معه بشيء في جوابه، الاّ أن جوابه كان مثبِّطاً.

وقد ألقى جوابه على أنه رأيه الشخصي قائلاً انه من غير المحتمل أن تتدخل انجلترة ما دامت سياستها التقليدية هي الصداقة مع تركية.

ورجح، في الوقت نفسه، أن لدى زائره من الحديث أكثر مما يمكنه أن يبوح به في مقابلة رسمية، ولذلك أوعز الى ستورز أن يرد الزيارة لعبدالله بعد يومين وأن يتيح له فرصة الإعراب عما في نفسه إعراباً كاملاً.

وكان عبدالله في حديثه مع ستورز أكثر وضوحاً. اذ كان ستورز يعرف اللغة العربية بعض المعرفة، وكانت له القدرة على التحدث في الموضوعات الصغيرة زمناً طويلاً، وكان يشارك عبدالله في هواية واحدة على الاقل، وهي الشغف بالشطرنج. فتصادق الرجلان فوراً، وعلى هذا الاساس من الالفة ـ وهو أمر يندر حدوثه بين الانجليز والعرب ـ شعر عبدالله بالطمأنينة والحرية، وأفاض في الحديث معه.

وأخبر زائره بأكثر مما افضى به لكنشتر عن خطورة الحالة في الحجاز، وعن الإعدادات التي يتخذها والده لمواجهة ما لا مفرّ من حدوثه من قطيعة نهائية بينه وبين الاتراك. وحدثه بإسهاب عن أهداف الحركة العربية وأماني قادتها وازدياد دواعي يأسهم. ثم سأله ــ بصراحة يتميز بها ــ عن احتمال مساعدة كتشنر للشريف في الحصول على مدافع رشاشة.

وكان جواب ستورز، بطبيعة الحال، مثبطاً كجواب رئيسه، فانتهى بذلك

حديثهما. وفي نهاية نيسان (ابريل) مر عبد الله بالقاهرة مـرة اخـرى، ولم يقـابل كتشنر، ولكنه اجتمع اجتماعاً آخر بستورز، أوضح فيـه ستورز اكـثر مـن ذي قبل أنه لا يمكن توقع أي تشجيع من قبل الحكومة البريطانية، ثم عاد عبدالله إلى الحجاز. ومع أن هذه المحادثات لم تنته إلى نتيجة عملية، غير انها كانت ذات أثـر فعّال في سير الحوادث. فقد نبهت كتشنر إلى ما في العداء بين الاتـراك والعـرب من قوة وعمق، وإلى أن رغبة العرب في الاستقلال رغبـة صادقـة، فحفـزه كـل ذلك إلى أن يبدأ ـ بعد بضعة شهور ـ بالخطوة الاولى من سلسلة خطوات انتهت أخيراً باشتراك العرب في الحرب حلفاء لانجلترة على الاتراك.

وتظهر قيمة هذه المحادثات في ان محاولات الامير عبدالله للتقرب صـادف حدوثها في الوقت نفسه الذي كانت تجول فيـه افكـار معينـة في خـاطر كتشـنر. فمع أنه كان يمثل بريطانية في القاهرة وبذلـك كـان عملـه الرئيسـي ينحصـر في نطاق مصر والسودان، غير أن نظره كـان يمتـد الى مـا وراء مجالـه المباشـر إذ أن حملاته الحربية على السودان، ومدة عمله قائداً عامّاً في الهند وما أتيـح لـه هنـاك من معرفة وثيقة بمشكلات الحدود الشمالية الغربية وافغانستان ـ كـل ذلـك هيأ له فرصة الاتصال المباشر بقوى المسلمين النضالية، ونمى في نفسه احساساً عميقاً بالأهمية السياسية للرابطة الدينية في الاسـلام. وكـان خـلال السـنوات الثـلاث التي قضاها في القاهرة لا يفتأ يرقب ـ باهتمام وقلـق ـ مدينـة القسـطنطينية مقـر الخلافة. وكان يتابع نمو النفوذ الالماني، ويدرك ما ينـذر بـه امتـداد سـكة حديـد بغداد من شؤم، ويشغل باله ما كـان يتضمنـه ذلـك مـن تهديـد لمركـز بريطانيـة العظمى في الخليج العربي وفي الهند.

ولم يكتـم عـن العـدد القليـل مـن اصدقائـه الحميمـين اعتقـاده في أن

الدبلوماسية البريطانية قد ارتكبت خطأ لا يغتفر بسماحها لالمانية باحتلال مكان الصدارة السياسية والحربية في عاصمة الامبراطورية العثمانية، وأصبح شغله الشاغل التفكير في هذه المشكلة وفي الطريقة التي يقاوم بها هذا الخطر.

وخطرت بباله عدة حلول: احدها يتصل بجزء من سورية الجنوبية يمتد، على وجه التقريب، من خليج حيفا ـ عكا على البحر الابيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الاحمر، واحتمال اقتطاع هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية تدريجياً مع الزمن، والعمل على وضعه تحت الحماية البريطانية، وبذلك يمكن ان يمتد نطاق النفوذ البريطاني دون انقطاع من مصر حتى الخليج العربي. ومنها ايضاً، احتمال تشجيع الولايات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية على تكوين دولة واحدة، او مجموعة من الدول، مستقلة استقلالاً داخليّاً وترتبط ببريطانية العظمى برباط الصداقة، وتشمل المنطقة الممتدة من شواطىء البحر الابيض المتوسط غرباً الى حدود ايران شرقاً، وبذلك تصبح سدّاً انجليزياً ـ عربيّاً، يوقف المد التركي ـ الالماني. ومعنى ذلك ان كتشنر قد وصل ـ عن طريق تفكيره المستقل ـ الى رؤية الاحتمالات التي كان يفكر فيها الزعماء العرب الوطنيون. وفي هذا الوقت نفسه الذي كان فيه فكره مشغولاً بهذه التصورات، اتصل به الامير عبد الله وزوده بمادة جديدة للتفكير. وكان عبد الله نفسه عضواً في احدى الجمعيات السرية، وكان مؤمناً بفوائد التفاهم الانجليزي ـ العربي متحمساً له.

حين نشبت الحرب في شهر آب (اغسطس) كان كتشنر يقضي اجازته في انجلترة، فشرع من فوره في العودة الى مقر عمله. ولكنه لم يكد يغادر دوفر حتى استدعاه رئيس الوزراء وعينه وزيراً للحربية.

فوجد نفسه منذ الليلة الاولى يواجه مهمة تكوين جيش بريطاني تكويناً جديداً لا يعتمد على نمط سابق. وبينما كان مستغرقاً كل الاستغراق في انجاز هذا الواجب كانت المخاطر التي ينطوي عليها النفوذ الدبلوماسي الالماني في تركية وطرق مقاومة هذه المخاطر لا تزال تشغل جزءاً من فكره وتستحوذ عليه. وكانت تركية في الظاهر تبدو ميالة الى سياسة الحياد، أو على الاقل هكذا كانت تدعي دائماً جمعية الاتحاد والترقي التي كانت الحزب الحاكم حينئذ. ولكن كتشنر، الذي كانت تشغل باله المخاوف التي ذكرناها، لم يكن ليطمئن الى مثل هذا الادعاء المشكوك فيه. وكان يدرك ان الاطمئنان الى ذلك مخاطرة كبيرة، ولذلك ما كاد يصل اليه اقتراح ستورز في منتصف شهر ايلول (سبتمبر) تقريباً حتى اقنع مجلس الوزراء بالموافقة على تنفيذه.

وذلك أن ستورز ـ الذي عاد الى مصر بدون رئيسه ـ لم يركن الى الدعة. فان الصراحة التي تحدث بها عبد الله اليه قبل بضعة اشهر أعانته على ان يلتقط بذهنه المتوقد النتائج الكبرى التي تترتب على تذمر العرب. وربما كان أقدر من غيره في ذلك الوقت على أن يدرك احتمال الاستفادة من هذا التذمر. وزاد من قوة هذا الاحتمال في رأيه تلك المشاورات التي كانت تتاح له فرصة اجرائها ـ بصفته مستشاراً شرقيّاً ـ مع كثير من الزعماء العرب المقيمين في مصر. فكتب الى كتشنر رسالة شخصية ذكر فيها ما معناه: «هل لك ان تفوضني في التأكد من عبدالله عن الاتجاه الذي سيسير فيه العرب اذا دخلت تركية الحرب: اذ أن من الواضح أن انحيازهم الى جانبنا ـ فضلاً عن الاعتبارات الكبرى ـ سيقوي من موقفنا العسكري».

ولعل هذه الألفاظ ليست ألفاظه الحقيقية، ولكنها تدل على معنى رسالته التي كتبها.

وقد تبنى كتشنر هذا الاقتراح على الفور وأبرق الى ستورز بالتعليمات التي تتفق مع طلبه. بل لقد زوده بتعليمات اكثر تحديداً ودقة اذ طلب منه ان يستفهم من عبدالله عن موقف شريف مكة إذا ما استطاعت المانية أن تحمل تركية على دخول الحرب في صفها، وهل سيناصر الشريف في هذه الحالة قضية تركيا أو يناصر بريطانيا العظمى عليها. وقد صدرت هذه التعليمات في الاسبوع الاخير من شهر ايلول (سبتمبر) اي قبل اعلان الحرب على تركية بستة أسابيع. وقضى ستورز بضعة ايام حتى عثر على رسول أمين يعتمد عليه ليسافر سرّاً الى الحجاز ويتسلل الى مجلس عبدالله دون ان يلفت اليه الانظار. ووصل الرسول ـ وهو مصري اسمه علي افندي ـ مكة في نحو منتصف تشرين الاول (اكتوبر)، وقد بُلّغَ الرسالة وعاد الى القاهرة قبل نهاية الشهر يحمل معه جواباً مكتوباً من عبد الله.

وضعت رسالة كتشنر شريف مكة في موقف حرج جداً. فقد كان قبل وصول الرسالة يبحث عن فرصة يؤكد فيها سلطانه على الحجاز ولو أدى ذلك الى شق عصا الطاعة على الاتراك. وكان هذا قبل نشوب الحرب ببضعة اشهر، حينما لم يكن هناك أي احتمال في الواقع بقيام حرب عامة تضطر تركية إلى خوضها، وحينما كانت وجوه النزاع بينه وبين الاتراك محصورة في شؤون الحجاز وحدها. أما الآن وقد نشبت الحرب وأصبح اشتراك تركية فيها متوقعاً وشيكاً، فإن الأمر أصبح أشمل وأوسع وصار يشمل مستقبل جميع الولايات العربية في الدولة العثمانية. واذا كانت تركية ستضطر حقّاً إلى خوض غمار الحرب أفليس من المحتمل أن يتيح انهماكها فيها للعرب الفرصة التي انتظروها طويلاً؟ كان أمام العرب طريقان ظاهران: إما ان يقفوا بجانب تركية في ساعة

محنتها فيكسبوا بذلك عرفانها لهم بالجميل، وإما ان يثوروا عليها ويطلبوا حريتهم بحد السيف. فأي هذين الطريقين يسلكون؟

وكان لإبني الشريف اللذين استشارهما رأيان متناقضان. فكان فيصل يميل الى سلوك الطريق الاول: اذ كان مقتنعاً بأن لفرنسة مطامع في بلاد الشام ولإنجلترة مطامع في المناطق الجنوبية من العراق وأن ما عرضه كتشنر لم يشتمل على اية ضمانة ازاء هذين الخطرين. وكان يرى، فضلا عن ذلك، أن العرب لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكافي، فكان يخشى أن تخفق الثورة. وكان عبد الله يرى رأياً آخر. فان انتماءه إلى احدى الجمعيات السرية العربية جعله يدرك قوة الشعور الثوري. ولما كان ذا طبيعة متفائلة فقد كان واثقاً من أن دمشق وبغداد ستتجاوبان مع الدعوة الى الثورة تجاوباً مرضياً. وكان يرى أن الطريق السليم ليس في رفض ما عرضه كتشنر بحجة أنه عرض غير كاف، بل في الوصول عن طريق المقاومة إلى معرفة المقصود بهذا العرض وهل يعتبر ضماناً كاملاً لاستقلال العرب.

وقد تشبث كل واحد من الأخوين برأيه وأصر عليه خلال الاجتماعات التي واصل والدهما عقدها معهما والتي كانت الاحاديث تدور فيها همساً، ولم يتزحزح اي واحد منهما عن موقفه. وكان الحسين يميل، بصورة عامة، إلى رأي فيصل في عدم استعداد العرب في الولايات الاخرى، ومع ذلك فقد دعاه اصرار عبد الله وإلحاحه الى التريث. واخيراً انتهى الى قرار وسط، وهو ان يوفد مبعوثين الى بلاد الشام والى كبار الحكام العرب ليطلعوا على حقيقة الشعور الوطني ومدى الاستعداد للثورة، وليسبروا أغوار الزعماء، كما قرر من جهة اخرى ان يمد لكتشنر حبال التشجيع بالقدر الذي يكفي ـ دون زيادة ـ لإبقاء الصلة بينهما.

ولذلك كتب رسالة الى ستورز وقعها عبد الله أظهر فيها أنه راغب في الوصول الى تفاهم مع بريطانية العظمى، ولكنه مع ذلك غير قادر على أن يغير موقف الحياد الذي يفرضه عليه مركزه الديني في الاسلام.

وقصر اشاراته في الرسالة على الحجاز وحدها، وتجنب بحذر ان يربط البلاد العربية الاخرى بشيء، ولمح أنه قد يستطيع ان يقود أتباعه القريبين منه الى الثورة اذا ما اضطره الاتراك الى ذلك، على شرط أن تتعهد له انجلترة بتقديم مساعدة فعالة.

تلقى ستورز هذه الرسالة قبل نهاية تشرين الأول (اكتوبر) فأبرق بها الى لندن فوراً. ولا بد ان نصها قد وصل الى كتشنر في الوقت نفسه تقريباً الذي وصلته فيه رسالة من صديقه القديم سير جون ماكسويل الذي كان حينئذ قائداً للقوات البريطانية في مصر، وقد بعث بها من القاهرة في ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) ينصحه فيها بقوله: «... انني لا أعرف ما هي سياسة وزارة الخارجية، ولكنني اعتقد انه يجب التقرب الى العرب المحيطين بمكة واليمن، وتأليبهم على الاتراك».

لقد عمل ماكسويل زمناً طويلاً في الشرق ولذلك كان لنصيحته وزنها لدى كتشنر. وفي ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) أبرق كتشنر الى دار الاعتماد البريطاني في القاهرة بنص رسالة لكي ترسل الى عبد الله جواباً على رسالته. وقد استهلها باعلان نبأ دخول تركية الحرب. وتضمنت الرسالة وعداً قاطعاً للحسين بأن الحكومة البريطانية - في حالة وقوفه هو وأتباعه في جانب انجلترة ضد تركية - تضمن له بقاءه في منصب شريف مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا

المنصب وامتيازاته، وأنها ستحميه من كل اعتداء خارجي. كما قطعت الرسالة وعداً بمساعدة العرب، عامة، في مساعيهم لنيل حريتهم على شرط ان يؤازروا انجلترة. وقد اختتمت الرسالة بتلميح يشير الى أن الشريف ـ في حالة مبايعته بالخلافة ـ يستطيع ان يطمئن الى اعتراف انجلترة به.

وقد وصلت هذه الرسالة عبد الله في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) في وقت حرج، كما سيظهر لنا بعد قليل، فأشاعت في نفسه الرضا والطمأنينة. اذ انها ـ بالنسبة لموضوع الحجاز ـ قدمت للحسين الضمانات الكافية التي طلبها، بينما فتحت ـ بالنسبة للولايات العربية الاخرى ـ ابواب الاغراء والأمل في التحرر القومي. حقّاً ان عبارات هذه الرسالة جاءت عبارات عامة ـ عن قصد ودراسة ـ ولكنها في صورتها التي تلقاها عبد الله ورد فيها ذكر «الأمة العربية» و «تحرير العرب».

ومهما يكن المعنى الذي قصد اليه كتشنر من هذه العبارات وهو مشغول البال بالموضوع، فان الشريف فهم منها فهماً قاطعاً أنها دعوة الى جميع العرب للقيام بالثورة. وبهذا الفهم قرأ الرسالة الموجهة إلى ولده من كتشنر، وكانت شهرة كتشنر حينئذ في بلاد الشرق أعظم من شهرة اي انجليزي حي، وكانت كلمته مقبولة دون تشكك.

ولذلك بدأ الشريف منذ ذلك الوقت يوجه جهده الى تحقيق تلك الغاية.

وأرسل عبد الله ـ بتوجيه من والده ـ جواباً الى القاهرة قيد فيه أباه قيداً صريحاً قاطعاً بتحالف سري مع انجلترة. وقد اكد عبدالله للمرة الثانية عدم مقدرة الشريف على المجاهرة بأي عمل عدائي للأتراك قبل استكمال

الاستعدادات اللازمة، وطلب ان يمهل بعض الوقت لكي يتبين جميع الاحتمالات، ويجمع قواته ثم ينتهز بعد ذلك الفرصة المواتية للثورة.

ووعد ان يكتب الى ستورز ثانية في الوقت المناسب. وقد وصل هذا الجواب الى القاهرة في اوائل شهر كانون الأول (ديسمبر)، وهو يعبتر نهاية الفصل الاول من المؤامرة الانجليزية العربية. وسيبدأ الفصل الثاني بعد ذلك بثمانية أشهر، في شهر تموز (يولية) التالي، بمجرد انتهاء الحسين من استشاراته ومباحثاته مع الزعماء العرب.

وقد بدأ هذا الفصل بمذكرة من الشريف الى السير هنري مكماهون، وهي المذكرة الاولى في مجموعة من المذكرات الدبلوماسية المهمة التي اصبحت تعرف باسم مراسلات حسين .مكماهون.

المصالح البريطانية

ان مجرد انضمام الدولة العثمانية الى جانب الدول المركزية معناه أن قضية آمال العرب القومية لابد لها من ان تقحم في فلك السياسة الاوروبية. واصبح موقف العرب منذ ذلك الوقت موضع اهتمام مباشرمن الحلفاء وخاصة بريطانية العظمى، إذ أن سيطرة تركية على بلاد الشام والعراق جعلتها تهدد المصالح البريطانية في نقطتين حيوتين: قناة السويس، ورأس خليج العرب حيث تقع حقول الزيت ذات القيمة الكبيرة التابعة للشركة الانجليزية ـ الايرانية. ولا يمكن كذلك اغفال الخطر القائم في شبه الجزيرة العربية نفسها، إذ أن ساحل البحر الاحمر الطويل كان يتيح للاتراك كثيراً من القواعد الخفية لاستعمالها في بث الألغام أو إرسال الرسل منها الىمصر والسودان والى ما وراءها من بلاد افريقية ليوزعوا الاسلحة وليثيروا السخط. وكانت الحامية التركية في اليمن، المؤلفة من فرقتين، من القوة بحيث تهدد عدن. أما من الناحية السياسية فقد كان اعلان الجهاد الذي يدعو اليه الخليفة السلطان كافياً لان يحيل الحجاز ـ اذا ما نال ذلك موافقة شريف مكة ـ الى أتون تندلع منه نار الدعاية لتهيج البلاد العربية بل تتعداها الى الشعوب الاسلامية الكثيرة غير العربية التي تخضع لحكم الحلفاء او المتاخمة لمناطق نفوذهم.

ومن بين هذه المخاطر كلها كانت الدعوة الى الجهاد أشدها خطراً.

فقد كان من المحتم اذا ما انضمت تركية الى الدول المركزية ان يكون من

اول ما تقوم به اثارة العالم الاسلامي على الحلفاء، وأن يعلن السلطان ـ بصفته الخليفة والامام الاعظم ـ أن تركية، وهي الدولة الاسلامية الاولى ومقر الخلافة، تحارب دولاً نصرانية ترمي الى تدمير تركية، وأن الأماكن المقدسة في خطر، وأن على جميع المؤمنين المخلصين أن ينضموا تحت راية الدين. أما الى اي مدى يمكن ان يستجاب لهذه الدعوة فهو أمر لم يكن من المستطاع تقديره مقدماً، اذ انه لم يسبق ان نودي الى الجهاد في العصور الحديثة على نطاق عالمي واسع، وربما كان مما يضعف هذه الدعوة ان تركية نفسها متحالفة مع دول نصرانية. ومن جهة اخرى فان مشاعر الوحدة الاسلامية الشاملة التي بذل عبد الحميد جهده لتنميتها كانت أحد العوامل التي لا يستطاع معرفة مداها معرفة دقيقة، كما لا يمكن الاطمئنان الى إغفالها. ومهما يكن فإن ثورة المهدي في السودان، وما أبدته الشعوب الاسلامية في تونس ومراكش وطرابلس من مقاومة للتغلغل الاوروبي ـ كل ذلك قد أظهر، منذ عهد ليس بالبعيد، ان استخدام الدافع الديني في الدعوة إلى الحرب لا يزال يحتفظ بقوته القديمة على اثارة النفوس. وحتى حينما يكون نجاح الدعوة الى الجهاد نجاحاً جزئيّاً فان ذلك كفيل بأن يعرض الحلفاء لأخطار شديدة، اذ لايمكن أن تتجاهل انجلترة نحو سبعين مليوناً من المسلمين في الهند وستة عشر مليوناً في مصر والسودان، ولا أن تتجاهل فرنسة عشرين مليوناً في افريقية، وكذلك روسية نحو هذا العدد داخل حدودها.

وأشد هذه الاخطار هولاً هو الخطر الذي كانت مصر معرضة له.

اذ من المتوقع ان نجاح الدعوة الى الجهاد في الاجزاء النائية من العالم الاسلامي، مثل: الهند او مراكش، او بلاد القفقاس، سيثير كثيراً من الصعاب في وجه بريطانية العظمى او فرنسة او روسية، ولكن الامر لن يتجاوز ـ في أسوأ

التقديرات ـ نطاق الثورات المحلية، او الحرب المحلية في الحدود الشمالية الغربية للهند اذا ثارت بلاد الأفغان. أماً في مصر فان الخطر الذي تتعرض له يتضمن نتائج متعددة مخيفة، اذا ان اغلاق قناة السويس لا يقتصر أثره على مجرد اقلاق انجلترة وارتباكها بل انه يصيبها بالعجز والشلل في مركز من مراكزها الحيوية. وهكذا فان العالم الاسلامي اللذي يمكن أن يدعى فيه الى الجهاد أصبح يقسم الى منطقتين متمايزتين: الاولى نطاق خارجي يتألف من البلاد التي تسكنها شعوب متعددة غير عربية، والثانية دائرة داخلية تتألف من بلاد عربية تعتبر مصر مركزها الجغرافي. ولا يمكن القيام بهجوم بري على قناة السويس الا خلال مناطق يقطنها العرب، واحدى الوسائل التي يمكن اللجوء اليها لتفادي هذا الخطر هي استمالة العرب الى صفوف الحلفاء. وذلك هو ما كان يدور بالحاح في بال كتشنر حينما بعث برسالته الى الشريف، وعلى هذه الصورة دخلت القضية العربية تلقائياً في نطاق السياسة الاوروبية بعد ان اشتركت تركية في الحرب.

الحرب العالمية الأولى

بعد توقيع معاهدة بخارست عمدت الدول إلى توجيه أنظارها لحلّ المسألة الشرقية نهائياً. فكان من أثر ذلك أن نجحت وساطتها في التوفيق بين النمسا والصرب بشأن سكة حديد البلقان، إذ كان الخلاف بينهما قد أوشك أن يقودهما إلى حرب أوائل أيار ١٩١٤م كما أن إيطاليا نالت امتيازاً بإنشاء سكة حديد بين إزمير وآيدن في ١٧ أيار وذلك مقابل جلائها عن الجزر العثمانية التي كانت احتلتها في الحرب الطرابلسية وقد جاء في تصريح وزير الخارجية الإيطالي في الجلسة التي عقدها مجلس النواب بتاريخ ٢٦ أيار بأن (سياسية إيطاليا في الشرق الأدنى ترمي إلى المحافظة على سلامة الأملاك العثمانية).

وكانت الصحف في إنكلترا وفرنسا والروسيا قد نشرت من جهتها بلاغاً رسمياً إثر مقابلة ملك إنكلترا، لرئيس الجمهورية الفرنسية، والاجتماع الذي عقده سفراء دول الاتفاق الثلاثي في ٢١ ــ ٢٣ نيسان ١٩١٤م جاء فيه: أن الدول الثلاث ستبذل جهدها في المحافظة على التوازن الأوروبي والسلم العام.

كما أن صحف ألمانيا وإيطاليا والنمسا كانت قد نشرت في: ٢٢ أذار ١٩١٤م وعلى إثر اجتماع وزير خارجية أيطاليا بوزير خارجية النمسا في أبازيا وزيارة الأمبراطور غليوم للأمبراطور عمانوئيل في البندقية، بلاغاً على حلّ المشاكل العديدة التي نشأت عن الأزمة البلقانية حلاً سلمياً.

كما اتفقت بعد ذلك إنكلترا وألمانيا بشأن سكة حديد بغداد والملاحة في دجلة، وفرنسا وألمانيا على سكة حديد الأناضول.

ولكن بالرغم من كل ذلك فإن أطماع الدول، على خلافها، بقيت كما هي: فعلاقات الروسيا مع النمسا وألمانيا لم تكن إلاّ لتزداد حدة وسوءاً، وكذلك العلاقات بين إيطاليا والنمسا بسبب تضارب مصالحهما في ألبانيا، علماً بأن اليونان كانت لا تزال تتطلع إلى مقاطعة أبيروس ـ L'Epire التي اغتصبت من أملاكها، في حين راحت ألمانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الكبرى، تضاعف قواها الحربية (إصدار بعض القوانين الحربية في ألمانيا وفرنسا) لتكون على أهبة الاستعداد عند الخطر. وقد وصف بعض الكتّاب السياسيين حالة أوروبا في تلك الحقبة، بقولهم: «إن الموقف الحالي مع ظواهره السلمية، عبارة عن اختلال التوازن في الشرق اختلالاً لا تستطيع الدول إغفاله، وتنازع المصالح الأوروبية تنازعاً لا سبيل إلى اجتنابه وارتباك المسائل الشرقية ارتباكاً لا يزول إلاّ بامتشاق الحسام.

أما من جهة تركيا فإن الباب العالي قد استجاب لمطالب الروسيا فيما يختص بالمسألة الأرمنية، إذ قبل اقتراح الدول العظمى بإصلاح ولايات الأناضول الشرقية الست التي يسكنها الأرمن، وتعيين لجنة خاصة من ثلاثة أعضاء مسلمين وعضوين أرمنيين وعضو كلداني برئاسة مستشار أجنبي، بغية إصلاح الدرك، وتسوية الخلافات بين الأهلين.

ثم في ٨ شباط ١٩١٤م جرى الاتفاق بين الباب العالي والروسيا على جعل الولايات الأرمنية، منطقتين لكل منهما مفتش أجنبي يعيّنه الباب العالي بموافقة الدول العظمى. ومع ذلك فإن الحكومة الاتحادية كانت أيضاً تبذل الجهود لتحديث قواتها المسلّحة بحيث استعانت لهذه الغاية بالبعثات العسكرية الألمانية التي طلبت مساعدتها في إعادة تنظيم الجيش بأسلحة حديثة، سواء في

البر أم في البحر، ولم تمض ستة أشهر على وصول البعثات الألمانية العسكرية إلى الأستانة حتى وقع الحادث الإليم الذي أدّى إلى تطاير الشرر وأشعال الحرب العالمية الكبرى ألا وهو مقتل الأرشيدوق فرنسوا فردينالد وليّ عهد عرش النمسا ـ المجر وزوجته الدوقة صوفيا، أثناء زيارتهما للبوسنة، وتفصيل ذلك كما يلي:

فيما كان موكب ولي العهد المذكور يخترق الشوارع في مدينة سيراجيفو بمقاطعة البوسنة بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩١٤م انطلق شاب من بين الجموع المحتشدة على الجانبين، وفي يده مسدس، مخترقاً الحرس والشرطة المدافعين للموكب، وعند وصوله إلى مقربة من الأرشيدوق فرنسوا فرديناند، أطلق عليه رصاصة أودت بحياته، ثم اتبعها برصاصة أخرى على زوجته الدوقة صوفيا الجالسة بجانبه، فأصابها إصابة خطرة توفيت على إثرها بعد نقلها إلى المستشفى بقليل. ويدعى هذا الجاني كافريلو برينسيب وهو من أهالي البوسنة وينتمي إلى منظمة اليد السوداء السرّية الصربية، التي كان يرأسها، أحد ضباط الأركان في الجيش الصربي الكولونيل ديمتريفيتش في بلغراد. وعلى إثر هذا الحادث تأزم الوضع بين النمسا والصرب، إذ حمّلت النمسا حكومة الصرب مسؤولية الإعتداء على ولي العهد وزوجته ووجدت فيه ذريعة لإعلان الحرب عليها. وقد ساندت ألمانيا حليفتها النمسا هذه المرة بعد أن كانت في السابق تمانع في إشهار الحرب على الصرب للقضاء على سطوتها في البلقان. وبتاريخ ١٤ تموز ١٩١٤م أصدر رئيس وزراء النمسا موافقته لقائد الجيش على القيام بعملية عسكرية ضد الصرب ثم أقدمت حكومة فييّنا على إرسال إنذار إلى حكومة بلغراد مطالبة بالتعويض عن حادث سيراجيفو وإزالة الإساءة الناتجة عنه. وقد

صيغ هذا الإنذار بشكل يكفل ردّه من حكومة الصرب وحدّدت لهـذه الأخيرة مهلة ثماني وأربعين ساعة للإجابة عليه أما بالرضوخ أو بالرفض دون مناقشة أو مفاوضة ٢٣ تموز ١٩١٤م. وكان هذا الإنـذار يتضمـن عشرة بنود، أهمهـا، البند السادس وهو يجيز للنمسا انتداب موظفيها للتحقيق في الأراضـي الصربيـة حول المؤامرة واكتشاف مدبّريها والمشاركة في محاكمة المتهمين في العملية. وقبل انتهاء مدة الإنذار أعلنت حكومة بلغراد أنها توافق على معظم بنود الإنـذار ما عدا البند السادس الذي يمس سيادتها كما طلبت اللجـوء إلى المحكمة الدوليـة في لاهاي بالنسبة لمحاكمة المتهمين، وكل ما لا يمت بصلة، باستقلال بلادها.

ولدى تلقيها الجواب على إنذارها، قطعت النمسـا علاقاتهـا الدبلوماسية مع الصرب ٢٥ تموز ثم أعلنت الحـرب علـى هـذه الأخيرة ٢٨ تمـوز، وذلـك بالرغم من تدخل انكلترا في سبيل الحيلولة دون وقـوع الحـرب. وهـذا مـا دفـع بالروسيا إلى إعلان التعبئة العامة ٣٠ تموز ١٩١٤م مبدية بذلـك نيّتهـا بالدفـاع عن الصرب، في حـين كـانت ألمانيـا مـن جهتهـا ترسـل الإنـذار تلـو الإنـذار إلى الروسية وفرنسـا ثـم تقـرر إعـلان الحـرب عليهمـا أول آب ١٩١٤م و٣ آب ١٩١٤م أما إنكلترا وهي التي كانت تخشى امتـداد سيطرة ألمانيـا علـى أوروبـا الشرقية والجنوبية، فقد بادرت إلى قطع علاقاتها الديبلوماسية مع هـذه الأخـيرة عند تحققها الخطر الناجم عن اجتياح بلجيكا ٤ آب.

الدعوة إلى الجهاد

في اليوم الثاني من شهر آب (أغسطس) صدر قرار الحكومة التركية بالتعبئة العامة. ومع أن تركية أعلنت حيادها غير انها شرعت ـ تحت ستار هذا القرار ـ في اتخاذ اجراءات معادية للحلفاء، نتج عنها قلق بالغ في القاهرة. وكانت بلاد الشام أهم الاقطار المحيطة بمصر من الناحية الحربية. وكانت حاميتها تتألف من فيلقين في كل منهما ثلاث أو أربع فرق عسكرية، يبلغ مجموعها في الاحوال العادية ما بين ستين وسبعين الف رجل. وحينما اشتركت تركية في الحرب تألف من هذه الفرق جيش عرف باسم الجيش الرابع، وكان مقر قيادته في دمشق، وقد أعلن للناس ان الغرض الرئيسي منه القيام بهجوم على مصر. وفي ٢٥ أيلول (سبتمبر) أخبرت دار الاعتماد البريطاني في القاهرة وزارة الخارجية البريطانية ان بعض الفرق تتجمع سرّاً قرب الحدود المصرية. وخلال شهر تشرين الأول (اكتوبر) ظلت السفارة البريطانية في القسطنطينية تبرق بتقارير تتضمن اخباراً تدعو الى القلق عن حركات بعض الفرق، وعن ارسال الاسلحة والذهب لتسليح قبائل البدو في جنوب بلاد الشام وسيناء ومدهم بالمعونة المالية للهجوم على مصر، وعن نشاط ستمائة من الوعاظ المبشرين الذين كانوا متجمعين في حلب لينتشروا منها الى جميع انحاء بلاد الشام والى مصر بغية تأليب السكان المسلمين على بريطانية العظمى. ووصلت الى الشام جماعة من الضباط الالمان بقيادة العقيد (الكولونيل) كريس فون كريسنشتاين، وتسلموا مراكز معينة في هيئة اركان الجيش الرابع، وكذلك وصل جماعة من سلاح

المهندسين وبدأوا يعملون في جنوب الشام في الطرق والسكك الحديدية المتجهة الى الحدود المصرية. كما اصبح معروفاً ان الجيش الثاني عشر التركي، وكان يشمل فرقة جميع افرادها تقريباً من العرب، قد شرع في الانتقال من الموصل الى حلب. وفي يوم ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) بعثت السفارة ببرقية تتضمن ان منشوراً عنيفاً جداً قد وزع على الناس يحض الجنود المسلمين في قوات الحلفاء على الثورة دفاعاً عن الاسلام، وأن بضعة آلاف من نسخ هذا المنشور في سبيلها الى ان تهرّب الى مصر عن طريق الشام.

اما الحدود الغربية لمصر فكان ثمة جموع غير معروفة العدد بزعامة السنوسي، ومع انه كان يعلن صداقته لبريطانيا العظمى، غير انه معروف بعلاقاته الوثيقة بالاتراك وبسلطان دارفور. وكان حينئذ لا يزال منصرفاً الى محاربة الايطاليين وقد نجح في صدهم وحصرهم في شريط ضيق على الساحل حيث استقروا هناك يحمون انفسهم بمعونة مدافعهم البحرية. وسرعان ما وافته رسل الأتراك يعرضون عليه المال والالقاب والمناصب، ويبلغونه طلب الخليفة بأن يعلن الجهاد باسمه. وكان السيد احمد السنوسي زعيماً لجماعة كبيرة من أتباعه المسلمين المتحمسين، وكان ذا نفوذ كبير بين الزعماء المسلمين على حدود مصر والسودان، ويملك كثيراً من الاسلحة والعتاد ــ وكل ذلك كان ينطوي على خطر متوقع يصيب مصر.

اما في شبه الجزيرة العربية، فقد كان للاتراك حامية مؤلفة من أربع فرق موزعة على الحجاز وعسير واليمن. وكان الشريف حسين في الحجاز قد بلغ من السيطرة على القبائل مبلغاً يتيح له ـ لو أراد ـ أن يحشد جيشاً كبيراً يشارك في الهجوم على مصر. وكان في قدرته ان يجند ـ على أقل تقدير ــ اربعين الفاً من

الجنود المسلحين بالبنادق من بين رجال القبائل، ولم يكن للاتراك اية سلطة عليهم بغير مساعدة الشريف. وكانت الحامية التركية في الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين، ولكن القبائل كانت من صعوبة المراس وشدة الشكيمة بحيث كانت هذه الحامية لا تجرؤ على المخاطرة في الخروج والتوغل في البلاد الا نادراً، وكانت في اكثر الاحيان تبقى محصورة في داخل أسوار حصونها ومراكزها. وكان لا بد للاتراك ـ من أجل تعبئة هذه القوى القبلية ـ من ان يضمنوا اولاً تعاون الشريف معهم، اذ يستطيعون بمؤازرته أن يطلقوا حاميتهم المعزولة من عقالها ويستخدموها، وأن يسلحوا عدداً كبيراً من رجال القبائل لينضموا الى قوات الحملة على قناة السويس.

أما الادريسي فكانت قيمته العسكرية محصورة في نطاق محلي. وكان في موقف يتيح له أن يعرقل المواصلات التركية بين الحجاز واليمن.

وان يهدد الاتراك من المؤخرة اذا ما هاجموا عدن. وكانت فائدته الرئيسية للحلفاء تتمثل في الساحل، اذ كان يستطيع ان يحول دون استخدام ساحل عسير الطويل قاعدة معادية للحلفاء.

اما في اليمن فكان موقف الامام ذا أثر رئيسي في عدن. وكانت الحامية التركية هناك مؤلفة من فرقتين، وتتكون من قوات اكثرها ذات تدريب قوى ومراس شديد، وتختلف عن حامية الحجاز في أنها على صلات مودة واضحة مع السكان. وكان الهجوم علي عدن متوقعاً، وكان مما يزيد في فرص نجاح الهجوم مجرد موافقة الامام عليه، فكيف اذا اشترك أتباعه فيه؟

اما في المناطق المجاورة للخليج العربي فكانت الضغائن بين أبن الرشيد في شمر وابن سعود في نجد هي التي تتحكم في موقف كل منهما.

وكانا كلاهما يحملان مشاعر العدواة للاتراك، وكانا يتمتعان بما لم يكن يتمتع به الحكام في الجزء الغربي من شبه الجزيرة، فقد كانا السيدين الحاكمين فعلاً في بلادهما، وكانا متحررين من أسر الموظفين الاتراك والحاميات التركية. ولكن حكام شمر - كما رأينا من قبل - كانوا قد استعانوا بالاتراك، فنشأ من ذلك تحالف بين الفريقين لم يقم احدهما باعلان نقضه، ومن أجل هذا فإن المفروض، اذا ما نشبت الحرب، أن ينضم ابن الرشيد حتماً الى جانب الاتراك.

لعل كتشنر كان اكثر ساسة الحلفاء ادراكاً للأخطار الناجمة عن الموقف في البلاد العربية، وسيبقى له ولرونالد ستورز الفضل في أنهما أول من فكر في مواجهة هذه الاخطار بخطوتهما الجريئة بعقد حلف مع مكة. ولقد وُجه منذ ذلك الحين كثير من النقد لتلك السياسة ووُصِفت بأنها سياسة خاطئة وانها كانت مبنية على تقدير غير دقيق لأحوال شبه الجزيرة العربية، وأن بريطانية العظمى راهنت على الجواد الخاسر حينما اختارت الشريف حسيناً ليكون حليفها الرئيسي ضد الاتراك وفضلته على ابن سعود القوي. ان هذا النقد جائر ولا سند له، اذ ان العون الكبير الذي قدمه الحسين لقضية الحلفاء في موقفه من الدعوة إلى الجهاد، كان عوناً لا يستطيع احد سواه تقديمه. وكانت خطوة كتشنر لضمان تأييد الشريف قبل فوات الفرصة «ضربة معلم» تدل على الذكاء وبعد النظر.

وكان موقف الشريف موقفاً فريداً لا نظير له، سواء من ناحية المساعدة العسكرية التي استطاع أن يقدمها ومن ناحية القيمة السياسية لاشتراكه وتدخله. حقّاً كان في شبه الجزيرة العربية زعماء آخرون يتمتعون بسلطة مطلقة على أتباعهم ولهم من القوات العسكرية ما تساوي على الاقل قوات

الحجاز. غير أن الشريف حسيناً كان يتمتع، من وجهة نظر الحفاء، بميزتين كبيرتين لم يكن يتمتع بهما احد من جيرانه.

الاولى: قيمة موقعه الحربي في وسط القوات التركية في شبه الجزيرة العربية، وكان اكثر ما يستطيع أن يقوم به الادريسي في عسير والامام في اليمن هو أن يشلا الحاميات العسكرية المحلية ويجعلاها عاجزة عن العمل، اما ابن سعود فلم يكن على صلة بالقوات التركية. بينما كان الحسين قادراً، بجيشه القبلي الذي يستطيع حشده في الحجاز، على أن يضرب قلب القوات العثمانية في بلاد العرب، ويقطع خطوط مواصلاتها مع الشمال فيعزل بذلك الحاميات المعسكرة في عسير واليمن.

اما ميزته الثانية فهي مكانته الفريدة التي لا تعادلها مكانة شخص آخر في العالم الاسلامي، تلك المكانة التي تستمد قوتها من نسبه ومن منصبه ايضاً. وبينما كانت سلطة جيرانه محصورة في نطاق اراضيهم فان سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده، ويمتد صوته الى الجموع الغفيرة من سكان العالم الاسلامي، فهو حفيد النبي والقيم على الأماكن المقدسة، وهذان الامران اللذان يستوجبان التبجيل وضعاه في منزلة ينفرد بها ولا يطاوله فيها أحد، بلغت من الرفعة بحيث كان يستطيع ان ينازع سلطان الخليفة نفسه في الشؤون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدستين. فقد كان أمير مكة، حاضرة الاسلام ومثابته، ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصم اذنيه عن ندائه وخاصة اذا كان مسلماً عربيّاً. وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس أن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة معرضة للخطر. وهكذا فان مؤازرته ـ في أمر كالدعوة للجهاد ـ كانت عاملاً مهمّاً بل عاملاً حاسماً، ولذلك كان الاتراك

يسعون بلهفة مؤازرته للاتراك. ولذلك فان القول بأن كتشنر عثر على الرجل غير المناسب هو قول لا معنى له. ولم يكن ثمة شخص غيره يستطيع ان يجرد الدعوة الى الجهاد من قوتها الاساسية حينما يمتنع عن تأييدها.

في الشهر الاول من اشتراك تركية في الحرب أعلنت الدعوة الى الجهاد في ثلاث مراحل. المرحلة الاولى حينما اصدر شيخ الاسلام في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) فتوى أعلن فيها ذلك الرئيس الروحي صاحب أرفع منصب ديني في الدولة العثمانية انه فرض عيْن على جميع المسلمين في العالم، ومن بينهم الذين يعيشون تحت حكم بريطانية العظمى وفرنسة وروسية، أن يتحدوا لمقاومة هذه الدول الثلاث عدوة الاسلام، وأن يحاربوها ويحاربوا حلفاءها، وأن يمتنعوا ـ مهما تكن الحال حتى حينما يكونون معرضين لعقوبة الاعدام ـ عن مساعدة دول الحلفاء في هجومهم على الدولة العثمانية والدول الحامية لها وهي ألمانية والنمسة والمجر. والمرحلة الثانية حينما أعلن السلطان بلاغاً للجيش والاسطول، في اليوم الحادي عشر من الشهر نفسه، حض فيه على الحرب من اجل تحرير المسلمين المستبعدين ومن اجل الدفاع عن الدولة المهددة. واخيراً جاءت المرحلة الثالثة في اليوم الثالث والعشرين، حينما صدر بيان للعالم الاسلامي وقعه شيخ الاسلام وثمانية وعشرون عالماً من ذوي المناصب الدينية الكبيرة، وكان البيان مصدَّراً باذن السلطان بنشره، ونص الاذن: « إنا نأمر بأن يوزع هذا البيان على جميع الاقطار الاسلامية». وقد أهاب البيان بجميع مسلمي العالم ـ سواء أكانو من رعايا دول الحلفاء ام لم يكونوا ـ أن يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرتها الفتوى الشريفة، وان يشتركوا في الدفاع عن الاسلام والاماكن المقدسة.

ولم يكن هذا كل شيء. فان هذه البيانات الرسمية الثلاثة أعقبها طوفان من انواع الكتابة المختلفة لتأييدها نشرت في كتيبات وكراريس ونشرات دورية وجميع انواع المطبوعات، وألفت خاصة للتأثير في الجماهير التي تعتنق الاسلام. وكان مؤلفوها من الألمان ومن الاتراك، وقد كتبت بجميع لغات العالم الاسلامي - وانتشرت منها ملايين النسخ في انحاء الدولة العثمانية، وهرِّبت الى مصر والسودان والهند وايران وأفغانستان وما وراءها. وكانت تختلف اختلافاً كبيراً في اسلوبها وفي مضمونها، فكان بعضها يحض جموع الجنود على الفرار من جيوش الحلفاء، وبعضها يدعو الى القتل والاغتيال وغيرهما من الاعتداءات الفردية. وكانت كلها مجمعة على أن الاسلام معرض للخطر بسبب أطماع دول الحلفاء، وان الجهاد في سبيل الدفاع عن الاسلام انما هو فرض أمر الله به كل مؤمن فلا يجوز له التهرب منه.

واوفدت البعوث لتؤيد بالقول واللسان ما دعت اليه هذه الكتابات المطبوعة فتزيد من حرارتها. وكان الرسل من جميع الانواع: من الوعاظ المتجولين، والعلماء، والفقهاء، والمحرضين المحترفين، والمستشرقين الالمان، يرحلون الى جميع الجهات التي يستطيعون الوصول اليها، واستطاع بعضهم التسلل الى مصر والسودان والبلاد الافريقية الاخرى التي كانت تحت حكم الحلفاء. وكانت جهودهم الرئيسية موجهة نحو استمالة الشعوب الاسلامية من غير الاتراك إلى تلبية دعوة الجهاد، مثل: الهنود والافغان والايرانيين، وفي مقدمة هؤلاء جميعاً العرب.

إذ لم يكن المسلمون الاتراك، ومعظمهم من فلاحي الاناضول ذوي الطاعة رقعة جغرافية تمكنهم من مضايقة الحلفاء، فقد وجهت اليهم الدعوة الى

الجهاد بقوة ونشاط لتؤكـد لهـم الواجـب الملقـى علـى عـاتق المسـلمين جميعـاً في الدفاع عن الاماكن المقدسة.

أما في مكة قد كان الشريف حسين يمضي في طريقه بكل حرص وحذر.

وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) في الوقت نفسـه الذي صدرت فيه الدعوة الى الجهاد، فجعله هذا العرض اقرب الى رأي عبد الله منه الى رأي فيصل، ولكنه رأى أن الوقت المناسب للعمل لم يحن بعد. فقـد كـان عليه أولاً ان يجري مباحثات لا بد منها مع العرب القوميين في الشـام والعـراق، ومع جيرانه في جزيرة العرب ليعرف مدى التأييد الذي يستطيع الاعتماد عليـه. وكان بعد المسافات والحيطة اللازمة للمحافظة على سـرية الاتصـالات يتطلبـان شهوراً طويلة للتأني في وضـع الخطـط. ولكـن الاتـراك كـانوا في الوقـت نفسـه يضغطون عليه للحصول منه على تأييده لدعوة الجهاد وعلى مؤازرتـه الايجابيـة. فانهالت عليه الرسائل والبرقيات من القسـطنطينية: مـن الصـدر الاعظـم، ومـن أنور، وطلعت، وغيرهم من كبار الشخصيات. ثم شرع جمال باشا، القائد العـام للجيش الرابع في الشام، في حثه على أن يدعو الى الجهـاد دعـوة صريحـة عامـة، وان يبعث براية الرسول الى دمشق، وأن يحشد جيشاً من قبائل الحجاز.

كان الحسين يبزّ الاتراك في دهائه وسعة حيلته، فسلك معهم سلوكاً يـدل على المهارة الفائقة تمثل في ردوده على مطالبتهم اياه بتـأييد الدعـوة الى الجهـاد، فجاءت ردوده حماسية تكتسي حللاً من النثر المليء بالاطناب والغمـوض الـذي كان الشريف مبرزاً فيه. لقد ورد في رسائله انه سيؤيد الدعـوة الى الجهـاد بكـل قلبه، ويضرع الى الله ان يكللها بالنجاح، وانه يباركها في صمت. اما تأييده لهـا

في العلن فأمر لا سبيل اليه لانه يخشى انتقام الاعـداء وشـرهم، إذ أن الاسـطول البريطاني مسيطر على البحر الاحمر، ومدينة جدة وسواحل الحجاز الطويلة كلها تحت رحمته، فلو أنه أقحم نفسه في الدعوة الى الجهـاد علناً فإن انجلـترة ستنتقم بحصار موانىء الحجاز وربما قذفتها بالقنابل، وبذلك ينقطـع وصـول المؤمـن عـن طريق البحر، فيواجه السكان في وقت قصير.

ازمة في الطعام ستتحول مع الزمن الى مجاعة. فهو يؤيد الدعوة الى الجهـاد بجماع قلبه، ولكنه لا يستطيع اعلان تـأييده، لئـلا تـؤدي المجاعـة في الحجـاز الى ثورة القبائل. وهو واثق أن السلطان، بحكمتـه البالغـة الـتي لا حـد لهـا، سـيقدر حقيقة الامر.

ولم يتزحزح الشريف عن هذا الموقف الحصين، واضطر الاتـراك مكرهـين الى الاذعان لادعائه، ثم دفعه دهاؤه الى التظاهر بالموافقة على طلبـاتهم الأخـرى كلها موافقة ملؤها الحماسة، وأخذ يقترح من حين لأخر تعديلات لهذه الطلبـات لم تخطر لهم على بال. فأمر بأن تُستخرج راية الرسول ـ أي قطعـة القمـاش الـتي عرفت بهذا الاسم ـ من مقرها في المدينة في موكب رائع، وأن ترسل في احتفـال مهيب الى دمشق ليتبرك بها الجيش الذي كان يوشك أن يغزو مصر. واتخـذ مـن الخطوات ما يكفل حشد جيش من المجاهدين من قبـائل الحجـاز، وأرسـل ابنـاءه ليشرفوا على هذا التجنيد وليكون وجودهم دليلاً على اهتمامه بالامر.

واخذ في الوقت نفسه يوفد مبعوثين في الخفاء برسـائل منـه الى الادريسـي والامام يحيي، وابن سعود، وابن الرشـيد، ليسـبر غورهـم ويعـرف موقفهـم مـن الأتراك، وليوضح لهم سبب امتناعه عن تأييد الدعوة للجهاد.

وفي اثناء هذه الشهور (من كانون الثاني (يناير) الى آذار (مارس) ١٩١٥) كان الحسين يتلقى تشجيعاً مستتراً من مصدر بريطاني آخر هو السير ريجينالد ونجت، الحاكم العام للسودان. وكان قد قضى ثلاثين عاماً في حكومة السودان، فاكتسب معرفة وثيقة بالسياسة الاسلامية المحلية المعقدة. ودفع ونجت، على عهدته الشخصية، السيد علي المرغني صاحب اكبر مقام ديني بين العرب في السودان، الى ان يبعث برسالة ودية غير مقيدة بأي تعهد الى الشريف حسين، وقد كتبها بأسلوب يحثه فيه على أن يعلن سياسته. وقد ادرك الحسين المصدر الذي أوحى بهذه الرسالة، فأجاب إجابة ودية صريحة بعض الصراحة تحدث فيها عن الاستبداد التركي، وعن أمله في الخلاص منه، وعن معارضيه في ذلك. فرد عليه السيد علي باقتراح ايجابي، قال انه هو والسردار صديقان، وطلب من الحسين أن يخبره بالطريقة التي يستطيع السردار ان يساعده بها، وسيسعى لديه بما له من دالة عليه لكي يستجيب له. كان هذا الاقتراح سابقاً لأوانه اذ ان الحسين لم يكد حينئذ يبدأ بمشاوراته. فأجابه اجابة فيها تحفظ، واضاف في ذيل الرسالة انه يسره ان يتلقى الاقتراحات التي قد يقدمها «صديقه».

فرد عليه السيد علي قائلاً: لو ان الحسين وضح ما يريد لربما استطاع هذا «الصديق» ان يزوده بالمال والسلاح والذخائر. ولم يمض الحسين في توضيح رغباته ولكن رسله وصلوا بعد ذلك ببضعة اسابيع في نيسان (ابريل) ليعرفوا من ونجت الموارد المتوفرة في السوادن.

لقد شجعت هذه المراسلات الشريف حسيناً تشجيعاً كبيراً بالرغم من انها لم تصل الى نتيجة حاسمة، فقد اظهرت له أن سياسته تلقى تأييد زعيم المسلمين في السودان، ولما كان هذا يعمل بوحي من ونجت ـ كما قدر الحسين

من قبل ــ فان ذلك قوى ثقته في إخلاص بريطانية العظمى في عزمها على محالفته. ونتيجة لذلك فقد أثار الشريف حسين غضب الاتراك عليه بسبب امتناعه عن تأييد الدعوة الى الجهاد التي كان يقصد منها في المقام الاول تهييج العالم العربي وإضرام النار فيه. ومع أن الاعذار التي تذرع بها كانت مفحمة غير انها زادت من غضب الاتراك، فشرعوا يدبرون لعزله وليخلفه امير آخر لمكة يكون أسهل قياداً منه، وصدرت الاوامر إلى والي الحجاز ليمهد السبيل سرّاً لاعتقاله بحيث لا يثير اعتقاله ثائرة القبائل. وفي الوقت نفسه وجهت اليه دعوة تفيض بالرقة لزيارة دمشق لكي يتباحث مع جمال باشا.

وكانت جميع الجهود تبذل خلال ذلك لخداع العالم العربي وحمله على الاعتقاد بأن شريف مكة قد بارك الدعوة الى الجهاد. وكانت الاوامر تقضي بأن تُعلن هذه الكذبة بدون تحفظ في خطبة الجمعة في جميع مساجد بلاد الشام والعراق، جمعة بعد جمعة. وحُمِلت الصحف على أن تقوم بدورها في هذا المجال، فتكررت فيها البيانات التي تتضمن أكاذيب جديدة. وحسبنا مثل واحد للتوضيح، فقد نشرت صحيفة «الاتحاد العثماني» التي تصدر في بيروت في عددها المؤرخ ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) البيان التالي:

«لقد نشرنا امس نقلاً عن مصادر رسمية أن الامير عبد الله ابن شريف مكة قد تطوع للعمل في سبيل الجهاد ومعه فرقة كبيرة من رجال القبائل الحجازية. وبوسعنا الآن أن نؤكد ان شريف مكة قد اعلن الجهاد في جميع انحاء الحجاز ملبياً في ذلك رغبة الخليفة، وان القبائل يستجيبون من كل ناحية لهذه الدعوة بأسلحتهم الكاملة».

كانت صحف تلك الفترة طافحة بمثل هذه البيانات. كما لفقت قصة

مؤداها أن الشريف قد قبل أن يزور دمشق «ليتباحث مع جمال باشا وليعرب عن اخلاصه للدولة العلية». ولكن الحسين كان قد عاش في القسطنطينية زمناً طويلاً جعله يعرف دون اي ارتياب ما يمكن ان تضمره له زيارة دمشق.

واتبعت الوسائل نفسها في العراق، فأعطيت الأوامر لكثير من ذوي المناصب الدينية من السنّة والشيعة ليصدروا نشرات تحض على الجهاد. وأقيمت مراسم دينية عرضت فيها بعض الآثار الباقية في اضرحة النجف وكربلاء لاثارة حماسة الناس، مثل: السيف الذي يقال انه كان منذ ثلاثة عشر قرناً سيف الشهيد الحسين ابن امير المؤمنين علي، وشيء آخر يستدعي الشك في صحته اكثر من هذا ـ وهو العلم الذي يزعمون انه راية العباس عم النبي. واستخدمت الصحف، وخاصة صحيفة «صدى الاسلام» التي تصدر في بغداد، وسائل لنشر مثل هذه القصص والبيانات، كما كانت الحال في صحف بلاد الشام.

وأرسلت الرسل الى الحكام العرب في شبه الجزيرة العربية يقدمون لهم الهدايا وصنوف المجاملات. وأثمرت المباحثات فوراً مع ابن الرشيد، فقد كان تواقاً الى التحالف مع الاتراك ولو على الاقل ليضمن تأييدهم له على ابن سعود الذي كان يخشاه. وهذا ما كان كذلك مع الامام يحيي الذي كان يعرب بكل وسيلة عن عزمه على البقاء حليفاً للاتراك.

اما الادريسي فلم يكن ثمة اي امل في استمالته نحو الاتراك، ولذلك اغفلوه. وكذلك كان الشيخ مبارك بن الصباح حاكم الكويت، الذي كانت تربطه معاهدة ببريطانية العظمى من سنة ١٨٩٩، فما ان اشتركت تركية في الحرب حتى أبرم مع بريطانيا حلفاً عسكريّاً. اما ابن سعود فقد وفدت عليه

الرسل ولكنهم لم يستطيعوا ان ينالوا منه وعداً واضحاً. فقد احتج بخوفه من احتمال مهاجمة بريطانية للساحل الذي يقع تحت حكمه على خليج العرب. أما حقيقة الامر فهي انه كان يقوم باتصالات مع حكومة الهند بل كان يعتبر في الواقع متحالفاً معها.

وحينما كتب اليه الشريف حسين في مطلع ذلك العام ينبئه برفضه تأييد الدعوة الى الجهاد، بعث اليه يثني على موقفه ويستصوبه. هؤلاء هم الحكام الخمسة الرئيسيون المسيطرون على جزيرة العرب: ابن الرشيد والامام يحيي آزرا تركية مؤازرة فعالة، اما الشريف وابن سعود والادريسي، فقد مالوا الى ما عرضته بريطانية عليهم، واخذوا ينتظرون أن تتحول هذه العروض بحيث تتجسد في روابط وثيقة قبل ان يعلنوا الثورة.

ولم تقتصر جهود تركية على آسية، بل عملت على نشر دعوة الجهاد في الاقطار العربية بافريقية. فتسللت الرسل خفية الى مصر والسودان وطافوا بأنحاء وادي النيل يهمسون بدعوتهم ويحضون على الثورة.

وأوفدت بعثة يرأسها اخو انور باشا إلى زعيم السنوسيين ببرقة تحمل له الهدايا وتعده بالجاه والمناصب. ولا يُدرى على وجه الدقة مدى تغلغل رسل الاتراك في اواسط افريقية، ولكن آثار جهودهم ونشاطهم اكتشفت بعد ذلك في السودان وفي الغرب حتى دارفور.

وفي بلاد الشام وعندما ارسلت راية النبي صلى الله عليه وسلم في شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤، أعلن عنها في اوسع نطاق ممكن. ففي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) نشر بلاغ في صحف بلاد الشام فحواه انه نتيجة لاعلان

الجهاد الاكبر جرى احتفال مهيب عند قبر رسول الله في المدينة شهده عشـرون الفاً من المؤمنين أخرجت اثناءه راية النبي بما يليق بها من التبجيل تمهيـداً لنقلهـا الى دمشق حتى تبارك الجيش الباسل. وفاز بشرف نقل الراية عميد آل الرسول واكبرهم سنّاً السيد علوي بافقيه وابنـاؤه الثلاثـة، فبعث ببرقيـة الى جمـال باشـا نشرت في الصحف في اماكن بارزة، ونصها:

«بالرغم من اني تجاوزت السبعين، وتلبية لما فرضه الله علينا من الجهاد، فـاني اتقـدم ومعي ابنائي الثلاثة لنجاهد في سـبيل الله عز وجل حاملاً باحدى يـديّ راية الرسول المشـرفة، وبـاليد الاخرى كتاب الله الذي فرض الجهاد على المؤمنين كافة. إن هتافات عشرين الفاً من المسـلمين ودعواتهم ترن في اذني وأنا اتوجه الى دمشق وملء نفسي الاخلاص والرغبة في أن اموت شـهيداً لإعلاء كلمة الله. إن ارض الحجاز ومن فيها من القبائل جميعاً قد لبت نداء خليفتنا المعظم».

وقـد وصلـت الرايـة وموكبهـا بالقطـار الى دمشـق في ١٥ كـانون الاول (ديسمبر)، وقد استقبلتها المدينة بكل ما تستطيعه من مظاهر الحفـاوة والتعظيـم. فوقف في المحطة ينتظر وصول القطار كل مـن جمـال باشـا وهيئـة اركـان حربـه، والوالي وأعضاء مجلسه، وكبار ذوي المكانة الدينية، ومندوبين عن بقية انحاء بـلاد الشام، وجمهور غفير من الاعيان. فلما وقف القطار ورفعت الرايـة علـى المنصـة ادى حرس الشرف المؤلف من كبار ضباط الجيش التحيـة لهـا برفـع اسلحتهم، كما ادى جمال التحية ثم ركع وقبل طرفلها، بينمـا كـان الجمهـور يهتـف «الله اكبر». ثم سار الموكب وقد اشترك فيه وحدات عسكرية من مختلف الاسلحة بموسيقاها، وخصص مكان بارز في الموكب لجماعة قليلة من الجنود المجهولين قيل عنهم الهم هاربون من الجيش المصري.

ولم ينته موكب الراية في دمشق، بل نقلت في احتفال مماثل الى بيت المقدس، وهي اقدس مدينة عند المسلمين بعد مكة والمدينة.

وتوقف الموكب اثناء سيره في نابلس لتأدية صلاة الجمعة، ولينال حامل الراية المسن قسطاً من الراحة. فقد اضنته الرحلة واصبح وصفه لها بأنها تضحية عظيمة واستشهاد وصفاً مطابقاً للواقع. ثم وصلت الراية بيت المقدس في العشرين من كانون الاول (ديسمبر)، واقيم لاستقبالها حفل كبير في الساحة الواسعة المحيطة بقبة الصخرة برئاسة جمال باشا ايضاً، وختم الاحتفال باقامة الصلاة في المسجد الاقصى. ووضعت الراية هناك موقتاً لاخراجها في اليوم الذي سيزحف فيه الجيش على مصر.

وبعد ثلاثة ايام توفي السيد علوي فحقق بذلك وعده، فصدرت الاوامر الى الوعاظ بأن ينتشروا بين الناس يشيدون بموته ويعتبرونه قدوة تحتذى ويعظمون من شأنه ويعدونه نذيراً للأعداء وشؤماً عليهم.

وبُذلت جميع الجهود لجعل موكب الراية ذا أثر فعال في اثارة النفوس، وقد أضيفت اليه مظاهر أخرى متعددة ليظهر في مظهر الرمز الصادر من مكة. ولم تنطلِ الخدعة الا على قليلين: اذ اخذ الناس يتساؤلون عن السبب في تخلف الشريف عن حضور الموكب اذا كان قد أيد حقّاً الدعوة الى الجهاد، ولو فرض وجود ما يدعو الى تخلفه في مكة فلماذا لم ينيب عنه احد ابنائه؟ ويذكر احد الذين عاصروا هذه الحوادث وشهدوها ان الشك بلغ في نفوس بعض الناس مبلغاً جعلهم يتهامسون بأن تلك القطعة من القماش ليست الراية البتة، وانما هي قطعة من احد الاكسية التي تزين قبر الرسول. ولم تبلغ حادثة الراية ـ في جملتها ـ

ما كان يقصد منها، وقيمتها التاريخية الرئيسية في انها توضح الامل الكبير الـذي كان الاتراك (ومـن ورائهـم الالمـان) يعلقونـه علـى نجـاح الدعـوة الى الجهـاد في الاقطار العربية.

أما على الصعيد العسكري فقد غدت أوربا منقسمة ألى جبهتين متعاديتين ومتحاربتين بحيث امتد لهيب الحرب فيها إلى الـدول الأخـرى بعدئـذ فاشـتركت فيها كل من تركيا وبلغاريا والجبل الأسود وإيطاليا واليابان والبرتغـال ورومانيـا واليونـان والولايـات المتحـدة الأمريكيـة. فكـانت هنـاك دول الحلفـاء أو دول الوفاق من جهة، ودول المحور أو دول المتوسط من جهة ثانية.

فبعد إعلان الحرب الأوروبيـة ببضعـة أسـابيع، أقدمـت تركيـا علـى قطـع علاقاتها الديبلوماسية مـع دول الحلفـاء ٢ تشـرين الثـاني ١٩١٤م منضمـة إلى دول المحور. وكان أول هجوم قامت بـه القـوات الحليفـة الإنكليزيـة والفرنسـية على أراضي تركيا، في الخـامس والعشـرين مـن نيسـان ١٩١٥م، حيـث نزلـت القوات الإنكليزية على الساحل العربي من شبه جزيـرة غـاليبولي فقابلهـا هنـاك قائد الفرقة التاسعة عشرة مصطفى كمال الذي استطاع الوقوف بوجههـا مانعـاً إياها من التقدم إلى أمام المراكز التي نزلت فيها على قمة شونيك باير تلك القمة التي تعتبر مفتاح مضيق الدردنيل وبالتالي مفتاح العاصمة التركية.

وفي التاسع من آب ١٩١٥م قـام مصطفـى كمـال بهجـوم كاسـح علـى القوات الإنكليزية المتمركزة في مواقعها فاقتلعها من خنادقها، مرغماً إياها علـى الإبتعاد وإخلاء القمة المذكورة بعد أن أوقع فيها مـا ينـوف عـن العشـرة آلاف قتيل بما فيهم ٣٧٥ ضابطاً؛ وحين حاول القائد الإنكليزي السير جون هاملتون،

استعادة تلك المراكز، من الجيش التركي، كان الاخفاق من نصيبه على مرتين متتاليتين، خسر فيها عدداً كبيراً من جيشه ٢١ و٢٢آب.

أما القوات الفرنسية التي كانت نزلت على الساحل الآسيوي في القطاع الجنوبي من قمة هيلّليس - Cap-Helles بذات الوقت مع القوات الإنكليزية المشار إليها، فقد تسمّرت في مكانها ولم يكن بمقدورها التقدم بخطوة واحدة نحو الخطوط التركية أو اجتياز المسافة القصيرة التي تفصلها عن هدفها الأقرب إكريتيا - Krithıa، وذلك بفضل المقاومة التركية الباسلة.

في تلك الأثناء ونظراً لما أبداه مصطفي كمال من براعة حربية في مجابهته للإنكليز، صدر مرسوم بترقيته إلى رتبة باشا أي جنرال وعُهد إليه بقيادة كامل جبهة أنافورطة إلا أن الانكليز لم يكفّوا عن محاولاتهم في الهجوم للعودة إلى مراكزهم السابقة، فكان مصطفى كمال يكبّدهم في كل مرة خسائر كبيرة ويردّهم على أعقابهم، إلى أن اضطروا بالنتيجة لإخلاء شبه جزيرة غاليبولي بالتدريج، وهم خائبون ٣١ كانون الأول ١٩١٥م - ٨ كانون الثاني ١٩١٦م، فخلصت منهم العاصمة إستانبول، بفضل جهود مصطفى كمال.

وفي ذلك الوقت كان الجيش الروسي قد استولى في القوقاز القبق على عدة مدن منها: وان – Van وبتليس وموش – Muṣh وقلعة أرضروم، فعُين مصطفى كمال لقيادة الجيش السادس عشر في القوقاز، ثم لقيادة الجيش الثاني في ديار بكر. وكان من معاونيه الجنرال كاظم قره بكير والكولونيل عصمت. وفي ربيع وصيف ١٩١٧م كان الجيش الروسي قد انسحب من القوقاز بسبب الثورة التي قامت في الروسيا؛ بحيث تمكن مصطفي كمال من استعادة المدن التي

كان الروس قد احتلّوها؛ وفيما كان يواصل تقدّمه نحو باطوم لأخذها، تلقى أمراً من الباب العالي للذهاب إلى سوريا مع كل مايستطيع تهيئته من جيوش وأعتدة لمجابهة الإنكليز ومقاومتهم، حيث نزلت جيوشهم في البصرة ثم في بغداد، وهم على طريق الموصل، في حين كان جيش إنكليزي آخر بقيادة الجنرال اللنبي يتجمع في مصر للزحف إلى سوريا عبر سيناء وفلسطين.

وفي ذلك الوقت بالذات، أعلن شريف مكة الأمير حسين، استقلال بلاده عن الدولة التركية كما سنرى لاحقاً.

ولقد كانت المهمة التي كلّف بها مصطفى كمال، تقتضي احتلال بغداد للحيلولة دون تمكين الجيشين البريطانيين من الإتصال ببعضهما.

وبوصوله إلى حلب، كان الجنرال الألماني فون فالكنهاين بصفته قائداً للقوات التركية التي شكلت حديثاً في الشرق (يِلْدِرِم) يستقبل مصطفى كمال، بطريقة لم ترق له أي لمصطفى كمال فحصلت بين القائدين خلافات في وجهات النظر من حيث تنفيذ المهمة المنوطة بهما، مما جعل الباب العالي يستدعي القائد التركي إلى العاصمة إستانبول، ويعطّيه إجازة مرضية، لمنعه من العمل.

ولكن بعد وفاة السلطان محمد الخامس واعتلاء ولي العهد الأمير وحيد الدين عرش السلطنة والخلافة باسم محمد السادس في شهر تموز ١٩١٨م عُيّن مصطفى كمال قائداً للجيش السابع في سوريا آب ١٩١٨م.

فاجتمع في فلسطين بالقائد الألماني ليمان فون ساندرس الذي أخذ مكان القائد فون فالكنهاين غير أن الجيش الإنكليزي، بمعاونة القوات العربية التي كان

يقودها الأمير فيصل بن حسين، تمكن من الدخول إلى فلسطين ودحر الجيوش التركية وفيالق الجيش الألماني الأسيوي Assia Korps التي انكفأت متراجعة إلى دمشق ومنها إلى حلب ٣٠ أيلول ١٩١٨م حيث قام مصطفى كمال، بنفسه بأعداد الخطوط الدفاعية على بعد ١٥ كيلومتراً من المدينة الأخيرة.

في ذلك الوقت كانت القوات البريطانية، وعلى رأسها القائد اللنبي ويرافقه، لورنس، تدخل مدينة دمشق أول تشرين الأول وبمعيتها فيلق من الفرسان الدوروز بأمرة سلطان الأطرش، ثم تترك دمشق باتجاه حلب، لملاحقة الجيش التركي والألماني؛ ولكن قبل المجابهة بين الجيش الإنكليزي والجيش التركي والألماني، قرب الحدود التركية، أعلنت هدنة مودروس بين الدولة التركية والحلفاء فتوقفت الحرب بين الفريقين ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨م.

عقب هذه الهدنة تألفت في استانبول حكومة جديدة برئاسة عزت باشا، ومن أعضائها فتحي ورؤوف وفوزي، فيما حُلّت لجنة الإتحاد والترقي وغادر طلعت وجمال إلى الخارج وتوجّه أنور إلى تركستان حيث لقي مصرعه أثناء نضاله مع الباصمق ضد البلشفيك الروس، فيما بعد.

هدنة مودروس :

لقد كان لدخول الولايات المتحدة، في الحرب العامة، دور كبير في ترجيح كفة ميزان الحلفاء، بالرغم من خروج الروسيا منها، تشرين الأول ١٩١٧م وحين تمكن الحلفاء من اختراق خط هند تبرغ الدفاعي، بعد معركة المارن المظفرة وغيرها من المعارك في مقدونية ١٥ أيلول ١٩١٨م وفلسطين، اضطرت بلغاريا لإلقاء السلاح ٢٩ أيلول كما فعلت ذلك تركيا ٣٠ تشرين

الاول. ثم خرجت من الحرب دولة النمسا ـ المجر، مفككة إثر إندحارها في معركة فيتوريو ت فينيتو أمام الجيش الإيطالي ٣ تشرين الثاني.

أما المانيا فإنها بمقتضى هدنة ١١ تشرين الثاني رأت نفسها مرغمة لقبول جميع الشروط المفروضة عليها من قبل الحلفاء. ولدى افتتاح مؤتمر الصلح في باريس ١٨ كانون الثاني ١٩١٩م كانت هناك ٢٧ دولة ممثلة فيه. وبعد المفاوضات الطويلة جرى توقيع معاهدة فرساي Versailles في ٢٨ حزيران ١٩١٩م التي فرضت على ألمانيا تسليم أساطيلها البحرية وعتادها الحربي، وإخلاء الضفة اليسرى من نهر الرين - Rhin التي احتلّها الحلفاء.

هذا وقد كان من نتيجة توقيع تركيا على هدنة مودروس في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨م أن أصبحت تحت حكم الحلفاء الذين احتلّت جيوشهم جميع مرافقها وممتلكاتها، ووضعوها تحت المراقبة. فالفرنسيون احتلّوا ولاية أضنه والإنكليز سمسون ومرسيفون وأورفه ومرعش وعينتاب، والإيطاليون انطاليا وقونية وأكشهير وأفيون قره حصار، واليونانيون كانوا على استعداد للدخول إلى إزمير وضواحيها، وذلك تنفيذاً لأحكام المادة السابعة من هذه المعاهدة التي تنص: على أنه عند حصول أي تهديد لقوات دول الوفاق، فلهذه القوات الحق باحتلال ما تراه مناسباً من النقاط الحربية في البلاد.

وهكذا وقعت استانبول تحت الإحتلال المشترك للحلفاء بقيادة الأميرال كالثورب بصفته مندوباً سامياً تعاونه لجنة ثلاثية، تضم مندوباً عن كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

وبتاريخ ٤ أذار ١٩١٩م أصدر السلطان محمد السادس مرسوماً بتعيين

صهره الداماد فريد باشا رئيساً للحكومة التركية، بعد أن أمر بحلّ المجلس العمومي؛ وكان حسين رؤوف باشا وزيراً للبحرية فيها. أما مصطفى كمال فلم ينل نصيبه منها، وذلك لرفض السلطان إدخاله فيها لأسباب خاصة.

وقد أدّى وجود الجيوش الحليفة في العاصمة التركية، إلى تحاسد قادتها وتنابذهم مما جعل الأتراك ينظرون إليهم كمعتصبين للبلاد؛ فكان ذلك حافزاً لهم لإنماء روح المقاومة ضد أعدائهم، فقامت في الأناضول مجموعات وطنية أخذت على عاتقها تنظيم المقاومة الوطنية، كما تألفت عدة منظمات سرّية في العاصمة نفسها بالرغم من جواسيس الحلفاء الكثر، الذين كانوا بالمرصاد لكل حركة وطنية وكان عصمت باشا وحسين رؤوف باشا من جملة الشخصيات البارزة التي كانت تقدّم المساعدات لهذه المنظمات السرية لأن أغلب رؤسائها كانوا من الضباط الأتراك السابقين.

ويشار هنا إلى أن الجنرال قره بكير، رفض الأوامر المعطاة له من السلطان فيما يختص بحلّ الفرق الست التي كانت بقيادته على الحدود القفقاسية أو نزع السلاح منها ٣ أيار ١٩١٩م. وهذا ما دعا المندوب السامي، ممثل الحلفاء، للطلب من السلطان محمد السادس، وضع حدّ لتلك المنظمات التي تعيث فساداً في البلاد وتشيع الفوضى فيها.

وكأن القدر أراد لتركيا عودة الحياة إليها، فسخّر لها مصطفى كمال لينفخ الروح فيها، ذلك أن السلطان، وبعد الإلحاح من قبل رئيس الحكومة الداماد فريد باشا، وافق على تعيين مصطفى كمال مفتشاً عاماً في المنطقة الشمالية، وحاكماً عاماً على المناطق الشرقية، مع منحه أوسع الصلاحيات

لتنفيذ مهامه، وأولاها مهمة القضاء على تلك المنظمات، وذلك حفاظاً على مصلحة تركيا كما جاء في مرسوم التعيين.

وفي التاسع عشر من أيار ١٩١٩م كان مصطفى كمال، قد وصل إلى سمسون عن طريق البحر، فانتقل منها إلى أماسيا حيث جعل من هذه المدينة الأخيرة مركز عمله، بعد أن تخلّص من مراقبة جواسيس الحلفاء الذين كانوا يلاحقونه في حلّه وترحاله. في تلك الأثناء وبالتحديد في الخامس عشر من أيار ١٩١٩م، أقدم اليونانيون على إنزال جيشهم بالبالغ عدده عشرين ألف جندي، في مرفأ إزمير بموافقة الحلفاء وبدعم منهم واحتلوه. عند ذلك قرر الوطنيون في أرضروم، بطلب من وزير البحرية السابق حسين رؤوف، المستقيل من منصبه وقتذاك، القيام بالدعوة إلى مؤتمر عام في سبيل الدفاع عن البلاد ولدى علم مصطفى كمال بهذه الدعوة أراد التحقق من موقف القادة العسكريين بهذا الشأن؛ فدعا إليه رأفت قائد الفرقة في سيواس، وعلي فؤاد قائد الفرقة العشرين في أنقرة والوزير السابق حسين رؤوف ١٨ حزيران وقد تخلّف عن تلبية دعوته، بعض القادة ومنهم.

كاظم قره بكير قائد جيش أرضروم وجعفر طيار قائد جيش أدرنة وعدنان قائد جيش قونيه. وبعد تبلغ هؤلاء القادة نص المقررات التي اتخذت في الإجتماع مع مصطفى كمال، وافقوا عليها برمتها ومؤداها كما يلي:

تأليف حكومة مؤقتة في الأناضول لتأسيس سلطة جديدة، طالما أن السلطان وحكومة الأستانة، لا يزالان خاضعين لأمرة الإنكليز.

وقد توافق الجميع على وجوب الدعوة إلى مؤتمر عام يعقد في سيواس في الرابع من أيلول ١٩١٩م.

وفي غصون ذلك كان قد انعقد مؤتمر في أرضروم ٢٣ حزيران ١٩١٩م اتخذت فيه المقررات التالية وهي تنص من جملة ما تنص على ما يلي:

«الحفاظ على سلامة الوطن بحدوده القومية، ومقاومة العدو المحتلّ، ودعوة القوى الوطنية للدفاع عن الأمة. وإذا كانت حكومة السلطان غير جديرة بالقيام بواجباتها، فلتقم حكومة مؤقتة تنهض بالعبء».

وقد توافد لحضور هذا المؤتمر ٥٤ مندوباً يمثلون المناطق الشرقية، وترأسه مصطفى كمال، وعلى إثره أصدرت الأوامر إلى جميع القادة العسكريين بعدم تسليم الأسلحة والذخائر إلى لجان المراقبة الحليفة، وبدعوة السلطات المدنية لإقامة المهرجانات احتفالاً بانخراط المتطوّعين في سلك المقاومة، وإرسال برقيات الإحتجاج للسلطات في العاصمة، على الإحتلال اليوناني لمدينة إزمير.

ومن البديهي أن يكون مسلك مصطفى كمال على هذا النحو بصفته ممثلاً للسلطان، قد أقلق هذا الأخير فطلب من الصدر الأعظم الداماد فريد، إصدار الأوامر بدعوة مصطفى كمال للعودة فوراً إلى العاصمة، لإحالته على المجلس العدلي جزاء خيانته للوطن.

ولما تلقى مصطفى كمال البرقية الرسمية من الباب العالي بوجوب عودته إلى العاصمة أجاب عليها مبرقاً للسلطان محمد السادس شخصياً من أرضروم، يطلب إليه الإنضمام إلى الحركة الوطنية، وقيادة المقاومة ضد العدو المحتل. إلاّ أن السلطان ردّ عليه مكرّراً أوامره له بالعودة إلى استانبول؛ فما كان من مصطفى كمال إلاّ الإجابة بقوله: «سأبقى في الأناضول حتى يستعيد الوطن كامل استقلاله». وهكذا لم يرَ السلطان محمد السادس، أن موقف مصطفى

كمال من شأنه أن يفيد الوطن، فقضى بعزله من منصبه الإداري والعسكري معاً، وأصدر الأوامر إلى قائد الجيش الثاني في أرضروم كاظم قره بكير، بالقبض عليه وإرساله إلى العاصمة، والعمل على حلّ المؤتمر المنوي عقده في سيواس بتاريخ ٤ أيلول ١٩١٩م.

إلاّ أن أوامر السلطان محمد السادس بقيت بدون تنفيذ، ذلك أن القائد كاظم قره بكير، تضامن مع مصطفى كمال فمزّق البرقية المرسلة إليه بهذا الشأن وكان وفياً لزميله السابق فبقي إلى جانبه.

وفي هذا الجوّ الوطني الحماسي قام مصطفى كمال بتهيئة مؤتمر سيواس الذي انعقد في موعده برئاسته، فحضره مندوبون عن المناطق الشرقية والرّوملّلي، وتتابعت جلساته حتى الثالث عشر من أيلول، حيث انتهى بإصدار مقرّرات جاءت متفقة مع مقررات مؤتمر أرضروم السابق بالنتيجة، إنما تميزت عنها من حيث مفهوم معنى الأمة والمملكة. ولدى اجتماع المؤتمر، اتصل بالمؤتمرين ما يؤكد بأن السلطان محمداً السادس كلّف حاكم ملاّطيا ـ Malatie علي غالب، بالتوجّه إلى مدينة سيواس بقوة كردية لفضّ المؤتمر واعتقال جميع أعضائه، وعليه فقد طلب هؤلاء الأعضاء من مصطفى كمال، التصدّي لقوات السلطان بالطريقة التي يراها، فنزل عند طلبهم، وبالإتفاق مع كاظم قره بكير، قاد قوة من الجيش الذي لم ينزع سلاحه، قاصدً ملاّطياً، حيث قضى على القوة الكردية، وطرد الحاكم علي غالب من الولاية، ثم عاد بسرعة إلى سيواس، فأسس لجنة تنفيذية برئاسته وأحالها من ثم إلى حكومة مؤقتة، الغاية منها، مجابهة حكومة الباب العالي. ومن هنا تمكن من بسط نفوذه في طول الأناضول وعرضه، وبذلك توصل إلى قطع كل اتصال مع حكومة العاصمة. ونتيجة

لذلك، لم يرَ السلطان محمد السادس بدّاً من تنحية الصدر الأعظم الداماد فريد، وتأليف حكومة جديدة تحت رئاسة علي رضا باشا، معلناً إجراء انتخابات جديدة للمجلس العمومي ٢ تشرين الأول ١٩١٩م.

وكان مصطفى كمال بعد ذاك قد انتقل مع حكومته من سيواس إلى أنقرة ٢٧ كانون الأول ١٩١٩م. ثم بعد إجراء الانتخابات التي فاز فيها حزب الاستقلال الوطني بأكثرية ساحقة، دعا السلطان محمد السادس إلى عقد جلسات المجلس في العاصمة إستانبول، في حين كان مصطفى كمال يمهّد ليكون مركزه ومقرّه في أنقرة؛ وكان هو قد نجح في تلك الانتخابات: إلاّ أن النواب خالفوا رأيه وانضموا إلى رأي السلطان، فاجتمع المجلس في العاصمة، ولم يكن مصطفى كمال في عداد الحضور.

وبتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٠م أقّر المجلس، الميثاق الوطني ميثاق مليّ الذي أكّد مقررات أرزروم وسيواس بمطالبته بالإستقلال والحرية التامّين لجميع الأقاليم الآهلة بأغلبية تركية، على أن يتقرر مصير الأقاليم العربية عن طريق الاستفتاء، مع احترام حقوق الأقليّات حيثما كانت، كما هو منصوص عليه في معاهدتي: فرساي وتريانون.

وإذ أخذت حماسة النواب الوطنيين تتصاعد وتعلو بصور مُلحّة في المجلس للمطالبة بإلغاء الإمتيازات الأجنبية جميعها، وبرفع المراقبة عن دوائر الدولة، ووضع حدّ للتجاوزات التي تحصل في البلاد من قبل الحلفاء، فإن هؤلاء الأخيرين، لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه تمادي النواب في مطاليبهم الوطنية، فعمد ممثلهم المفوض السامي الإنكليزي، إلى إرغام الصدر الأعظم علي رضا، على

الإستقالة من منصبه ٧ أذار. ثم أعطى أوامره للجيش الإنكليزي البالغ عدده مائة ألف جندي، بالنزول في بيراوغلاتا مع محاصرة العاصمة وتطويقها، واعتقال ما ينوف عن مائة وخمسين نائباً بينهم حسين رؤوف وكبار أعضاء الحزب الوطني الذين جرى إبعادهم إلى مالطة تحت الحراسة العسكرية. ثم عمل على إغلاق أبواب المجلس النيابي وختمها بالشمع الأحمر، ووضعها تحت المراقبة، بعد أن قام الجيش المحتلّ بإطلاق النيران على جماهير الشعب التركي فأصاب المئات منه قتلاً وجراحاً، معلناً حالة الطوريء في العاصمة إستانبول، وممعناً في مطاردة باقي النواب واعتقال عدد كبير منهم ومن الشخصيات السياسية الوطنية البارزة؛ فيما تمكن بعض النواب من الفرار إلى الجبال وإلى الأناضول ومنهم عصمت وفوزي اللذان استطاعا خفية العودة إلى أنقرة، حيث كان يقيم مصطفى كمال ١٦ أذار. وهكذا لم يقدّر لمجلس النواب التركي في العاصمة الانعقاد فترة قصيرة بلغت الشهرين وثلاثة عشر يوماً.

وعلى إثر هذه الأحداث، أعيد الداماد فريد إلى منصب الصدارة العظمى ٥ نيسان. ثم أصدر السلطان محمد السادس إرادة سنية اعتبر بموجبها مصطفى كمال وأعوانه في عداد الخارجين على القانون والمنشقين، ويستحقون الموت، مستجيباً بذلك إلى إرادة الإنكليز والحلفاء المحتلين، الذين كانوا يمسكون بزمام الحكم في استانبول.

بعد ذلك، وبسبب انحلال المجلس النيابي وانتقال معظم النواب إلى أنقرة، وبمبادرة من مصطفى كمال، تقرّر إجراء انتخابات جديدة لإقامة جمعية وطنية كبرى تتمتع بصلاحيات فوق العادة، وجرت تلك الانتخابات فاجتمع النواب الجدد وعددهم يبلغ ثلاثمائة وخمسين نائباً في أنقرة، حيث صار انتخاب لجنة تنفيذية برئاسة مصطفى كمال لإدارة الحكم في تركيا ٢٩ نيسان ١٩٢٠م.

ولم يكن السلطان محمد السادس ليرضى بمثل هذه المخالفات التي تحدّ من صلاحياته، فصمّم على التخلّص ممّن كان يعتبرهم في عداد العصاة حسب رأيه وعلى رأسهم مصطفى كمال، فكلّف وزير الحربية سليمان شوكت باشا، بتشكيل قوة غير نظامية سمّاها جيش الخليفة مهمتها مطاردة هؤلاء الوطنيين والقضاء عليهم جميعاً. وطلب من الشعب التركي مؤازرته ضد الكفرة الذين يزمعون منع المؤمنين من ممارسة طقوسهم الدينية، والحيلولة دون إتباع أركان الإسلام. فكان لنداء السلطان محمد السادس صدى بعيد لدى الرأي العام التركي المسلم، وقامت جماهير الشعب المتزمتة والمتعصبة، في أغلب نواحي البلاد، وبتحريض من رجال الدين، بمهاجمة أنصار الوطنيين في المدن والجبال والقرى، بحيث وقعت حرب داخلية بين الأتراك، من مناصري الوطنيين وتابعي السلطان، ذهب ضحيتها عدد كبير من المواطنين استمرت مدة طويلة.

وفي تلك الأثناء كان العدوّ ما يزال جاثماً على أرض الوطن. ففي الجنوب الغربي من تركيا كان الأتراك يواجهون الفرنسيين في قيليقية؛ وفي الغرب، وسّع اليونانيون حدود البقاع المحتلّة منهم ٢٠ حزيران ١٩٢٠م وأحرقوا القرى التركية أثناء تقدمهم. وفي الشرق تقدم الأرمن مخترقين الحدود لاحتلال المناطق التي وعدهم بها الحلفاء، بواسطة القوة. وهكذا كانت البلاد تشهد حربين داخلية وأجنبية، وحكومة أنقرة مهدّدة بالزوال من كل الجهات. وفجأة انتشرت الإشاعات بأن المعاهدة التي فرضها الحلفاء على السلطان محمد السادس هي مذلّة لتركيا وتقضي على كيانها بالموت. وبالفعل فإن المندوبين الأتراك قد اضطروا بتاريخ ١٠ آب ١٩٢٠م لتوقيع معاهدة سيفر ـ Sevres تحت ضغط الحلفاء وتهديدهم لهم بطرد بلادهم من أوروبا كلياً في حال عدم توقيعهم عليها.

وتنص هذه المعاهدة على ما يلي: تقسيم الأراضي التركية بتجريدها من كورد ستان وتراقيا، ومنطقة إزمير وسوريا والبلاد العربية وما بين النهرين، وتحويلها إلى دولة أناضولية صغيرة محصورة بين أرمينيا واليونان، بالإضافة إلى إخضاع البوسفور والدردينل لرقابة لجنة دولية.

وفي الوقت نفسه تمّ الاتفاق بين الحلفاء على أن تعطى قيليقية وكوردستان الجنوبية إلى فرنسا، والأناضول الجنوبي حتى منطقة إزمير إلى إيطاليا.

وبعد توقيع هذه المعاهدة التي وافق عليها السلطان محمد السادس رغم كل ماحوته من نصوص مذلّة لتركيا، قامت التظاهرات التأييدية للوطنيين وبخاصة لمصطفى كمال، وأيّدتها عاصفة من الإستياء في العالم الإسلامي كله وعلى الأخص لدى مسلمي الهند الذين كان على إنكلترا أن تراعي شعورهم فأنذروها مهدّدين بأعمال عدوانية. أما مصطفى كمال فإنه حين علم بنصوص المعاهدة المذكورة أخذ منه الغضب كل مأخذ ولكنه تماسك وحافظ على رباطة جأشه كما هو شأنه في الملمات الداهمة، فسارع إلى توجّيه بيان إلى الشعب التركي أظهر فيه وجهة نظره، واتصل بمختلف المناطق طالباً تأييده فيما يقوم به من إجراءات؛ فتقاطرت الوفود إليه، من شتى الأنحاء، رجالاً ونساءً، في أنقرة واضعين أنفسهم تحت تصرفه في كل ما يراه ويقرّره. فما كان منه عند ذاك إلاّ العمل على تأليف حكومة السلامة العامة للدفاع عن الوطن فعيّن عصمت باشا رئيساً للأركان العامة في الجيش؛ وكان همه الأول هو التخلص من جيش السلطان، الذي لم يلبث أن انهار من تلقاء ذاته.

ولم تمرّ مدة عشرة أيام على توقيع تلك المعاهدة حتى تغيّرت أحوال

البلاد، فَسَرت فيها نفحة قدسية وحّدت بين أبنائها، بقطع النظر عن مختلف طبقاتهم وميولهم وأحوالهم الاجتماعية. فتحفّز المتطوعون من كافة البلدان الإسلامية للإنضمام إلى جيش الوطنيين، مما كان له الأثر الكبير في وضع حدّ للحرب الداخلية وأخطارها والتفاف جماهير الشعب حول حركة النضال القومي بزعامة مصطفى كمال، الذي صمّم على مواجهة الأعداء المحتلين، فكلّف قائد الجيش الثاني كاظم قره بكير، بمهمة إبعاد الأرمن إلى خارج الحدود، بعد وقف تقدمهم. فقام هذا القائد بما أنيط به، خير قيام أيلول ـ تشرين الأول ١٩٢٠م وقضى على الجيش الأرمني بسرعة فائقة، بحيث كان من نتيجة ذلك أن أرغمت الجمهورية الأرمنية المنشأة حديثاً لتوقيع معاهدة غومرو ـ GUmru التي تعهدت بمقتضاها، بإعادة منطقتي آردهان وقارص، إلى تركيا وبعدم مطالبتها بالمناطق الشرقية من البلاد.

وبهذه المناسبة أقدم الروس السوفيات على إرسال جيشهم إلى منطقة باطوم لإخراج الأرمن منها، والدخول إلى أريفان حيث قضوا عليهم هناك.

وقد كان لما قام به الجيش التركي الوطني من هذه الناحية، وقع كبير، رفع معنويات الشعب والجيش المحارب، بحيث صمّم مصطفى كمال عند ذاك على ضرب الإكراد الذين كانوا يعلنون العصيان، وتوجيه أنظاره نحو الجنوب كانون الثاني ١٩٢١م. وبعد أن هاجم جيشه مدينتي مرعَش وأورفة وقضى على القوات الفرنسية فيهما. وفي بوزانتي عقد هدنة مع الفرنسيين كان من نتيجتها أن اضطروا لإخلاء قيليقية مؤقتاً.

وفي الوقت نفسه أرسل مصطفى كمال جيشاً إلى قونية حيث أرغم القوات الإيطالية على إخلائها مع كافة النقاط العسكرية في نواحي ايطاليا.

في تلك الأثناء وتحديداً في السادس من شهر كـانون الثـاني ١٩٢١م قـام الجيش اليونـاني بقيـادة الجنرال بـابولاس بمهاجمة مدينـة أفيـون ـ قـره حصـاراً والإستيلاء على الخط الحديدي الواقع بين بيلاسيك ـ وإينونو، فأسرع عصمت باشا، بفرقته الواحدة والستين إلى مشارف إينونو وقـابل الجيـش اليونـاني هنـاك وتمكن من دحره وإعادته من حيث أتى، بعـد تكبيـده عـدداً كبـيراً مـن القتلى والجرحى، ٩ ـ ١٠ كانون الثاني ١٠٢١م.

وعلى أثر ذلك، وبطلب من الحكومة المؤقتة عقـد المجلـس الوطـني الكبـير اجتماعاً أقر فيه الدستور الجديد الـذي خوّلـه الإضطـلاع بالسـلطتين التشـريعية والتنفيذية ٢٠ كانون الثـاني ١٩٢١م، كمـا أقـرّ النـص الـذي أعلنـه مصطفى كمال وهو: «أن جميع السلطات تعود للشعب الـذي ينيبهـا إلى المجلـس الوطـني الكبير».

من ثم سعى مصطفى كمال إلى تنظيم جيش المقاومة، بمساندة مـن الدولـة الروسية التي أمدّت الوطنيين بالأسلحة والأعتدة الحربية. كما أن إيطاليا وافقت على بيعهم الأسلحة خفية فيما كانت فرنسـا تشـجّعهم في السـرّ لمتابعـة حربهـم ضد اليونانيين.

وفي تلـك الظـروف أحـرزت السـلطة في أنقـرة نصـراً جديـداً إذ دُعيـت بواسطة إيطاليا لمناقشة مسألة الشرق، وكانت هذه الدعوة بمثابة إعتراف ضمـني مـن الحلفـاء بالسـلطة في الأنـاضول بحيـث لم يعـد السـلطان وحكومتـه يمثـلان وحدهما تركيا.

وإذ لم يتوصـل مؤتمـر لنـدن ٢٧ شبـاط ـ ١٢ أذار ١٩٢١م إلى حلـول

مقبولة من أحد، فقد افترق ممثلوا الحلفاء وممثلوا تركيا على خلاف، وفضل الأتراك الإستمرار بالحرب على قبول شروط جائرة وغير مناسبة. وهكذا تحمّل الوطنيون عبء القتال في عدة جبهات، فاشتركوا مع الروس في إسقاط الجمهورية الأرمنية التي قامت في القوقاز. وكان الأرمن يزمعون احتلال شرقي الأناضول. وفي ٣٠ أذار ١٩٢١م زحف الجيش اليوناني إلى أسكي شهر فأوقفه القائد عصمت باشا عند مشارف إينونو وأكرهه على الإرتداد إلى بروسّه وذلك في أوائل نيسان. وهذا النصر الثاني في معركة إينونو يناله عصمت باشا ضد اليونانيين، كان له دويّه في أنقرة، حيث بعث إليه مصطفى كمال ببرقية يهنّؤه فيها بنصره، ويعتبره مخلصاً للأمة.

وفيما كان عصمت باشا يقوّي مواقعه أمام أفيون قره حصار وإسكي شهر لمجابهة الجيش اليوناني في هذا القطاع، سارع هذا الجيش بالهجوم على مواقعه تلك في ٧ تموز مخترقاً خطوطه قبل الانتهاء من تقويتها، فاحتل أفيون قره حصار وكوتاهية، ثم تحوّل إلى إسكي شهر، بغية الإحاطة بها، ومحاصرة الجيش التركي فيها. فما كان من عصمت باشا إلاّ إخلاء هذه المدينة، والتقهقر، باتجاه سقارية للتمركز فيها، وبالتالي تقوية خطوطها للدفاع عن أنقرة، وذلك بناء على تعليمات مصطفى كمال وأوامره بهذا الشأن. لقد كان الجيش اليوناني عند ذاك يعدّ مائة ألف جندي، وهو متفوق على الجيش التركي، الأمر الذي جعل مصطفى كمال يدعو المجلس الوطني للإجتماع ويطلب من أعضائه الموافقة على تكليفه بقيادة المجالس العامة مع ممارسة لمطلق الصلاحيات المتعلقة بها، فلبّى أعضاء المجلس بالاجماع طلبه هذا، بعد التردّد ٤ آب. وفي الخامس من آب ١٩٢١م سُمّي مصطفى كمال قائداً عاماً للجيش مع منحه سلطات استثنائية

لمدة ثلاثة أشهر قابلة للتجديد، فانتقل فور استلامه مهمته من أنقرة إلى سقارية حيث راح يحشد القوات الوطنية بعد أن وافاه عصمت باشا إليها بجيشه.

وفي الرابع عشر من آب بدأ الجيش اليوناني هجومه، فلقي مقاومة ضارية من قبل الجيش التركي، الذي تمكن من الصمود في وجهه وردّه على أعقابه في كل مرة كان يهجم فيها، بحيث بقيت المعارك تحتدم طيلة مدة الأربعة عشرة يوماً الأولى دون أن يحقق الجيش اليوناني فيها أي نصر، وبعدما أخذ التعب والحرّ كل مأخذ من هذا الجيش الأخير، بدأت قواه تميل إلى الضعف والخوار، فصار يخسر تدريجياً خطوطه المتقدمة. وهنا، استغلّ مصطفى كمال الفرصة المناسبة، بعد إذ عرف نقطة الضعف في جيش العدو فأعطى أوامره فوراً بإلقاء الإحتياطي من الجيش في المعركة وعند نقطة معينة من مراكز الجيش اليوناني، وانتقل هو إلى الخطوط الأمامية.

وفي الثالث عشر من أيلول، وبعد تلقّيه الضربات الشديدة، أخذ الجيش اليوناني يتقهقر متراجعاً لجهة الغرب صوب شواطىء البحر المتوسط؛ وأثناء تراجعه كان جنوده يعمدون إلى إحراق القرى وقطع الأشجار وتهديم المنازل على رؤوس أصحابها انتقاماً من الأتراك؛ فلاحقهم مصطفى كمال بجيشه مسافة طويلة حتى أذا اقترب منهم، كانوا قد بلغوا مراكزهم السابقة التي كانوا يتحصنون فيها بناحية أسكي شهر وعلى خطوط سكة الحديد، قبل لحاقهم بالجيش التركي إلى سقارية.

وهناك اتخذ مصطفى كمال خطاً مقابلاً لخط الجيش اليوناني وتمركز فيه جيشه حتى إشعار آخر وعاد هو إلى أنقرة ١٦ أيلول فدخلها دخول الفاتحين، وخلع عليه المجلس الوطني الكبير رتبة مشير ولقب غازي.

وسرعان ما تعزّز موقف مصطفى كمال الدولي بعد انتصاره في سقارية؛ فكانت الحكومة الفرنسية أسبق الدول إلى الاستفادة من هذا الوضع الجديد، فأرسلت مندوبها فرنكلان بويون إلى أنقرة، مع تكليفه بمهمة توقيع اتفاقية سرية. بينها وبين حكومة أنقرة لتكون بمثابة صلح منفرد من جانب فرنسا تعترف بها ضمناً بشرعية هذه الحكومة الأخيرة دون الأخذ بعين الاعتبار سلطة حكومة السلطان، ومعاهدة سيفر التي لم تعد قائمة.

وبعد توقيع هذه الاتفاقية السرّية أضيف إليها بروتوكول ملحق يمنح تركيا بعض الأفضليات لجهة انسحاب فرنسا من قيليقية وتعديل الحدود السورية التركية لمصلحة تركيا، وإقامة نظام خاص في الإسكندرونة يضمن مصالح سكانها الأتراك. وفي مقابل ذلك حصل الفرنسيون على امتياز لاستثمار مناجم الحديد والكروم والفضة في وادي نهر خرشوط الذي يصبّ في البحر الأسود ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١م.

وكان من أثر ذلك أن أقدمت الجيوش الإيطالية على الجلاء من المناطق التي كانت تحتلّها في جنوبي الأناضول ـ أنطاليا ـ. وفيما كان مصطفى كمال وحكومة أنقرة لا يوفران جهداً لتقوية الجيش التركي وإعداد الضربة الكبرى بطرد اليونانيين من البلاد، كان هؤلاء سادرين في خلافاتهم الداخلية دون أن يفعلوا شيئاً لتعزيز مراكز جيوشهم في تركيا.

وحينما تمت الإستعدادات في الجيش التركي الذي بلغ عدده عند ذاك ما يفوق المائة الف جندي، قرّر مصطفى كمال حشد قوة كبيرة أمام مدينة أفيون قره حصار للقيام منها بمهاجمة الجيش اليوناني المتمركز في دوملوبوناز.

وفي السادس والعشرين من آب ١٩٢١م وبعد تعدّد الإتصالات مع الحلفاء دون نتيجة، وجّه مصطفى كمال بصفته القائد الأعلى للجيش التركي النداء الآتي: «أيها الجنود إلى الأمام، هدفنا: هو البحر المتوسط».

وكان الهجوم على المراكز اليونانية، بالغ الأثر، إذ ما كاد النهار ينقضي حتى كانت تلك المراكز قد اختُرقت كلها. وفي اليوم التالي وعند المساء تكبّد الجيش اليوناني خسائر جسيمة وانشطر إلى شطرين، وبعد إذ انقطعت مواصلاته مع مؤخرته، فتزلزلت صفوفه وأخذت بالإنهيار شيئاً فشيئاً تحت ضربات الجيش التركي، مما أشاع الذعر في نفوس الجنود اليونانيين، فولّوا الإدبار منهزمين صوب البحر، باتجاه إزمير، تاركين وراءهم كل شيء. فلاحقهم الأتراك مدة عشرة أيام في البراري والسهول وهم يمعنون فيهم قتلاً وجراحاً.

وفي الخامس من أيلول ١٩٢٢م أرسل مصطفى كمال إلى المجلس الوطني في أنقرة برقية يقول فيها: أن الجيش اليوناني في الأناضول قد قضي عليه بصورة قاطبة ولم يعد بإمكانه إبداء أية مقاومة جدية.

وفي التاسع من أيلول دخل الجيش التركي مدينة إزمير دون أن يلقى أية مقاومة، وعلى رأسه مصطفى كمال، فأزيل منها كل أثر للإحتلال اليوناني.

وعلى كلّ فإن استعادة أزمير لم تكن لتنهي الحرب لأن اليونانيين، بعد إخلائهم إزمير، كانوا على أهبة تقوية جيشهم في تراقيا فأراد مصطفى كمال أن يستنقذ هذه المنطقة منهم. وفيما كان الجيش التركي يحاول عبور الدردنيل من جهة البر، بقيادة عصمت باشا، وبوصوله إلى جناق قلعة اعترضته قوة من الجيش الإنكليزي، بغية منعه من العبور، وكاد الإصطدام بين الفريقين، أن يؤدي

إلى تبادل إطلاق النار وبالتالي إلى الحرب، لو لا تدارك الأمر في اللحظة الأخيرة، من قبل الدولة الفرنسية التي تعهدت بواسطة مندوبها فرنكلان بويون لمصطفى كمال، بأن يخلي اليونانيون منطقة تراقيا لأعادتها إلى تركيا، وذلك بموافقة الحلفاء بهذا الشأن.

وقد جرت المفاوضات لهذه الغاية فاجتمع مندوبون عن كل من دول: إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وتركيا في مودانيا على بحر مرمرة، بتاريخ ٦ تشرين الأول ١٩٢٢م وترأس الاجتماع عصمت باشا مندوب تركيا، وبعد المباحثات توصل مندوبا انكلترا وتركيا السير شارل هارلنغتون وعصمت باشا إلى عقد هدنة مودانيا التي وقعها أيضاً مندوبا فرنسا وإيطاليا، وبمقتضاها اعترفت حكومات الحلفاء بإعادة السيادة التركية إلى استانبول والبوغازين وتراقيا الشرقية؛ على أن يؤجل احتلال هذه المناطق إلى ما بعد توقيع معاهدة الصلح ١١ تشرين الأول.

هذا وبعد أن تركت قضية الأقليات للنظر بها خلال المفاوضات التي ستجري في لوزان مع الحلفاء حسبما جرى الإتفاق عليه، توصلاً لعقد معاهدة صلح جديدة تقوم مقام معاهدة سيفر التي أصبحت عير ذات موضوع وملغاة بفعل انتصار الوطنيين الأتراك، فقد رأى الحلفاء توجيه الدعوة إلى حكومتي إستانبول وأنقرة لحضور مؤتمر الصلح في لوزان بسويسرا، وإرسال مندوبين عنهما لهذه الغاية.

وإذ كان وجود فريقين تركيين من المندوبين في المؤتمر من شأنه أن يترك أثراً سيئاً في البلاد وتجاه الحلفاء الذين قد يستعملون الطرق الملتوية للضغط على

مندوبي الوطنيين وحرمانهم من ثمار انتصاراتهم، فقد طلب مصطفى كمال، أثناء انعقاد جلسة المجلس الوطني الكبير في ٣٠ تشرين الأول ١٩٢٢م من الأعضاء، إصدار قانون يقضي بفصل السلطنة عن الخلافة، وبالتالي بإلغاء السلطنة، وطرد السلطان محمد السادس من البلاد. فلم يسع هؤلاء الأعضاء إلاّ الإستجابة إلى طلبه ولو بعد تردد، والموافقة على النص الذي تلاه بنفسه أمام المجلس وهو التالي:

(إن المجلس الوطني يقرّر بأن دستور: عشرين كانون الثاني ١٩٢٠م يطبّق على كافة الأراضي التركية المطالب بها في الميثاق الوطني، ونتيجة لذلك فإن البلاد تخضع لإدارة حكومة أنقرة، إذ يعتبر الشعب التركي بأن حكومة استانبول مؤسسة على سلطة فرد أصبح ملكاً للتاريخ).

وكان للقانون الذي صدر في أول تشرين الثاني ١٩٢٢م بهذا المعنى، رنة فرح لدى الشعب التركي، فالهارت بعد صدوره حكومة السلطان في استانبول من تلقاء نفسها (٣تشرين الثاني) وبعد يومين أي في الخامس منه، استولى رأفت على الحكم في العاصمة بعد إعلان الإنقلاب بالقوة تحت سمع وبصر المفوض السامي الإنكليزي؛ وقد جاء في الإعلان الرسمي بأن السلطنة قد ألغيت بمقتضى قرارات المجلس الوطني في أنقرة، والتي لها قوة القانون على كافة الأراضي التركية. وفي السابع عشر من تشرين الثاني نقل السلطان محمد السادس على متن طرّاد تابع للأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط، إلى سان ريمو حيث لم يهتم به أحد.

اما مؤتمر الصلح الذي انعقد في لوزان بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٢م

فقد اختير الجنرال عصمت باشا لتمثيل حكومة أنقرة فيه. وهناك وعلى هامش المؤتمر اجتمع عصمت باشا برئيس مندوبي اليونان: فينيزيلّوس، واتفق الأثنان على فضّ نزاعات دولتيهما العالقة بصورة نهائية.

وبعد عدة أشهر من التفاوض والتباحث لم تؤتي الاجتماعات التي عقدها المؤتمرون ثمارها فانقطعت وتوقفت من الرابع من كانون الثاني ١٩٢٣م إلى الثالث والعشرين من نيسان ١٩٢٣م، إذ عاد المندوبون إلى الإجتماع مرة أخرى في لوزان حيث توصلوا بالنتيجة إلى توقيع معاهدة الصلح فيما بين تركيا والحلفاء في ٢٤ تموز ١٩٢٣م وبموجبها تحققت أماني الأتراك، كما وردت في الميثاق القومي المعلن في شهر كانون الثاني ١٩٢٠م.

وهذه المعاهدة تنص من جملة ما تنص عليه، على الأمور الآتية:

أولاً: إعادة السيادة التركية على كامل الجزء من الأمبراطورية العثمانية الآهل بالأغلبية السكانية التركية، مع الاحتفاظ بمناطق: تراقيا مع أدرنة والأناضول، وقيليقية والمناطق الشرقية، أي ما مساحته ٦٧٥، ٧٦٧ كيلو متراً مربعاً منها ٢٣،٩٧٥ في أوروبا و٧٤٣،٧٠٠ في آسيا.

ثانياً: إلغاء جميع الإمتيازات والمحاكم ولجان المراقبة والإدارية الأجنبية وما يتعلق بها المادة ٢٨.

ثالثاً: إستثناء لواء الموصل باعتباره تابعاً للعراق مادة٣.

رابعاً: تدويل البوغازين ونزع السلاح منهما على أن تؤمن جمعية الأمم، الأمن العسكري في استانبول.

وقد جرى أيضاً توقيع معاهدة منفصلة بين تركيا واليونان بشأن تبادل السكان وكل نزاع عالق بينهما.

وعلى هذا فإن مؤتمر الصلح في لوزان ضمن لتركيا بفضل حسن تدبير عصمت باشا ودهائه السياسي وصلاته، نصراً سياسياً عظيماً دفع بالمجلس الوطني في أنقرة، للتصديق على مقرراته بالإجماع أوائل آب ١٩٢٣م.

وفي الثاني من تشرين الأول ١٩٢٣م انسحبت قوات الإحتلال الحليفة من استانبول، فدخلتها القوات التركية الوطنية ٦ تشرين الأول.

وعقب ذلك أصدر المجلس الوطني في جلسته المنعقدة بتايخ ١٣ تشرين الأول قانوناً جديداً نصّ فيه على إعلان مدينة أنقرة، عاصمة رسمية لدولة تركيا بدلاً من استانبول. ثم أقرّ المجلس بناء على طلب مصطفى كمال دستوراً أعلنت فيه الجمهورية التركية ٢٩ تشرين الأول، وانتخب مصطفى كمال أول رئيس لها، فكلّف على الفور عصمت باشا بمهمة تأليف حكومة جديدة.

بعد ذلك رأى مصطفى كمال أن وجود منصب الخلافة لم يعد له مكان في الجمهورية. فصمّم على إلغائه أسوة بالسلطنة؛ وعندما قرّر تنفيذ فكرته بهذا الشأن كان هناك أخصامه السياسيون ورجال الدين وعلى رأسهم شيخ الإسلام. وغيرهم من الحاقدين الناقمين، يقفون له بالمرصاد، وينشرون الإشاعات السيئة ضده، بين طبقات الشعب وفي المساجد التي كان يؤمها المصلّون فينعتونه بأقبح الصفات ويعتبرونه كافراً وزنديقاً لا يمت إلى الإسلام بأية صلة. وبالفعل فإن الخلافة كانت تعني لدى مصطفى كمال، الإسلام، ودين الإسلام يجب نزعه من نفوس الأتراك، لإحياء تركيا من جديد، حسب تفكيره، على اعتبار أن موتها كان بسبب الإسلام وممثليه من رجال الدين.

فقبل أن يترك السلطان محمد السادس استانول منفياً بعد إلغاء سلطنته، اختار عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز، ليكون خليفة مكانه، فأضفى عليه خلعة الخلافة وهي البُرَدَة وجرت مراسيم الخلافة حسب الأصول المتبعة عند ذاك.

ولّما عرض الأمر على المجلس الوطني الكبير لمعرفة وبيان مدى الصلاحيات الواجب منحها للخليفة الجديد، وفقاً للشرع، وبمعزل عن السلطنة، أجاب مصطفى كمال على ذلك قائلاً: «الخليفة لا يملك السلطة ولا المنصب، أنه ليس سوى شخص أرستقراطي».

وكان عبد المجيد يقوم بمهام الخلافة المحدّدة له، من الناحية الدينية فقط، دون النظر في المسائل السياسية وغيرها.

وبالرغم من ذلك، فإن مصطفى كمال أراد أن يقطع كل صلة بماضي العثمانيين، ولهذه الغاية تقدم بتاريخ ٣ أذار ١٩٢٤م باقتراح قانون أمام المجلس الوطني طالباً إلغاء الخلافة وبالتالي نفي الخليفة من تركيا، فنزل المجلس على طلبه وقرّر وضع حدّ للخلافة مما استتبع نفي الخليفة إلى سويسرا.

ثم أقر المجلس الوطني بتاريخ ٢٠ نيسان ١٩٢٤م صيغة جديدة للدستور التركي، فيما أعلن الحكم الجديد عن رغبته في تحديث تركيا ووجوب انفتاحها على الغرب، معتبراً المؤسسات الدينية في البلاد، من العوامل التي تعيق تطويرها نحو التجديد فيعلن الصفة العلمانية للدولة وألغى وزارة الأوقاف، مع المدارس الدينية والمحاكم الشرعية ومنع لباس الرأس التقليدي، من طربوش وعمامة.

وهكذا وبأقل من خمس سنوات، قام مصطفى كمال بكل ما وسعه من جهد ونفوذ، لتحقيق ما كان يصبو إليه من أهداف لبناء تركيا الحديثة، ومحو الماضي البغيض، حسب اعتقاده، وقطع كل صلة به، وبالعثمانيين.

التحضير للثورة العربية

بينما كان الشريف حسين يتريث في اعلان الثورة على الأتراك عند بداية الحرب العالمية الأولى، جاءه عرض للثورة من قبل الجمعيات العربية السرية في الشمال برسالة شفوية حملها إليه فوزي البكري في كانون ثاني عام ١٩١٥ بعدما حالت الحرب العالمية الجديدة بين سوريا والقيام بعمل ذو شأن وتحول إتجاه الحركة نحو الحجاز لتكون منطلق الثورة، وإلى الشريف حسين بالذات ليتولى قيادتها. ولم يلبي الشريف حسين الدعوة مباشرة وإنما أرسل ابنه الأمير فيصل في آذار بمهمة رسمية إلى استانبول. مع تعليمات باستشارة الزعماء القوميين في دمشق لمعرفة مدى قوة الحركة العربية وموقفهم من العروض البريطانية.

وتشاور فيصل مع الأعضاء البارزين في الفتاة والعهد. وأطلعوه على قرار اتخذته الجمعية قبل أشهر وفحواه «إن غاية العرب هو الاستقلال حفاظاً على كيان البلاد العربية. لاعداء للترك. أما إذا كانت البلاد عرضة لخطر الاستعمار الأوربي فالجمعية تعمل مع أحرار العرب للدفاع عن البلاد العربية جنباً إلى جنب مع الترك».

وأطلعهم فيصل على عروض إنجلترا وسألهم عن المساعدة التي تحتاجها سوريا لتشترك بالحركة التحريرية عند الاقتضاء فأجاب ياسين الهاشمي (من كبار ضباط العهد وعلى علم بقوى الجيش المرابط في سوريا): «إن سوريا لا تحتاج إلا إلى عزم الحسين على ترؤس الحركة التحريرية».

وبعد عودة فيصل من استانبول في مايو (آيار) سلمه زعماء الفتاة والعهد ميثاقاً يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها كي يقوموا بثورة يعلنها الشريف تكون أساساً للعمل المشترك بينهم وبين إنجلترا، وأرفقوا بها مصوراً يعين حدود البلاد العربية في آسيا التي يجب أن يدور السعي على أساسها لنيل الاستقلال.

وفي تلك الأثناء كان الشريف حسين لا يزال يتابع مراسلاته مع مكماهون حيث جاءت وثيقة مكماهون في ٢٤اكتوبر كأهم وثيقة دولية اشتملت على العهود التي دعت العرب إلى إعلان اشتراكهم في الحرب إلى جانب الحلفاء، والواقع أن مكماهون لم يحدد منطقة الاستقلال العربي التي تتعهد بريطانيا بالاعتراف بها ودعمها بل قبل بالحدود التي وضعها الحسين عدا بعض التحفظات التي استثنت المناطق التركية والمناطق التي عقدت بريطانية مع زعمائها معاهدات في الجزيرة العربية والمناطق التي لفرنسه مصالح خاصة غربي مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب واحتفظت بريطانيا لنفسها بحق إقامة نظام إدارى خاص في ولايتي البصرة وبغداد.

وقد تمت جميع المراسلات باللغة العربية بأسلوب غامض معقد، وكانت رسائل مكماهون التي تصدر من وزارة الخارجية البريطانية تترجم إلى العربية في دار المفوضية في القاهرة، كما أن رسائل الشريف بالعربية كانت تترجم إلى الإنجليزية. وقد أخذ زعماء الحركة الوطنية على الحسين بساطة معالجته للقضية واستئثاره بالموضوع وعدم تنظيم علاقاته مع الإنجليز بمعاهدة صريحة.

إعلان الثورة

أعلنت الثورة في الحجاز قبل أن يستعد العرب لها ويأخذوا أهبتهم لخوضها ويدخروا من السلاح والمعدات ما يضمن لهم الوقوف في وجه قوات الترك الكبرى، وكانت تحتل مدن الحجاز وشواطئه، وثغوره وطرقه، ولا يقل مجموعها عن بضعة عشر ألف مقاتل يقودها ضباط مدربون وسلاحها من أمضى الأسلحة كما أن خطوط مواصلاتها منظمة على أفضل منوال.

لقد كانت للترك في المدينة وحدها حين اعلان الثورة ثلاثة آلاف مقاتل لم يلبثوا أن أصبحوا عشرة آلاف بالامدادات التي أرسلت اليهم، ويعترف الكولونيل بريمون في كتابه (الحجاز في الحرب العالمية) ان قوات الترك في المدينة المنورة كانت في أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩١٦ (أي بعد اعلان الثورة بأربعة أشهر) تتألف كما يأتي:

قوة المدينة نفسها وتؤلف من أورطتين مشاة وآلاى هجانة يقودها أمير الالاى عبد الرحمن بك وتتبعها ٣ بلوكات استحكام ورشاشات ومدفعية قوية، وقوة بير درويش وتتألف من خمس أورط مشاة وبلوكين راكبة وآلاى هجانة وبطارية مدافع جبلية تحمل على الجمال وأربع طيارات ويقودها القائمقام غالب بك (غالب باشا الشعلان)

وقوة بير روحانة وتتألف من آلاى هجانة وقوة من عرب شمر وكتيبة من

البغالة و ٥ مدافع ميدان ومفرزة لا سلكى ومجموعها ٢٣٣٠٠ جنـدي يقودها نحو ٦٠٠ ضابط على رأسهم فخرى باشا.

وكانت قوة للطائف لا تقل عن ألف جندى و٨٣ ضابطـا بقيـادة الفريـق غالب باشا والي الحجاز وقائده وكان يصطاف هنالك مع أركـان حربـه ولديهـا عشرة مدافع و ١٧٠٠ بندقية وكمية كبيرة من الذخائر.

أما قوة مكـة فمـا كـانت تقـل عـن ألـف جنـدي أيضـا بقيـادة البكباشـي درويش بك لديها ٢٠ مدفعا. وكانت قوة جدة تتألف من ٢٥٠٠ جندي أيضـا ومئة ضابط ولديها ٢٠ مدفعا و ١٥ رشاشـة. ولا يدخـل في هـذا الاحصـاء مـا كان لهم من قوات أخرى في ينبع والوجه والمناطق الأخـرى وفي محطـات سـكك الحديد ولا يقل مجموعها عن ٢٠ ألف جنـدي نظـامى مسـلح تملـك نحـو ١٢٥ مدفعا مختلفة العيار والحجم.

فهذا البيان البسيط يدل علـى أن العـرب استهدفوا يـوم اعـلان ثورتهـم لمنازلة قوات عظمية يقودها ضباط اشـتهروا بـالجرأة وتلقنـوا العلـوم العسـكرية الحديثة في أرقى الجامعات يضاف الى هـذا انهـا كـانت تتحصـن في قـلاع منيعـة لاترام سواء في المدينة أو في الطائف أو في مكـة أو في جـدة فتفـوق بذلـك علـى العرب وكان عليهم أن يهاجموها في صياصيها وداخل حصونها.

ومن تحصيل الحاصل القول أن قوات العرب لم تكن في تلك الأيـام سـوى شراذم قليلة من البدو الذين لم يألفوا النظام والذين ما اعتادوا الثبات في الميـدان ولا البقاء في معترك الطعن والضرب، سلاحها قديم، وعتادها قليل، وقـد كتـب عليها أن تكون محرومة من جميع الوسائل والمعدات المتوفرة عند الجيش التركي.

ولقد قال الملك علي عن المعارك الأولى التي دارت بينهم وبين الترك على أثر خروجهم من المدينة بأنهم أرتدوا أمام فخرى باشا في خلال المعركة الثانية التي دارت في الحسا لنفاد ذخيرتهم وقال انهم وصلوا في تراجعهم الى رابغ وصرح بمثل ذلك الأمير عبد الله فقال ان الترك حملوا عليه حينما هاجم الطائف يوم ٨ شعبان أي قبيل اعلان الثورة بيوم واحد فشتتوا شمل رجاله وهزموهم فثبت مع حاشيته القليلة ثم عاد الى مهاجمة الطائف مع القوات التي جمعها من هنا وهنالك فحاصرها وظل يشدد الحصار عليها حتى استسلمت اليه.

ونحن في غنى عن القول ان اقدام الحسين وأولاده على اعلان الثورة وهم مجردون من كل قوة منظمة ولا يملكون سوى كمية قليلة من البنادق وهي التي أخذوها من الترك للمتطوعة، ولا يجهلون أنهم سيستهدفون لقتال قوات كبيرة تنزل في ديارهم، وتحيط بهم وتسد عليهم المسالك، ومن ورائها جيوش جرارة، تسرع لتجدتها، تنطوى على كثير من الجرأة وصدق العزيمة، ولو تسنى لفخرى باشا بلوغ مكة كما تصور جمال باشا لقضى على الثورة وأبادها، بيد ان ثبات رجال العرب في وجهه واستماتتهم في المقاومة والنضال جعله يعدل عن خطة الهجوم ويكتفى بالدفاع، فاستصفى العرب مدن الحجاز الواحدة بعد الأخرى ثم اتجهوا نحو الشمال لتحرير سورية وانقاذها، ولقد أظهر الجيش العربي في خلال الأدوار التي مرت بها الحرب من الشجاعة والاقدام - على حداثة عهده - ما نال اعجاب الأعداء قبل الأصدقاء وجعل قادة الحلفاء وفي مقدمتهم اللورد النبي يعترفون بما أسداه من خدمات جلى.

استسلام جدة :

نعود بعد هذا التعميم الى التخصيص فنتكلم عن المعارك التي دارت

والوقائع التي وقعت مراعين قاعدة التسلسل التاريخي للحوادث وموردين تاريخ جيش الثورة وما دار في خلال تلك الأيام من مكاتبات بين العرب والحلفاء ففيها ما يميط اللثام عن كثير من الأسرار فنقول:

كانت حامية جدة أول حامية تركية استسلمت للعرب في الحجاز فقد رفعت راية التسليم يوم ١٦ يونيو ويبلغ عدد رجالها ١٣٤٦ جنديا بينهم ٢٠ ضابطا وغنم العرب من جدة ١٠ مدافع ميدان و ٤ مدافع جبلية و٤ رشاشات ومستودعا كبيرا للأسلحة والذخائر، فكانت فاتحة طيبة.

واستعان العرب بالمدافع التي غنموها في جدة على ضرب الحامية التركية وكانت متحصنة بقلعة جياد (مكة) فنقلوها على الأثر ونصبوها أمام القلعة وسلطوا نيرانها عليها ولا يفل الحديد الا الحديد فدمروها ثم اقتحموها يوم ٤ يوليو سنة ١٩١٦ وأسروا حاميتها وغنموا فيها ٣ مدافع جبلية ومدفعين من العيار الكبير وكمية كبيرة من الذخائر والعتاد.

وصعد مدفعيو العرب الحملة على ثكنة جرول. وكان عدد من الترك يحاصر فيها بقيادة البكباشي درويش بك وحمل عليها الجيش بالسلاح الأبيض فاقتحمها يوم ٩ يوليو بعد غروب الشمس وأسرا حاميتها وتتألف من ٢٨ ضابطا و ٩٠٠ جندياً و ١٥٠ بين جريح ومريض. وهكذا تم لهم التغلب على قوات الترك في مكة فدانت للحكومة الجديدة.

احتلال الليث واوملج :

وفي يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩١٦ استولى العرب على ثغر الليث على

شاطىء البحر الأحمر بين الحجاز واليمن وعلى ثغر أوملج فدخلا في طاعة الحكومة الهاشمية الجديدة.

احتلال الطائف :

تولى الأمير عبد الله أمر الطائف بنفسه فجمع القبائل حولها وأقام على حصارها بعد الهزيمة الأولى وظل يطاولها ويراوحها ويغاديها حتى استسلمت اليه عند منتصف ليل ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ (٢٤ ذى القعدة سنة ١٣٣٤) فقد جاء الوالى غالب باشا بنفسه مع ضباطه الى المعسكر العربي (خارج السور) وسلموا أنفسهم كما سلمت القوات التركية سلاحها للجيش العربي.

ودخل الأمير الطائف صباح ٢٣ منه واحتلها رسميا وبلغ عدد الأسرى من الترك في الطائف ٨٣ ضابطا و ١٩٨٢ جنديا وغنموا ١١ مدفعا وكمية كبيرة من البنادق والعتاد.

في ميدان المدينة المنورة :

كانت القوات العربية التي هاجت محطة المحيط يوم ٨ يونيو بقيادة الأميرين علي وفيصل تتألف من ٦ آلاف مقاتل من قبائل حرب وجهينة وبلى ومسروح ولم تثبت أمام فخرى باشا بل ارتدت الى الوراء لنفاد ذخيرتها.

وافترق الأمير ان بعد معركة الحسا فقصد علي (الغدير) وهي على ٢٥ كيلومترا من المدينة الى الجنوب كما قصد فيصل بير عباس (ديار بني سالم) على بعد ٧٥ كيلومترا من المدينة واتخذها مقرا لحركاته العسكرية تؤيده قبائل مسروح وبنى سالم وبلى وجهينة وتشد أزره.

وشجع فخري باشا مالقيه من فوز في المعركـة الأولى فحمـل بقـوة كبـيرة على جيش الأمير فيصل في منتصف شهر يونيو فاحتل العلاوة وبلغ بـير الماضي وهي على بعد ٣٠ كيلومترا من المدينة وحصنها وغايته من ذلـك اقصاء الثوار من حول المدينة لتسهيل الأعمال العسكرية.

ولقى الأمير علي عناء وتعباً في أوائل الثورة من حسين بن مبير بـك شيخ رابغ فقد كان ضالعا مع الترك ميالا اليهم وقد تأيد ذلك بكتـابين أرسـلهما اليـه الشريف علي حيدر من المدينة وعثر عليهما رجال الحكومة الجديـدة. ولذلـك لم يجد بداً من التراجع الى رابغ والنزول فيها ففر هذا الى المدينة.

وحمل فخري باشا على جيش الأمير فيصل يـوم ٢٠ شـوال سـنة ١٣٣٥ (١٩ اغسطس سنة ١٩١٦) فدارت معركة دامية بين الفريقـين انتهـت بـارتداد الترك بعد ما مزق العرب أورطتين مـن أورطهـم وأسـروا منهـم ضـابطين و ٦٠ أسيرا

وعاد فخري باشا الى الهجوم فحمل يوم أول اكتوبـر علـى جيـش الأمـير فيصل فارتد أمامه حتى ينبع البحر فلم يطارده فخري باشا بل توقف أمـام ينبـع لا يدخلها ثم ارتد الى المدينة فجأة في الغداة فلحق به الأمـير. واسـتأنف فخـري باشا الخروج فهاجم بير عباس يوم ١٤ ذى الحجة بقوات كبيرة واحتلها ولكـن الأمير فيصل اضطره الى اخلائها فارتد الى بير الرايق.

وخاف الحسين في خلال الفترة التى دارت في إبانها هـذه المعـارك ــ وقـد طارت في خلالها اشاعات بأن فخري باشا ينوي الزحف على مكة بطريق رابغ ــ النتيجة وأدرك أن الترك عازمون على ضرب الثورة ضربة قاضية فأرسل يطلـب

من حلفائـه الانكليز المدد والنجدات بواسطة مندوبـه في مصـر. ونحـن ننشـر نصوص المكاتبات السرية التي دارت في هذا الشأن ثم نقفـى عليهـا بما دار بـين الحلفاء أنفسهم من مباحثات لأهميتها.

- ١ -

في يوم ١٥ رمضان سنة ١٣٣٤ و١٤ يوليو سنة ١٩١٦ أرسل الحسـين إلى مندوبه بمصر البرقية الآتية:

«مـن الضـروري أن نعـد سـقوط الطـائف وارسـال قـوة مرفوقـة بمدفعيـة ورشاشات مع القائد السيد علي لتقوية معسكرنا بالمدينـة الـذي هـو الآن بمثابـة حياتنا والمحسوس أن القائد المومى إليه غير موافق علـى هـذه الحركـة وسـيتخذله اعذارا كعذر رابغ ولا يخفي ما في هذا من النتائج الوخيمة فعليك أن تبلغ الحالـة الى نائب الملك وهو ولا شك يقدرها قدرها. واني لم أبعث بهذه المدفعيـة الاّ الى موقع فيه أولادي لئـلا يمسـها سـوءهم ومـن معهـم. ولـولا مصادفتنـا لمثـل هـذه المشـاكل، وكانت البطارية قد توجهت من رابـغ الـذي لا مـانع لتوجههـا سـيما وانه بعد عودتها بيومين وصل احـد مأمورينـا المهمـين بجملـة مـن أعيـان عشـيرة حرب مندوبا من الأولاد لاستصحابها معهـم فلـو وصلـت الى المعسـكر في ذاك الحـين لكـانت حكومـة المتغلبـة في كافـة أنحـاء سـورية اليـوم في مزيـد الخطـر والاضطراب وكفينا بريطانيا تكلفها الحالي على النزعة وعليه فلا أرى الا اعـادة طلبي بعد عزمي الا أبحث بعد المـرة الأولى وعليـه صـرورة تجـاوزهم علـى الخـط الحديدي كمـا أشـرنا لجنـاب سـتورس عنـد مواجهتـه بأولادنـا في البقيـع وهـذا ضروري وافادتكم عنه منتظرة ولتخفيف المحظور والضرورة ألزمتنـي بـالأخذ في سوق المدافع المكتسبة من الترك الى معسكر المدينة لتضعيف القـوة المعنويـة فانـه

رغما انهم طردوه مايتجاوز «٢٥٠٠ قتيل كما تشهد بذلك كثرة ما وقع في أيدى جنودنا من السلاح الذي غنموه».

- ٢ -

وفي ٣٠ منه أرسل اليه البرقية الآتية:

حالة معسكرنا بالمدينة شرعت بالتحسن والترقي عند تسلحهم بالبنادق المرسلة التي اغاثنا بارسالها فخامة النائب بعد الوهن الذى بلغ مني حتى القوة المعنوية لفقدهم المؤونة الحربية سيما خراطيش (قذائف) بنادق غره (يونانية) ومارتين (فرنسوية قديمة) والمحسوس أن فيصلا سيتجاوز بقسم من معسكره على أطراف المدينة.

المتغلبة (الترك) شرعوا في اعادة ما فقدوه في المدينة من الجند الى الشام أو يأتون بعوضه. ولعله من عدم الأمنية من أفراد الجند وعلى رواية انهم يأتون باقل من مقدار ما يعيدونه للشام.

ان رواية تجاوزهم على ينبع من طريق (العلى) هي التي اضطرني الى طلب مظاهرة بحرية في ينبع التي كثرت الاشاعات في تقرر اتخاذها واسطة للسوقيات وما يقتضى لحركات المدينة.

ضروري تعيين احد البواخر الحربية المستعدة مصحوبة بثلاث طيارات ليعلم الترك الذين استحوذ الرعب الشديد عليهم من تأثيراتها في (لام) بجوار (المنال) بوجودها وهذا هو السبب الوحيد الذى أوجب طلب مظاهرة ينبع التي بواسطتها تنقطع آمالهم من التجاوز بتأثيراتها في قواتهم التي بالمدينة ولا يتيسر

المرور من طريق الساحل لمن يريد ينبع من الشمال لأنها تكون في داخل حركتها ولا بد أننا نصحب قائدها الفادة لنائب ينبع بأنها مصونة أمام كل احتمال وليخبر إبني فيصل بقدومها ومحلها فاذا وصلت ورأت عدم أثر للعدو تسافر الى الوجه لأنني في هذه الدقيقة تلقيت من سليمان رفادة ما يفيد بوصولها وضروري أن بصحبها بجانب من الذخيرة وما أشبه ذلك لسليمان المذكور. الخ.

- ٣ -

وقال في برقية طيرها يوم ٢٣ شوال الى نائب الملك رأسا:

ألتمس سرعة اصدار الأمر الى من يلزم لبعث مدافع جبلية واثنين أيضا من عيار ١٠ س من النوع الذى يتجزأ و ٤ رشاشات و ٤ طيارات برية من العشرة التي قيل انها تحت الطلب ولو على وجه التعويض من أحد الجيوش الى ينبع في الاسبوع الآتي لمقاومة شدة حملات العدو على جيوشنا المحرومة من كل المعدات وتفوق العدو عليها حتى بقربه من مركزها التي يريدون قدوم الأمير حيدر الى مكة قبل الحج، ومقدار ٧٥٠٠ بندقية منها ٥٠٠٠ إلى ينبع و ٢٥٠٠ الى جدة بالمقدار الزائد من المؤونة، وهذا باسم سلامة المصلحة فاني قد اضطررت الى بعث طابورين تقريبا من متطوعة البلاد مع عدم تدريبهم ومدفعين مما اكتسبناه من الترك وان كانت قديمة لنا لما فيها من الضرورة.

- ٤ -

وقال في برقية طيرها يوم ١٣ ذى القعدة الى مندوبه بمصر:

١ ــ أشرت لفخامة نائب الملك في برقيتى منذ شهر بان الأتراك

سيصرفون كل جهدهم لبعثة المحمل مع الشريف الذى عينوه وطلبت ارسال القوى بصورة أوضحتها في برقيتي ولا أدرى سبب اهمالها.

٢ ـ بوصوله تقابله حالا وتفيده بانه توالى علينا بصورة وثيقة بأن الأتراك رأوا التوجه من المدينة في ١٣ الجاري المصادف أمس بإثني عشر طابورا وبرفقهم المحمل ورأينا أن نفتح لهم الطريق حتى يتوسطوا منه فيأتيهم فيصل من خلفهم ويكون أمامهم زيد المعسكر من أسبوع بين (القظيمة) ورابغ بالمتطوعة ولكنه في هذه الحالة يحتاج جدا لتقويته بثلاثة طوابير تساق اليه من أقرب المواقع وليكن انزالها في رابغ أو القظيمة.. ولا أقول هذا آخر رجائي.

ـ ٥ ـ

وفي يوم ١٨ منه طير البرقية الآتية:

لا أظن أن قيمتنا لدى العظمة البريطانية لا توازي سوق ثلاث آلايات فان زيادة تواتر حركات العدو بالقوة السالفة الذكر وضيق الوقت وما هو في معنى ذلك استلزم جلب علي بقوته الشرقية الى رابغ وتأخير وظيفته الأصلية»

الضرورة الجأت الى ارتكاب هذا التبديل العظيم في خط الحركة مع جهل حسن النتيجة

عالمنا العسكري الذى لم تدخلوه حتى الساعة في مبدأ التكوين يمنع العظمة البريطانية عن نسبتنا للالحاح ويلزمها بصيانتنا عما في هذا من المشاكل والمخاطر وبكل عجلة أقله صدور الأمر بباخرة حربية مصحوبة بطيارتين أو ثلاث لتكون راسية أمام رابغ.

- ٦ -

وفي يوم ١٩ منه طير المندوب الى الحسين البرقية الآتية:

«أفهمني نائب الملك بانه ليس في استطاعة الحكومة البريطانية إرسال جنود إلى الحجاز لأسباب مختلفة أهمها الحذر من اتهام العالم الاسلامي لهم واعتقادا منهم بأنه ليس للأتراك قوة يخشى منها. المهمات الحربية كالرشاشات والبنادق سترسل مع باخرة خاصة بها ولا يريدون إرسالها مع باخرة فيها أجانب»

- ٧ -

وفي يوم ٢٣ منه أرسل الحسين الى نائب الملك البرقية الآتية:

تلقيت الآن برقية من مندوبي هذا نصها: «أفهمني فخامة نائب الملك انه ليس في استطاعة الحكومة الآن إرسال رجال جند الى الحجاز لأسباب مختلفة أهمها الحذر من اتهام العالم لهم الخ وفي بياني لفخامتكم في إحدى كتبي الأخيرة عما أرسل من النقود الى الآن بانها موجودة لم تلمسها الأيدي واصراري على الاكتفاء بمدفعين من البطارية الجبلية وطلبي اعادة الباقي الى مستودعها كاف لسلامتي من هذه الوجوه الثانية لمخالفتها لمقررات الإتفاق المعلوم لدى الفخامة سيما اعتباركم لنا في جملة الحلفاء وهذه أجل البحث فيها.

- ٨ -

ولما طال الأخذ والرد بلا جدوى طير يوم ٢٢ ذي الحجة الى نائب الملك البرقية الآتية:

«إن مقاومة جندنا البدوي للمتغلبة (الاتراك) وحليفتها (المانيـا) وصدهـم في نحورهم وثباته أربعة شهور لا يحجمني عـن طلـبي للعظمـة البريطانيـة امدادهـا العسـكري كشـرط عهدنـا ولقـد حصـل لدينـا مزيـد الأسـف مـن اسـترجاعها الطيارات أيضا بعد أن وصلت الى رابغ في الوقت الذى كـانت طيـارات العـدو تهدد يمنة جندنا الذى بقيادة فيصل وتؤثر عليه، فزيادة تفوق العـدو بطياراتـه في هذه المرة يـلزمني باسـم العهـد والتحـالف الواقعـين بيننـا، عـدا مـا صرحـت بـه حكومة جلالة الملك في بلاغها الرسمي المذاع في ٢٨ رمضان المبيح لها كل محذور بقولها فيه عن العرب انهم انخرطوا في عداد الحلفاء ضد العدو المشترك ثـم قولهـا انها ستبذل كل الجهد في ابقاء الأماكن المقدسة آمنة من كـل طـارىء خـارجي. فكل هذا يخولني أن أطلب بسرعة اعادة الطيارات الى رابغ بمهندسيها ومديريهـا بدون اضاعة وقت وان حياة أبنائنا علي وفيصل وزيد كافلة لحراستها. أما القوة الجزائرية التي يقال انها ستساق فان صح أمرهـا فمـن الضـرورى اعتبـاري أنهـا بريطانية محضة وعليه فلا بد من إيجاد قوات كافية نظامية لمقابلـة العـدو واحبـاط أعماله المرتكن فيهـا علـى الفـن والمخترعـات الحربيـة الـتي لا يحسـنها جندنـا في الوقت نفسه فـاذا حصـل أدنـى تـأخر في انقـاذ الطلبـات الواقعـة الضروريـة في الوقت العاجل فما يحدث عقبه مـن التهلكـة العظمـى الـتي لا تتصورهـا مملكتنـا المرتكنة بعد ا لله تعالى على شرف وشهامة محالفتها مـع حكومة جلالـة الملـك لا تخفى على فخامتكم الخ.

ولم يقف الحسين عند هذا الحد من الطلب بل أرسل برقية أخرى يوم ٢٣ منه مقترحا إرسال سفينة خاصة تنقل ولده عبد ا لله الى مصر لمقابلة نائب جلالـة الملك على أن لا تزيد مدة غيابه عن عشرة أيام للتفاهم.

فرد عليه معتمده يوم ٢٨ منه بالبرقية الآتية:

«أبلغني اليوم نائب الملك جوابا على برقية مولاي بأن دولة بريطانيا لاتود أن يخالج ضمير مولاي شك في أنها لا تود مساعدته في كل مايحتاج اليه بشرط أن يكون في الإمكان وأنهم يعتبرون مصالحهم متحدة مع مصالحنا وذكرني بأنهم فعلوا كل ماطلبناه سوى مسألة الثلاثة أورط وأنهم يهمهم جداً اقتناع سيدي بحسن نيتهم ووفائهم وأنهم مستعدون لمساعدتنا بكل ما يلزمنا على قدر امكانهم الخ.

- ٩ -

وفي يوم أول محرم سنة ١٣٣٥ أرسل البرقية الآتية أيضا:

قابلت اليوم نائب الملك مقابلة طويلة متباحثاً في عدة أمور أهمها تصريحه نهائيا بأنه لا يوجد أدنى سوء تفاهم ولا يدري ما هي الأسباب التي حملت مولاي على اعتقاده وقال انه يمكن أن تكون مسألة عدم إرسال قوة الى رابغ واسترجاع الطيارات وكرر القول بان منتهى رغبته تحقيق أماني مولاي ورغباته بشرط أن يكون في استطاعته المحافظة على توازن القوى التي تدافع عن بلادها والتي تساق الى الأماكن الأخرى وبين الرأي العام الاسلامي ومع هذا فقد طلب طلبات مولاي من لندن ويأمل أن يصله جواب مرضي في خلال هذين اليومين الخ.

- ١٠ -

وفي يوم ٢ منه أرسل البرقية الآتية الى نائب الملك:

«ايفاد ولدنا عبد الله أساسا منوط لرأي فخامتكم والقصد به قيامنا بوفاء ما يجب أمام بريطانيا العظمى. فلا حظنا في مبادىء المخابرة مع فخامة الوزير عن حسيات المسلمين في حركتنا وامدادنا بالقوة العسكرية حتى لما يتحدث في داخلية البلاد لحين تكويننا القوة العسكرية كما هو معلوم الفخامة وصراحة شهامتكم في تحريركم ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ الموافق ١٠ مارس سنة ١٩١٦ بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبنا وعطف حسيات فخامتكم في خاتمة رقيمكم بادىء الذكر بقولكم: «وبالختام أقدم عظيم احترامات وكامل ضروب المودة والاخلاص التي لا يزلزلها كر العصور ومرور الأيام» أظن يا فخامة الشهم أن هذا يجعل لي الحق في استفهام فخامتكم عن أثر التجنب الذى نراه يزداد يوما فيوما.

ويهمنا جدا الوقوف على حقيقة الأمر لئلا يقع ما يحدث زيادة التجافي لأمر وسبب لا حقيقة لهما.

- ١١ -

وعاد الحسين ثانية الى طلب الطيارات فأرسل يوم ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٥ البرقية الآتية الى مندوبه بمصر

تزور فخامة النائب وتفيده أن الغرض من الطيارات هو لدفع ضرورة شديدة فاذا لم يمكن بأي صورة مرافقتها لمعسكراتنا الجنوبية فالرجاء تفيدونا بسرعة كيما نتخذ أسبابا أخرى تخفف احتياجنا لوجودها ونتدارك الأمر مهما أمكن حتى لا نترك الحاجة بدون تدبير من الاسرافات والتكلفات في مواد لا توازي جزءاً من مصرف وكلفة إنشائها المبحوث عنه.

وفي اليوم نفسه طيرت اليه الوكالة الخارجية البرقية الآتية لابلاغها الى نائب الملك بنصها وهو:

«توالت علينا برقيات الأمير فيصل وقد جاءنا من سموه اليوم ثلاث برقيات مفصلة وكل حرف من حرفها يدل على شدة حاجته الى المؤونة ولاسيما المال بسبب الطوفان العظيم الذى تدفق عليه من قبائل الشمال وكلها تقسم يمين الطاعة بين يديه وتعطي الضمانات المعروفة في مثل هذه الأحوال. ثم تطلب السلاح والمال وانه لمن المستحيل أن يترك سموه هذا الأمر على حاله والأمير فيصل يتهدد بالانسحاب من الميدان اذا لم تجب مطالبه بكل سرعة. ويقول سموه أن هذا النجاح العظيم يجب أن لايهمل وأن لا يكتفى أمامه بالكلام والوعود مخافة أن يدب الملل والضجر الى تلك القبائل المتحمسة التي أقبلت بظعنها وخيامها فنرجو تدارك الأمر كيف كان وبأي واسطة ممكنة فعالة وسريعة مخافة الفشل الذي نثق ونؤكد أن فخامته يبذل ما بطاقته لدفعه ولا حاجة بنا إلى وصف الموقف الذى بات فيه جلالة مولانا الملك الأعظم بسبب الكارثة وفخامته في غنى عن كل بيان. وقد زاد جلالته على ذلك بقوله اننا لسنا من التجار حتى نحتاج الى كل ذلك ولسنا من الذين يريدون ربحا خصوصيا ليستفيدوا من وراء هذا بل اننا عاملنا حليفتنا الموقرة كما يعامل الرجل أهله فضلاً عن حرصنا الشديد على كل ما يصدر. ولكن الضرورة القاهرة الشديدة ولزوم المحافظة على مكانتنا ومكانتهم في عيون الوفود المتكاثرة دعت الى طلبنا هذه الزيادة الخ.

وفي يوم ١١ منه أرسل المندوب البرقية الآتية:

قابلت اليوم النائب وعرضت المطالب وكانت نتيجة المقابلة إطمئناني التام بأن بريطانيا ستستمر في معاونتنا تماماً وأن فخامته أكبر نصير لهذه السياسة الحسنة ولقد كلفني أن أعرض أسمى احتراماته وتشكراته القلبية لجلالة مولاي الأعظم واليكم الجواب عن جميع برقياتكم المرسلة الينا:

الطيارات لا يمكن نقلها إلى ينبع لأسباب عسكرية وهي التسلط التام على السكة الحديدية وأن الطيارات التي في الوجه عملت لها مراكز في منتصف الطريق بين الوجه والسكة الحديدية فالرجال العسكريون والطيارون الانكليز متفقون بأن بقاءها في محلها أفيد بكثير من نقلها وفخامة النائب مطمئن الى ذلك.

سيرسلون من هنا بعد عشرة أيام ثلاثين الف جنيه إلى الامير فيصل لعرب الشمال وهم على وشك ارسال نحو أربعة آلاف بندقية وقد طلبوا من انكلترا كميات كبيرة من الأسلحة. أما زيادةِ الراتب الشهري من الدراهم والدقيق كما تطلبون ففخامته موافق. ولقد أرسل برقية إلى المعتمد بجدة يبين له التعليمات اللازمة بهذا الخصوص وعند ما ما يتشرفِ المعتمد قريبا بالمثول بين يدى جلالة الملك فمن الواجب عمل ترتيب قطعي معه بهذا الخصوص وفخامة النائب يطلب التفصيلات والأسباب الداعية لهذه المزيادة لكي يبينها لحكومته فتوافق عليها ولهذا يجب أن تكون البراهين قاطعة لإقناع الماليين البريطانيين الذين هم بطبيعتهم عسرين كما في جميع العالم وقد زاد فخامته أنه مقتنع غاية الاقتناع

بأن كل ما طلبناه منهم ليس إلا ضـروري ولا يخطـر في فكـره غـير خـاطر وإننـا وإياهم نعتمد على بعضنا الاعتماد كله وان صداقتهم ومعاونتهم ستستمر مـدى الأيام.

- ١٤ -

وفي يوم ٢٠ منه أرسلت وكالة الخارجية البرقية الآتية الى المندوب بمصر:

العدو حضر بير الماشي بنصف قواه وحاكميتها على الجهات فألتمس مـن فخامة النائب لأجـل سـلامة المصلحـة أن لا يعلـق انفـاذ طلباتنـا المؤسسـة علـى تسريع النتائج المرغوبة من كل وجهة ملاحظـات الغـير فانـا أعلـم بحالـة البـلاد. وأبسط الأدلة على هذا أنهم لو أسعفونا ببقـاء جـزء مـن الطيـارات بمعسـكراتنا الجنوبية وقذفهم بعشرة قنابل لسـقطوا في اليـوم الثـاني وغنمنـاهم وغنمنـا مـدة مطاولتهم وما فيها من النفقات والمشاكل بل السلامة من جميع المحـاذير الناشـئة عن ذلك والمتعلقة بالحياة فاننا في أشد الحاجة لقنابل المدافع الصحراوية الـواردة من السودان في الغالب والمعلوم عيارها عندهم. وقد اضطررنـا الى بعـث مقـدار الراتب الذى جعلناه للمركـز للامـير علـي والأمـير زيـد كـرا جمـالهم في الشـهر ثلاثين الف جنيه فإنه لدى معسكر زيد ثلاثة آلاف جمـل ولـدى معسـكر الأمـير علي الف جمل بالكراء لكل جمل خمسة جنيهات لتباعدهم عن مركز السوقيات.

- ١٥ -

فرد عليها يوم ٢٢ منه بالبرقية الآتية:

يقولون أن القنابل الصحراوية موجود منها في السويس ١٥٠٠ ستشحن

غدا للوجه لإرسالها الى ينبع لسمو الأمير علي وانهم أعدوا هذا المقـدار لشـحنه من سبعة أيام فحصل عطل بالباخرة اضطرهـم للتأخـير وهـم مسـتعدون لتقديـم كميات أخرى عند الطلب. وكذلك أرسلوا مقدارا منهما من الاسلحة إلى سمـو الامير عبدا لله بواسطة الامير فيصـل، والمظنـون أن سموه لا يتمكـن مـن إرسـال جميع ما وصل اليه من الديناميت لقلة الوسائط النقلية وسيرسلون في باخرة الغـد ثلاثة آلاف ليترة من الديناميت للامير فيصل ليرسلها الى أخيـه وهـم مسـتعدون أن يرسلوا كل شهر من الدينـاميت بحسـاب ١٠٠ ليـترة في اليـوم. والكولونيل نيوكمب الموجود في الوجـه متخصـص في هـذه الشـؤون ويقولـون انهـم أبلغـوا الأمراء انهم مستعدون أن يقدموا لهم جميع مطالبهم.

تدابير الحلفاء للدفاع عن رابغ :

لم تذهـب صيحـات الحسـين في طلـب النجـدة والمسـاعدة مـن الانكلـيز للدفاع عن رابغ وصـد الـترك فيمـا لـو هاجموهـا أو حـاولوا الوصـول الى مكـة بطريقها سدى، فقد حملتهم على الدرس والبحث واتخاذ بعـض التدابـير للدفـاع عن الجيش العربي وحمايته.

ولقد عالج هذه الحادثة الكولونل بريمون (الجنرال بريمون بعد ذلـك) وقـد كان رئيسا للبعثة الفرنسوية الى جده في كتابه الحجاز في الحرب العالمية.

قال ما خلاصته:

«غادر الأمير ال ويمس السويس على أثر وصول أخبـار انسـحاب الأمـير فيصل فبلغ رابغ بالبارجة ايريلادس ومعه قـواه. ووصـل أيضـا الى جـدة الكبـتن

لورانس في أول نوفمبر وكان الأمير علي مخيما في رابغ. أما الأمير فيصل فكان في بير عباس مع ٨٠٠٠ من جهينة لا يفكر إلى في الزحف نحو الشمال.

وغادر لورانس الحجاز وهو معارض كل المعارضة لاستخدام الوحدات الأوربية في جزيرة العرب مؤكدا أن القبائل تتخلى عن الشريف وتعدل عن نصرته اذا استعان بالأوربيين مع أن التجارب التي جربت بعد ذلك في العقبة جاءت مناقضة لهذا الرأي

ورافق الكبتن لورانس الأمير ال ويمس إلى الخرطوم فعقدوا مجلسا برئاسة السردار أقر المبادىء الاتية:

١ - لا يستطيع الجيش العربي في حالته الحاضرة أن يقاوم حملة صادقة يحملها عليه الترك.

٢ - يحتاج الدفاع عن رابغ الى حامية مؤلفة من ثلاثة أروط ولما كانت وزارة الحربية البريطانية أبت الأخذ بهذا الاقتراح فمن الواجب تأليف فيلق من الجند العربي النظامى المأسور في الهند.

٣ - وجوب انتقال القوى الفرنسوية الى رابغ.

٤ - وجوب إرسال الكولونل نيوكمب بلا ابطاء.

ثم يقول في مكان آخر من كتابه وعاد الأمير ال ويمس بعد ذلك مع خمس بوارج واظهر استعداده لإنزال الجنود الى البر عند الحاجة. أنزل الانكليز باغراء السردار قوة من الجنود المصريين بقيادة السيد علي باشا مع بطاريتين من مدافع الجبل المصرية وبلوكي استحكام.

ثم جاءوا باربع طيارات و ٤٠٠ جندى مصري و ٢٠٠ بريطاني.

وفي يوم ٢ نوفمبر أبرق السردار السررجنلد ونجت الى الكولونيل ويلسن المعتمد البريطاني في جدة يقول ان في استطاعة البارجة هاردنج أن تحمل إلى رابغ القوى الفرنسوية التي وصلت حديثا الى السويس فاضطر الكولونيل بريمون رئيس البعثة الفرنسوية أن يبرق اليه قائلا (حيث أن في استطاعة الترك أن يأتوا بجيش لايقل عن اثني عشر ألف مقاتل مسلحين بثلاث بطاريات فالقوات الانكليزية والفرنسوية غير كافية ولهذا أرى الاحتفاظ برشاشاتنا في السويس ريثما يتخذ قرار نهائى في شأنها بين الحكومتين)

وقال الجنرال ليندن بيل رئيس أركان حرب الحملة المصرية صباح ٥ نوفمبر للملازم الأول سان كنتان في القاهرة ان الباخرة هاردنج تنتظر قرار الكولونيل بريمون في السويس فرد عليه هذا بأنه لم يرده منه شيء من يوم ٢ الجاري فأجابه بانه يرجوه أن يبلغه قراره حينما يصل اليه.

وفي اليوم نفسه تلقى الكولونيل بريمون بواسطة المسيو ديفرانس معتمد فرنسا بالقاهرة برقية أرسلها القائم بأعمال فرنسا في لندن بتاريخ ٢ نوفمبر وهذا تعريبها: «لقد بذلت الجهد عند السرادواردغراي ملحاً بضرورة احتلال رابغ وبانزال النجدات الفرنسوية التي أرسلت لمساعدة الشريف مع ضباطها الى البر. ولما كانت الأخبار الواردة هذه الليلة الى لندن تدل على تقدم الترك ثلاث مراحل في زحفهم نحو رابغ مما أثبت أنني كنت على صواب في سعي وبما أن الأمير ال الانكليزى صرح قبل أسابيع أنه قادر على صد الترك ومنعهم من العبور بما يملكه من قوى فقد سألته الحكومة الانكليزية عما اذا كان في

استطاعته الدفاع عن رابغ أم لا؟ فاذا رأى أن هنالك حاجة لتدخل الجيش فيجب عليه أن يطلب ذلك من السردار الذى تلقى أمراً بأن ينزل في تلك الحالة الى البر الأقرب الى رابغ من الوحدات الانكليزية ـ السودانية أو الفرنسوية. وسيتفق السردار مباشرة مع الكولونيل بريمون على التفاصيل ولم نثر مسألة دخول المسيحيين أو عدم دخولهم الى الحجاز بوجه من الوجوه.

وقد طلب اللورد غراى أن تكون السفن الحربية الفرنسوية على قدم الأهبة لمساعدة الأمير ال الانكليزى في الدفاع عن رابغ»

وفي يوم ٤ نوفمبر أبرق وزير الخارجية الفرنسوية الى الكولونيل بريمون رئيس البعثة العسكرية يقول انه وافق على الجواب الذى رد به فيما يختص بطلب الرشاشات وانه لما كانت الحكومة البريطانية قررت أن تنظم الدفاع في رابع على منوال مناسب فترسل جنودا تشد أزرها بوارج حربية فيجب على البعثة الفرنسوية أن تساعد الانكليز والعمل بالاتفاق معهم عندما يبدأون بتطبيق هذا البرنامج.

وفي يوم ٤ نوفمبر غادرت البارجة الفرنسوية جيبوتى الى رابغ وتلتها البارجة وأمر نائب الأمير سبتز أن تتولى إحدى هاتين البارجتين وظيفة الخفر في خليج رابغ.

وفى يوم ٩ نوفمبر أبلغ الكولونيل بريمون برقية جاءته من السردار في الخرطوم بأن الحكومتين الانكليزية والفرنسوية اتفقتا على أن تقصد رابغ القوات الفرنسوية القادمة من بيزرت وتلك النازلة في السويس.

وأبلغ الجنرال لندن بل في الوقت نفسه هذه البرقية الى الملازم الأول سان كنتان فأجابه انه يفكر في إبلاغ أوامر السردار الى قائد نقطة السويس فقال له بأن السردار سينظم هذه المسألة مع رئيس البعثة مباشرة وأبلغ ذلك الى قائد نقطة السويس أيضا. وعلى أثر ذلك أبرق الكولونيل بريمون الى السردار يقول أنه لم يتلقى الأمر الذي يبلغه اياه وانه بعد ما يقابل الأمير ال ويمس حين مروره بجدة ويتفق معه يصدر الأوامر اللازمة الى سان كنتان.

وفي يوم ١٤ منه أبرقت وزارة الخارجية الفرنسوية الى رئيس البعثة بأن يتخذ جميع التدابير اللازمة للتعاون مع الانكليز فذهب على الأثر الى رابغ فبلغها في الساعة الثامنة من مساء ١٤ منه فوجد فيها بارجة فرنسوية وبارجتين انكليزيتين وكانت القوة الانكليزية المصرية تخيم في شمالي الميناء بقيادة الميجر جويس. أما قوات الأميرين علي وزيد فكانت ترابط بين النخيل منتشرة إلى الشمال والجنوب قرب القوة المصرية.

ووصلت إلى رابغ يوم ١٧ منه القوة الفرنسوية وقد أبحرت من السويس بالباخرة لاما الانكليزية وتتألف من ٨ ضباط و٣٧ جنديا وصف ضابط بينهم ٣ من رجال الصحة وهي بقيادة اللوتنان كولونيل قاضي المسلم الجزائرى.

وقصد الخرطوم الكولونيل بريمون للتعرف إلى السردار وللإتصال به وللبحث في الدفاع عن رابغ فوصلها يوم ١٤ ديسمبر ومعه الكبتن جورج لويد (اللورد جورج لويد) فدارت أحاديث طويلة بين هؤلاء الثلاثة حول التدابير التي يجب اتخاذها للحيلولة دون سقوط مكة المهين للحلفاء ويمكن اجمال القواعد التي دار عليها البحث في ما يلى:

١ ـ القيام بعمل في العقبة أو غزة لقطع سكة حديد الحجاز، على أن يقوم الجيش المصري بعمل عاجل وراء الحدود.

٢ ـ انشاء حصن في رابغ لقطع الطريق على الترك.

٣ ـ احتلال الوجه لاتخاذه قاعدة لتخريب سكة الحديد في منطقة مداين صالح

٤ ـ عدم تشجيع العرب على أخذ المدينة لأن أخذها يعزز فكرة الاتحاد العربي ويقويها مما يضر بمصالح الحلفاء.

وفي يوم ١٩ ديسمبر سافر الكولونيل ويلسن والكولونيل بريمون إلى رابغ فاختارا مكانا لإنشاء مطير عليه وكانت هنالك حاجة الى ٩٠٠ مصري علاوة على القوى الموجودة والبحارة الذين ينزلون الى البر عند اللزوم ويتفاوتون بين «٦٠٠-٨٠٠ والقوة الفرنسوية التي كانت في السويس. ولقد رفضت وزارة الحربية الفرنسوية السماح لأورطتين كانتا في جيبوتى بالإبحار إلى رابغ. وأرسلتا إلى فرنسا بعد ذلك.

وعرض السنيور بيرناباى معتمد ايطاليا في جدة على الشريف أن يقدم أربع أورط من الأحباش فأجابه بأن يحادث الانكليز في هذا الشأن

وفي يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ وصل السرريجنلد وينجت سردار الجيش المصرى الى القاهرة قادما من الخرطوم ليتقلد منصب نائب الملك في مصر فقال للمسيو ديفرانس معتمد فرنسا أثناء زيارته له: «أنه وإن كان انتزاع مكة من الترك أثر أثراً غير محمود في مصر وفي الهند فإنا من القائلين بوجوب تقديم

المساعدة اللازمة للشريف ومن أنصار الرأي القائل بإرسال جنود أوربيين إلى رابغ وإن كان لابد من موافقة الشريف مقدما على ارسالهم» ثم أبدى أسفه لتردد هذا واضطراب موقفه وقال انه أرسل اليه كتاباً فيه معنى الانذار ليجيب عليه بلا أو نعم ومداره هل يوافق على انزال هذا الجند في رابغ أم لا. وقال انه في حالة ورود الجواب بالرفض فانه يرسل هذا الجند الى مكان آخر ريثما يطلب ثانية. وذكر أيضا أنه يرى بأن انزال جند ولو كان قليل العدد في رابغ يوقد نار الحماسة في صدور العرب ويحمل الترك على العدول عن محاولة الدنو منها.

وقد رد الحسين على برقية نائب الملك ببرقية رقمية أرسلت بتوقيع الشيخ فؤاد الخطيب الى الكولونيل فيها شيء من الغموض فأبرق هذا الى القاهرة قائلا إن الحسين قبل إنزال جنود أوربيين فأصدر الجنرال ونجت على الفور أمراً الى الجنرال موراى بأن يبلغ لواء الجنرال ا. مودج وكان قد أعد من قبل للسفر بأن يتحرك وسأل الجنرال لندن بل الملازم سان كنتان عن القوات الفرنسوية وهل ستسافر إلى جدة وقال انها ستكون بقيادة الجنرال مودج وتنقل معه وتمون بواسطته. فأجاب الكولونيل بريمون يوم ٧ يناير سنة ١٩١٧ قائلا بأن قوات السويس الفرنسوية ستسافر الى رابغ مع القوت الانكليزية على بوارج انكليزية وان اللنتونان كولونيل قاضي سيتلقى الأوامر من الجنرال مودج مع احتفاظه بالاستقلال الداخلى. وأن الكولونيل بريمون سيحضر بنفسه الى رابغ للاشراف على حركة النزول والسكنى وأكد سان كنتان للجنرال مودج انهم سيعملون كل ما في امكانهم لارضائه وقد وافقت وزارة الحربية الفرنسوية على هذه التدابير فأصدرت التعليمات الآتية:

«تكون القوات الفرنسوية المتجمعة في رابغ بقيادة الليتونان كولونيل قاضى ويكون هو بأمرة الجنرال مودج».

وتلقى هذا التعليمات الآتية وهى تحدد مهمته:

١ ـ حماية معسكر الطيران (مطير) رابغ والميناء.

٢ ـ منع العدو من الدنو من الماء

وكانت الخطة التي تصورها نائب الملك تنطوي على ابقاء الجنود الأوربيين في رابغ للدفاع عنها وارسال القوى العربية كلها الى ينبع وتوجيه البدو نحو الخط الحديدي.

وضرب يوم ٩ يناير موعداً لسفر اللواء وكانت الدلائل تدل على أن كل شيء انتهى وتقرر إلا أن وصول الكولونيل ولسن الى جدة يوم ٦يناير عائدا من رحلته إلى مصر وقد عرج على ينبع ورابغ حعلهم يعدلون عن ارسال اللواء وبيان ذلك أن هذا أقتنع بعد مادرس الحالة هنالك عن كثب بانه لاحاجة إلى ارسال جنود أروبيين اليها (ولم يك فيها يومئذ أكثر من ٢٠٠ منهم) وقال أن الترك لن يصلوا اليها مطلقاً وأن مجيء لواء من الجنود البريطانيين يؤدي الى حصول اضطراب فأيد بذلك وجهة نظر لورانس ثم طلب برقية الشيخ فؤادا الخطيب الخاصة بطلب المساعدة وأعاد قرءاتها وقال انها لا تنطوي على الصراحة الكافية ثم رأى الكولونيل ويلسن وبريمون أن يسافرا الى رابغ فيجتمعا بشيوخ القبائل ويبسطا أمامهم الموقف ويطلبا منهم العهود بعدم احداث أي اضطراب وبالطبع فمثل هذا العمل لا يتسنى القيام به الا بعد موافقة الملك وتحت اشرافه.

وفي يوم ٩ يناير أبرق نائب الملك الى الحسين للبت في مسألة الجنود

الأوربيين وكلفه أن يطلب إرسالهم بكتاب خطي وعلى مسؤوليته وكانت حاشيته مجمعة على طلب التدخل الأوربى ماعدا الشيخ فؤاد الخطيب.

أما هو (الملك) فكان غير ميال اليه على أن يكتفي بالمساعدة المادية وفي يوم ١١ منه قرر أن يكتب بأنه لا حاجة في الوقت الحاضر الى الاستعانة بجنود أوربيين على أن يحتفظ بحق طلبهم عند الضرورة. وفي يوم ٢٥ منه قررت وزارة الخارجية البريطانية بناء على اقتراح نائب الملك وضع لواء مسلح تحت تصرف الجنرال مواري ـ انتهى ملخصاً عن كتاب الحجاز في الحرب العالمية بقلم الكولونيل بريمون.

وكتب الدكتور شهبندر وهو يترجم الكولونيل لورانس عن حوادث رابغ مامانخصه: «لما تحرج الموقف حول المدينة سافر الكولونيل لوارانس (الكبتن لورانس يومئذ) وكان يعمل في مصلحة الاستخبارات الانكليزية في القاهرة إلى جدة في أوائل شهر اكتوبر سنة ١٩١٦ فاجتمع بالأمير عبد الله ثم قصد ينبع فاجتمع بالأمير لأول مرة في وادي الصفراء على طريق المدينة وكان معه نحو ٨٠٠٠ مقاتل بينهم ٨٠٠ هجان فدرس الحالة ووعد الأمير بإرسال الذخائر والسلاح والمال ثم ودعه وسافر الى الخرطوم فاجتمع بالسردار ثم قصد القاهرة وتداول مع ولاة الأمور البريطانيين في شؤون الثورة العربية ودار البحث حول إرسال لواء من جنود الحلفاء الى تلك الاصقاع وكان الكولونيل بريمون رئيس البعثة الفرنسوية يصر كثيرا على تنفيذ هذه الخطة ويلح بارسال قوات فرنسوية وانكليزية الى رابغ لاحتلالها فحال لورانس دون ذلك وقدم تقريرا إلى القيادة البريطانية العليا قال فيه إن القبائل العربية قادرة على الدفاع عن الاكام بين المدينة ورابغ اذا هي اتحفت بالمدافع والنصائح ولكنها على التحقيق تنفض الى خيامها اذا

علمت بنزول الاجانب في بلاد العـرب. ومما قالـه عـن الكولونيـل بريمـون أن لـه غايات خاصة في طلبه نزول الأجانب إلى البر لا تتعلق بالخطط الحربية وانـه رجـل يدس الدسائس على الشـريف وعلـى الانكليز في وقـت واحـد وقـدم أدلـة علـى ذلك. فسر القائد العام بهذا التقرير وانتهت المسألة بإرسال سلاح ومـال وضبـاط إلى الجيش في رابغ وتعيين لورانس مستشارا حربيا للأمير فيصل».

انشاء الجيش العربي :

على هذا المنوال ختمت المشادة التي قـامت بـين الحسـين والحلفـاء بشـأن إرسال القوى والمعدات الى رابغ ـ وقد استمرت نحو أربعة أشهر، قاسى الحسـين في خلالها من مطل الانكليز وتسـويفهم واختـلاف قـادتهم وذوى الشـأن منهـم الأمرين، فقد كان كل واحد منهم يسعى لناحية خاصة كما كان كثـيرون منهـم يقاومون الثورة العربية ويتمنون موتها، يؤيد ذلك مارواه لورانس في كتابه وهـو أن القائد العام للقوى البريطانية في مصر لم يكن مؤمنا بالثورة العربية ولا ظهر له أن يبذل المال والرجال والسلاح في سبيلها وكان يرى أن يوجـه جميـع قولـه الى ميدان فلسطين الأكبر، وربما كره أن يتدخل نـائب الملـك وهـو رجـل ملكـي في الشؤون العسكرية، ولاح للناس يومئذ أن الثـورة العربيـة مـاتت في المهـد ورأى كثير من ضباط الأركان الحربية البريطانيـة بمصـر في جميـع ذلـك سـخرية بنـائب الملك وقهقهوا فرحاً بأن يجدوا الحسين نفسه عاجلا على مشنقة الاتحـاديين وهـم كجنود بسطاء كانوا يشعرون في نفوسهم بعطف على الترك عطف الزميل علـى الزميل فلم يكن بمقدورهـم أن يـردوا الفاجعـة والعـار في المسلك الـذى سـلكوه. وزاد الطين بلـة أن البعثة الفرنسـوية العسـكرية كـانت تـدس الدسـائس علـى الحسين في جدة ومكة.

فهذه الاعتبارات جعلت الحسين يعدل عن الاعتماد على الحلفاء عسكريا وينظر في انشاء جيش نظامي يعول عليه في المهمات وفي مقابلة الخطوب.

ولما كان انشاء جيش كهذا يحتاج الى ضباط أكفاء يقودونه وإلى جنود يؤلفون نواته فقد دارت المفاوضات بين الحسين وولاة الأمور الانكليز بمصر وتقرر أن يستعان على تحقيق هذه الأمنية بالجنود والضباط العرب الذين أسرهم الانكليز في ميدان فلسطين وفي العراق على أن تقدم السلطة اليه ما يحتاجه من سلاح ومعدات.

ويؤخذ من المكاتبات التي دارت بين الحسين ومندوبه في هذا الشأن أن الاول أخذ منذ الشهر الثاني للثورة يلح في إرسال الضباط والجنود العرب إلى الحجاز للبدء في انشاء الجيش وتكوينه يؤيد ذلك البرقية الصادرة من مكة الى المندوب بمصر يوم ١٥ رمضان أي بعد اعلان الثورة بخمسة أسابيع قال:

«بكل امكان من السرعة تبعثوا لنا ضباطا لتأليف قوة البلاد المنظمة فان أمرها أصبح أول شيء تحتاجه البلاد» ولا ريب أن هذه الجمل القصيرة تترجم عن شعور الحسين في ذاك العهد وتصف حالته وما كان يعلقه على انشاء جيشه. ولا نشك في أنه لو أخذ الانكليز بيده وسهلوا له السبل والوسائط وأمدوه بما يطلبه من قوى ومعدات لتغير وجه الحرب من السنة الاولى ولاتقت بلاد العرب كثيرا من المصائب بيد أن سيرهم الملوّى وترددهم بل وعدم واخلاصهم حال دون اتساع نطاق الأعمال العسكرية وتأليف الجيش القوي المطلوب

وتدل الوثائق التي نشرت حتى الآن أن أول قافلة من الجنود العرب غادرت السويس يوم ٢ شوال سنة ١٣٣٥ (أول أغسطس سنة ١٩١٦)

كانت تتألف من ٧ضبـاط هـذه أسماؤهم: نـورى بـن سـعيد البغـدادي، ومحمـد حلمي البغدادي، وراسـم سردسـت الدمشـقي ورؤوف عبـد الهـادي النابلسـي وابراهيم الراوي وجميل الراوي البغداديان ورشيد الهاشمي البغـدادي وعـدد مـن الجنود وسافر معها أيضا الدكتور أمين المعلوف اللبناني ومعه مستشفى كامل لمئة جريح مع جميع اللوازم و ٥٠ خيمة.

وأرسـل الانكليز إلى جـده في البـاخرة التـى أقلـت هـؤلاء ٤٥ طـن أرز ومثلها من الدقيق و٥ أطنان سكر وألفين بندقية و ٢٣٣٠٠٠٠ قذيفة (البنادق والقذائف لينبع) و ٣٠٠ بغلة للنقليات و ٢٦ حصانا لجر المدافع

عزيز علي المصري وانسحابه :

وغادر عزيز بك علي المصرى القاهرة يوم ٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ الى جده لمقابلة الحسين وليتولى انشاء الجيـش النظـامى الجديـد، ولم يطـل الاقامـة في مكة بل سافر الى رابغ ـ حين اشتداد الأزمة ـ وكان فيها نوري السعيد وابراهيم الراوي وحلمي البغدادي وجميل الرواي فقد جاءوها يـوم ١٥ شـوال مـن مكـة بعد مقابلتهم الحسين وبدأوا بالعمل ثم تتابع وصول الجنــد والضبـاط والمعـدات فانشأوا بادىء ذى بدء فوجين من المشاة وفوج رشاش وبطارية مدافع.

ووافق عزيز بك علي ومن معه إلى انشاء قـوة قويـة لا يسـتهان بهـا نـالت اعجـاب الأعـداء قبـل الأصدقـاء ودلـت علـى نشـاط العـرب وذكـائهم. وقـد اشتركت هذه القوة في المعارك التي دارت حـول المدينـة. غـير أن حادثـاً حـدث لعزيز بك بعد انقضاء ثلاثة أشهر من وصوله جعله ينسـحب مـن العمـل ويعـود إلى مصر.

والذي عليه الأكثرون أن السبب الحقيقي لانسحابه هو خلاف نشب بينه وبين الإنكليز فقد ألح على الحسين في أن يطلب من هؤلاء ارسال المدافع التي غنموها من الترك في ميدان فلسطين قائلا ان عندنا طائفة من المدفعيين تحسن استعمالها ولما طال المطال ولم يرسلوا شيئا قال ما معناه يلوح لي ان الانكليز يريدون القضاء على العرب والترك في وقت واحد وذلك بأن يتركوهما مهملين حتى يفنوا بعضهم بعضاً فلا هم يرسلون لنا القوى والمعدات لنضرب الترك الضربة القاضية ونحتل المدينة ولاهم يتركوننا وشأننا فيقضي الترك علينا ونرتاح وينفردون بالعمل وحدهم. والظاهر أن هذه الأقوال نقلت إلى الحسين والانكيز فألح هؤلاء على الحسين في طلب اقصائه منتحلين لذلك بعض الأعذار فأرسل تعليمات سرية إلى الأمير علي في رابغ بأن يوعز اليه بأن يطلب اجازة، فأدرك هذا ما يجري في الخفاء فتقدم بنفسه لطلبها وعاد الى مصر، بعدما أتم انشاء ثلاثة أفواج من المشاة وثلاث بطاريات مختلفة وفوج هجانة وبلوك مهندسين، فحل نوري السعيد محله في رئاسة أركان حرب الجيش، كما حل محمود القيسوني محله في رئاسة الجند بمكة (وزارة الدفاع) وقد قلدها على أثر انشاء الحكومة في مكة.

وبينما كان عزيز علي ونوري السعيد واخوانهما ينشئون الجيش في رابغ كان مولود مخلص الموصلى وعبد الله الدليمي وراسم سردست يعملون في ليف نواة جيش نظامي في ينبع فتولى الأول تنظيم الخيالة والثانى المشاة والثالث المدفعية، وقد انبثقت هذه النواة عن الجيش الشمالي الذي اتجه الى العقبة والشام وظل يتقدم حتى حلب.

الوضع الجديد للجيوش العربية :

غادر الأمير عبد الله الطائف قاصدا ميدان القتال للإشتراك في المعارك

الدائرة حول المدينة فسلك الطريق الشرقى وظل في تقدمه من دون أن يمر بمكة حتى بلغ وادي العيص فحط فيه رحاله واتخذه معسكراً لجيشه وبدأ العمل. فاصبح للعرب حول المدينة ثلاثة جيوش:

١ ـ الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل ومقره حوالي بير درويش (غربي المدينة) ومهمته الرئيسية مشاغلة جيش فخري باشا ومنعه من بلوغ ينبع

٢ ـ الجيش الجنوبي بقيادة الأمير علي ومقره رابغ ومهمته منازلة الترك ومنعهم من الزحف الى مكة.

٣ ـ الجيش الشرقي بقيادة الأمير عبد ا لله ومقره في العيص ومهمته منازلة العدو وتخريب سكة الحديد بين الشام والمدينة.

وتولى الجيش الاول وحده منازلة الترك في ابتداء الثورة، لأن الأمير عبد ا لله كان منهمكا في حروب الطائف كما كان الأمير علي منهمكا في حل مشكلة ابن مبيريك، يضاف الى هذا أن ينبع أقرب الأماكن الى المدينة فلذلك انصب عليها فخري باشا بقواته محاولا بلوغها وضرب الجيش الشمالي وتمزيقه ثم الزحف إلى مكة بطريق رابغ بيد ان استسلام الطائف السريع ووصول الأمير عبد ا لله إلى ميدان القتال وتتابع وصول الامدادات والنجدات ونفرة العرب من داخل الجزيرة لتأييد الحركة الجديدة، فت فى عضد فخري باشا وأضعف قواه الأدبية ففضل البقاء في المدينة وعدم التورط في حرب ميدان لايعرف نتائجها.

جيش الأمير علي في الميدان :

عاد جيش الأمير على إلى النضال في شهر ربيع الأول بعد ما أكمل

معداته في رابغ فتحرك يوم ٢٢ منه قاصدا غدير أبو عوف، فتراجع الترك أمامه وجلوا عن سفح الغاير وعسكروا بين الحز وآبار علي تاركين ساقتهم في بئر روحانا، واشتبكت طلائع هذا الجيش صباح ٢٧ منه بقوات للترك قرب بير الناجم فدار قتال شديد بين الفريقين اسفر عن الهزام هؤلاء وطردهم من أماكنهم الحصينة في «الحز» فتقدم الجيش حتى بئر عباس فعسكر فيها. ثم ارتد إلى قاعدته في رابغ لاعتبارات محلية على أنه عاد يوم ٢٧ ربيع الثاني فاحتل بئر عباس واتخذها قاعدة له. وقد هنأ نائب الملك في مصر الحسين بانتصار جيشه في هذا الميدان.

ومما يستحق الذكر بهذه المناسبة أن الأمير علياً قضى سني الحرب كلها في ميدان القتال حول المدينة ولم يعد الى مكة إلا في أواخر سنة ١٩١٩ أي بعد غياب زاد عن أربع سنوات فقد غادرها في سنة ١٩١٥ ذاهبا إلى المدينة المنورة لقيادة حملة المتطوعين المرسلة إلى قناة السويس. وأصيب بالحمى في رابغ سنة ١٩١٦ واشتد عليه المرض فكتب أحد رجاله إلى والده يبلغه خبر مرضه فأرسل اليه أنه يبرأ منه ولا يسمح له بدخول مكة اذا عاد اليها، مع أنه ماكان يفكر بالرجوع مطلقا. وما يقال عن الأمير علي يقال عن اخيه فيصل فانه لم يعد الى مكة بعد خروجه منها في أوائل سنة ١٩١٦ لينضم إلى جمال باشا إلا في أواخر شهر ابريل سنة ١٩٢١ - أي ست سنوات وكان في طريقه الى البصرة.

وينوه الكولونيل بريمون في كتابه الحجاز في الحرب العالمية حين بحثه الأعمال العسكرية التي عملت في خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩١٧ (ربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأولى سنة ١٣٣٥) بالتقدم المشهود في اعمال العرب العسكرية ويقول ان قواتهم كانت تتألف كما يأتي:

١ ـ جيش الجنوب ويقوده الأمير علي ومعه الأمير زيد ويعسكر في رابغ

٢ ـ جيش الوسط أو الجيش الشرقي ويقوده الأمير عبد الله وكان يرابط في جنوب المدينة الشرقى.

٣ ـ جيش الشمال بقيادة الأمير فيصل ومقره ينبع ـ الوجه.

ولقد تحرك الأمير علي نحو المدينة يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩١٧ بإلحاح الملك وإصراره فسار حتى أبو دهيبه الواقعة على بعد ٧٠ كيلومترا من رابغ وألقت الطيارات الانكيزية القنابل على الترك بنجاح أثناء تقدمه. وجاء فخري باشا بعشر أورط ليحول دون سيره.

وأغار البدو من أتباع هذا الجيش علي الترك فوصلوا حتى بيار علي وعادوا بنحو ستين تركيا أسرى. وجاء الأمير علي يوم ٢٣ منه فعسكر في بير العبدوفي يوم أول فبراير (شباط) ألقت الطيارات التركية القنابل على معسكره. وفي يوم ٥ منه زحف الأمير زيد فتقدم ٢٠ كيلومترا إلى الامام فلم يصادف أحداً من الترك الذين جلوا عن هذه الأراضي. وعاد الأمير علي الى رابغ يوم ١١ منه فأعد حملة جديدة من مكيين وبيشه وبدو وغيرهم بلغ عددها ٤٨٠٠ ومعها سبعة مدافع و ٧رشاشات وسار بها يوم ٢٧ فبراير سالكاً الدرب السلطاني وواصل الأمير زيد عمله فاستولى على الأماكن المجاورة للمحز

وكانت الطيارات البريطانية الأربع بقيادة الميجر روس (Ross) ترافق حملة الأمير في تقدمها وقد طارت ثلاثة منها فوق المدينة وصورتها بالفوتوغرافيا. ولم يبق بأيدي الترك بعد ذلك سوى بير الماشي وبير درويش المحيطين بسكة الحديد الواقعة في الشمال الشرقي.

وبلغ جيش الأمير علـي بـير عبـاس يـوم ١٠ مـارس. وقذفـت الطيـارات التركية وعددها ثلاث معسكر الأمير زيد بلغ البـدو في غـاراتهم أبـواب المدينـة وعادوا بكثير من الأسرى. فكان هذا أول انتصار باهر ناله العرب. وقـد بلغـت خسارة الترك في هذه المعـارك ١٢٥ قتيـلا وجريحا و١٧ أسـيرا بينهـم ضابطـان وقتل عربيان وجرح ١٠ وخندق الترك وراء حصونهم ولم يتحركـوا حركـة مـا وكان البدو يتوارون وراء الصخور في الجبال ويطلقون النار على أمـاكن الـترك من الصباح حتى المساء. وفي يوم ٢٧ مـارس ضـرب الأمـير علـي مخيمـه في بـير درويش ولم تقع بعـد ذلـك معـارك ذات شـأن نعـم ان العـرب وجهـوا عنـايتهم للاستيلا على بير الماشي الحصين ويؤلف جزءا من خط الدفاع عن المدينة فحشد فخري باشا جميع قواه فيه تاركاً المدينة بلا حامية فارتد الأمير زيد إلى الحـز كمـا ارتد الأمير علي وهو يقاتل الى الدرب السلطاني.

الأمير عبد الله في الميدان :

وغادر الأمير عبد الله الطائف فبلغ الخـانق في أوائـل شـهر ديسـمبر سـنة ١٩١٦ وهى في جنوبي المدينة. وقـد أثـر تقدمـه في القبـائل الـتي كـانت مواليـة للترك فحملها على تغيـير موقفهـا وشـقت كتيبـة تركيـة كـانت في نخلـة جنوبـى المدينة وغنم منها مدفعا و ٣ رشاشات.

ثم اجتاز بجيشه سكة الحديـد وعسـكر في وادي العيـص فـارتد الـترك إلى جبل أحد وقد أحكموا تحصينه.

والتقى رجال الأمير يوم ١٣ يناير (١٩ ربيع الأول) بعصابة القـائم مقـام أشرف بك التركى، في مكان يبعد يومين عن محطة أبي النعـم فـدار بينهمـا قتـال

شديد انتهى باستسلام العصابة وكانت تحمل ٢٥ ألف ليرة عثمانية ذهباً إلى اليمن فأمر الأمير بتوزيعها على رجاله وأسرا أشرفا رئيسها وقائم مقاما آخر و٢٤ جنديا وضابطا

وضرب الأمير مخيمه يوم ١٩ يناير في معربا (وادي العيص)

الزحف نحو الشمال :

في صباح ٢٤ يناير سنة ١٩١٧ أطلقت البوارج البريطانية ايرلوت ودوفرين وفوكس قنابلها على الوجه وأنزلت على مسافة ٣ أميال منها ٢٥٠ بحريا انكليزيا و ٥٠٠ جندي عربي حملتهم من ينبع فدارت بينهم وبين الترك المتحصنين في خنادق قوية معركة حامية انتهت بانسحات هؤلاء وارتدادهم إلى مسافة ٦ أميال تاركين ٧٠ قتيلا وجريحا و ١٠٠ أسيرا ومدفعين و ٤٠٠ بندقية. واليك نص البيان الرسمي الذي نشرته الوكالة العربية بمصر في هذا الشأن:

«سقطت مدينة الوجه في قبضة جنودنا العربية بعد معركة عنيفة دافع فيها الترك دفاع المستميت ثم فرت جنود الأعداء لا تلوي على شيء تاركة بين أيدينا ٨٠ أسيرا وعددا من القتلى والجرحى. وقد جدت جيوشنا في اقتفاء أثرهم ولا تزال تضرب في أقفيتهم وتقهقر الترك لا يلوون على شيء»

وغادر الأمير فيصل ينبع يوم ١٤ يناير فبلغ الوجه فى ١٥ منه ومعه الكبتن لورانس والكولونيل نيوكب و ٣ آلاف هجان و ٤ مدافع و ١٠٠ رشاشه وفى يوم ١٩ ربيع الثانى (١١ فبراير) استولى العرب عنوة على المويلح وضبا وأسروا أسرى وفر الترك الى شوك.

وفي يوم ١٧ مارس نقل مطير رابغ الى الوجه وبدأوا من يوم ٢٠ فبراير بمهاجمة محطات سكة حديد الحجاز. وفي الوجه انضم جعفر باشا العسكري الى جيش الشمال وعين قائدا عاما للقوات النظامية وعين نوري السعيد رئيس أركان حرب له

واضطر الترك على أثر اتساع ميدان القتال وانتقاله من الحجاز الى صحراء الشام وظهور العرب حول محطات سكة الحديد الممتدة في هذه الصحراء إلى اتخاذ تدابير جديدة على طول هذا الخط فقسموه الى ثلاث مناطق: منطقة العلا وتولى قيادتها اللواء بصري باشا محافظ المدينة القديم ومنطقة تبوك وتولى قيادتها القام بمقام عاطف بك ومنطقة معان وتولى قيادتها اللواء محمد جمال باشا وقد جاءوا به من أزمير وتولى الفيلق الثامن المحافظة على القسم الممتد من معان إلى درعا ويقوده الفريق جمال باشا الصغير.

وكانت قوات الجيش الشمالي النظامية في أوائل سنة ١٩١٧ تتألف من: سرية هجانة وسرية بغالة وبطارية مدافع مؤلفة من ٤ مدافع: مدفعي جبل مصريين ومدفعي صحراء وسرية رشاشات وفوج مشاة عدده ٣٠٠ جندي نظامي.

وكانت قوى الجيش الجنوبي النظامية تتألف من ثلاثة أفواج مشاة وفوج هجانة وفوج رشاش (١٦ رشاشة) وبلوك مهندسين وبطارية او بوس انكليزية وبطارية جبلية وفصيل مدافع صحراء وفصيل مدافع جبلة وعين نوري الكويري لرئاسة أركان حرب هذا الجيش على أثر انتقال نوري السعيد الى الجيش الشمالي لخلاف نشأ بينه وبين محمود القيسوني (وزير الحربية)

حروب المحطات

وألف الجيش الشمالي على أثر نزوله في الوجه سرايا كبيرة للغارة على المحطات فكانت سرية الشريف شرف بن راجح تتألف من قوة البغالة ومدفعين جبليين وأربع رشاشات مع مفرزة التخريب ويعززها نحو ألف هجان من قبائل البدو فأغارت هذه السرية في أوائل مارس على قلعة المعظم وكانت حاميتها التركية مؤلفة من فوج مشاة و ٦ رشاشات ومدفعين وخيالة وبعد التراشق بالمدافع وكان الترك قد استعدوا للقاء العرب واحكموا مواضعهم صدر الأمر لهؤلاء بالهجوم فمشت القوات النظامية الى الأمام بقيادة قائدها مولود مخلص تحت نيران العدو واضطرته الى التراجع واخلاء خنادقه الأمامية ــ والالتجاء الى داخل القلعة بينما كانت مفرزة التخريب المجهزة بالديناميت تواصل نسف الخطوط. ولم يشترك البدو في هذا الهجوم ولم يتسن للمدفعية العربية هدم القلعة ولم توفق الى حماية الجنود حين هجومهم على القلعة فاستهدفوا لنيران العدو الشديدة، وعند الظهر تلقوا أمراً بالتراجع فارتدوا تاركين ١٢٥ قتيلا وجريحا كما أصيب قائدهم بجرحين وكسرت يده اليسرى وقتل أحد ضباطه وجرح معظمهم.

وفي أواخر يوليو أعد الجيش سرية كبيرة بقيادة جعفر العسكري تتألف من اللواء الهاشمي (فوج البغالة) بعد توسيعه بمن انضم اليه من الأسرى العرب فصار يتألف من ٢٠٠ بغالا و ٢٠ خيالا و ١٥٠ هجانا ورشاشتين ثقيلتين و ٨ رشاشات خفيفة (وكان بقيادة مولود مخلص) ومن مدفعين جبليين ومن سريتي

رشاشات ثقيلة (٨ رشاشات) ومن فوج مشاة ومن مفرزة التخريب فوصلت هذه السرية بعد منتصف ليل ٣٠ يوليو إلى محطة زمرد، وكان الترك قد سيروا سرية من فوجي مشاة وسرية رشاشات ومدفعين لطرد مفرزة الكولونيل نيوكمب (وكانت مهمتها نسف الخطوط والقطارات وتعطيلها) فاشتبكوا مع القوات العربية ودار قتال عنيف بين الفريقين فاضطر جناح العرب الأيمن الى التوقف لشدة نيران العدو وثبت الجناح الأيسر المؤلف من اللواء الهاشمي وحما الجناح الأيمن وحمل العدو على التراجع. بيد أن وصول نجدات لهذا جعله يعدل عن خطته ويحاول تطويق اللواء الهاشمي وكان يزحف الى الأمام فانتبه قائده إلى هذه الحركة وقابل حركة الالتفاف بمثلها فقد اعد على الفور قوة صغيرة سلحها برشاشتين خفيفتين وأربعة ثقيلة وقادها بنفسه وحمل بها على الترك لاحباط خطتهم وأصلاهم نارا حامية تاركا قيادة القوى الباقية إلى وكيله فتراجعوا أمامه وظل القتال دائرا حتى غروب الشمس وعند المساء أصدر جعفر العسكري أمرا بالانسحاب لنفاد الماء فاقترح عليه مولود المخلص استئناف الهجوم على الترك لاحتلال الجبال المطلة على الآبار وقال اذا عدنا من دون أن نشرب ونروي خيلنا فمصيرنا إلى البوار والهلاك لأن الماء يبعد عنا مسيرة يوم واحد فوافقه على رأيه فحمل الجند على الأكمام والجبال فاحتلتها كما استولى على آبار الماء فشربوا وسقوا الخيل وعند منتصف الليل ارتدوا نحو الجديدة وكانت مقر قيادة الجيش الشمالي بدلاً من الوجه وبلغت خسارة العرب في تلك المعركة الحامية ٥٠ جنديا بين قتيل وجريح.

احتلال العقبة :

وفي أوائل شهر يوليو سنة ١٩١٧ سير الجيش الشمالي سرية بقيادة

الشريف ناصر إلى معان والعقبة لتخريب الجسور والمحطات وإزعاج الترك فقامت بعملها خير قيام سيما بعد أن انضم اليها عوده أبو نايه شيخ قبيلة الحويطات فهاجمت محطة معان وشتت شمل القوى التركية المرابطة هنالك.

وفي يوم ١٩ رمضان (اغسطس سنة ١٩١٧) وصلت هذه القوى إلى العقبة فاستولت عليها حرباً وأسرت حاميتها التركية المؤلفة من ٧٢٠ جنديا و ٣٠ ضابطا يقودهم أمير آلاى وغنمت مدفعين. وبلغت خسارة الترك في معارك معان والعقبة نحو ٦٠٠ قتيل وجريح وقرر الأمير فيصل على أثر هذا الفوز الانتقال الى العقبة وسير على الفور رشيد المدفعي مع ٥٠٠ جندي جيىء بهم حديثا من الأسر مع تجهيزاتهم وملابسهم العسكرية فلبسوها في البواخر وتم نقل الجيش الشمالي كله على الاثر واتصل برا بالجيش البريطاني في فلسطين

وفي أوائل شهر شوال احتل الجيش الكويرة مواصلا الزحف الى الامام وفي منتصف شهر شوال سير سرية لغزو محطة تبوك فعادت بجملة أسرى بعد ما دمرت جانبا من السكة واستولت سرية أخرى من سراياه على قلعة مطران وأسرت ٤٥ أسيرا تركيا بينهم ثلاثة ضباط.

انتصار وادي موسى :

وأعيد تنظيم القوى النظامية في العقبة على منوال جديد سيما بعد ما تتابع وصول الاسرى من الجنود والضباط العرب فصارت تتألف من فرقتين مشاة تتألفان من أربعة ألوية: لواء العقبة الاول والرابع ومقرهما العقبة ولواء الكويرة واللواء الهاشمي ويتألف اللواء من فوجين والفوج من ٥ سرايا

(بلوكات) مع سرية رشاشات. ولواء مدفعية وفوج نقليـات وفيـه ١٥٠٠ جمـل ووحدة هجانة وهكذا تضاعف عدد الجند النظامي.

وقد وزعت هذه القوى في أوائل احتلال العقبة على المنوال الآتي:

يؤلف اللواء الاول القوة الاحيتاطية ويظل في العقبة ويرابط اللواء الثـاني في الكويـرة ويحتـل اللـواء الهـاشمي وادي موسـى (البطـراء). وقـد نفـذت هــذه التعليمات بلا صعوبة فأزعج ذلك الترك وأقلقهم فجهزوا حملة عسـكرية كبـيرة زحفت إلى وادي موسـى في أوائـل شـهر ذي القعـدة لاحتلالـه فصدمهـا اللـواء صدمة شديدة واستمر القتال بين الفريقين ثلاثة أيام حمل في نهايتهـا اللـواء علـى الترك فمزقهم وكسرهم شر كسرة مع أن عدد جندهم كـان يزيـد علـى عـدده أضعافا مضاعفة وقاد الحملة التركية وقد سارت من معان اللواء محمد جمال باشا بنفسه.

وجدد الترك الحملة فاعدوا سرية تتألف من كتيبتي بغالة ومدفعين وسـرية رشاشـات سـارت مـن معـان للقيـام باعمـال الاسـتطلاع ولسـبر غـور القوتـين العربيتين في وادي موسـى والكويـرة. وكـان الجيـش العربـى قـد أعـد سـرية في «المريفة» بقيادة مولود مخلص قوامها فوج مشاة (٤٠٠ جندي) وسـرية رشـاش ورعيل من الخيالة فالتقت السريتان في المريفة (أواخر نوفمبر سنة ١٩١٧) ودار قتال بينهما في عين وحيدة انتهى بارتداد الترك وانسحابهم ثـم استؤنف القتـال وصال العرب على الترك فجلوا عن هذه مرتدين الى سمته ومعـان نفسـها فعـزز احتلال هذه مركز الجيش العربي فاخذ يغير على أطـراف معـان ويضـايق الـترك فاعدوا قوة جديدة في أوساط شهر دسمبر تتألف من كتيبتي بغالـة وفوجـي مشـاة

وبطاريتي مدافع فقابلتهم السرية العربية نفسها وصدمتهم فارتدوا الى سمنه والمسافة بينها وبين عين وحيدة ٨ كيلو مترات

وفي شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ انتقل مقر الجيش الشمالي من العقبة الى الكوبرة وفيها أعد سرية من اللواء الهاشمي وهجانة الشريف ناصر بقيادة نوري السعيد سارت الى الجفر وفيها انضم اليها عودة أبو نايه برجاله وكان ينزلها فحملوا جميعا على محطة جروف الدراويش (بين عمان ومعان) فدمروها وأسروا حاميتها التركية المؤلفة من ١٠٠ جندي وغنموا مدفعا ودمروا قطاراً كاملاً كان يحمل ميرة الى المدينة.

معارك الطفيلة ومعان :

وأعد الجيش الشمالي حملة بقيادة الأمير زيد تتألف من هجانة الشريف ناصر ومدفعين جبليين ورشاشتين وكوكبة خيالة و ٦٠٠ من قبائل الحويطات فزحفت الى الطفيلة لاحتلالها ومشاغلة الترك شرقي نهر الأردن لتخفيف العبء عن الجيش البريطاني وكان يحارب في غربه فاحتلتها في أوئل شهر فبراير بدون مقاومة تذكر، فاعدت القيادة التركية العليا فرقة عسكرية بقيادة أمير الآلاي حامد فخرى لاسترادادها وطرد العرب من تلك الانحاء لما لمقام الطفيلة من شأن عسكرى كبير. واتصل هذا النبأ بالامير زيد قائد القوى العربية في الطفيلة فاستنجد بقبائل الكرك العربية فانجدته وجاءه رؤساء القبائل بالذات ووصلته نجدات من الكويرة. وفي أوئل شهر مارس حملت الفرقة التركية على العرب فصمدوا لها ودار قتال عنيف استبسل فيه الفريقان وانتهى بتمزيق الفرقة التركية شر ممزق وقتل قائدها وهيئة أركان حربه وعدد من ضباطه وغنم العرب

مدفعين من المدافع السريعة الطلقات و ٢٢ رشاشة و ٢٠٠ دابة وأسروا ٣٠٠ جندي.

وفي منتصف شهر مارس أعد الترك حملة كبيرة لاسترداد الطفيلة قادها محمد جمال باشا بالذات أيضا ففازت باسترجاعها على أنها ما لبثت ان جلت عنها.

وانتقل مقر الجيش الشمالي من الكويرة الى أبي اللسل في تلك الأيام مشايعا للجند في زحفه.

وحدثت حادثة في أوائل شهر ابريل تستوفق النظر وتدل على انتشار روح القومية في صدور رجال الجيش وعلى يقظتهم وتثبت أنهم كانوا يحاربون لاستقلال العرب لا لغاية أخرى. وبطل هذه الحادثة اللواء مولود مخلص (قائد الفرقة العربية الأولى يومئذ) فقد ابى تنفيذ أمر أصدرته اليه القيادة بمهاجمة محطة فصوعة الواقعة جنوب معان، وقال يجب علينا بعد الان أن نولي وجهنا شطر الشمال (شطر بلاد الشام) لخدمة قضيتنا الوطنية والعمل على تحرير اخواننا. ويبدوا أنه من خلال ذلك أراد تحدي الضباط الانكليز في المعسكر وهما لورانس وجويس وقد كانا يعملان جهدهم ليوجهوا الجيش العربي نحو الجنوب (أي نحو الحجاز) ولصرفه عن التقدم نحو بلاد الشام والتوغل فيها طبقا لتعليمات حكومتهما.

ووضع مولود باشا واخوانه الضباط على الاثر مضبطة بمعنى ما تقدم رفعوها الى الامير طالبين أن يولي الجيش وجهه نحو الشمال تاركا قوة كافية لحصار معان ريثما تسقط جوعاً كما فعلوا في ميدان المدينة من قبل فيخدمون بذلك القضية الوطنية التي جاءوا للموت في سبيلها.

ولما وصلت المضبطة إلى القيادة أمرت بتنحية مولود عن العمل لانها اعتبرت عمله خروجا على التقاليد والنظم العسكرية. وأعدت قوة لمهاجمة محطة فصوعه عملا بالأمر الصادر قادها جعفر العسكري بنفسه، ولكنها لم تكد تغادر أبا اللسل حتى هبت عليها عاصفة شديدة تلتها أمطار غزيرة فتاهت في الصحراء وتشتت وهلكت دوابها واتصل ذلك بمقر القيادة فارسلت السيارات والجند لإنقاذها فعاد رجالها بعد عناء شديد من دون عمل فكأن الطبيعة أرادت أن تشارك الضباط في غضبهم. وما هي إلا أيام حتى أفرج عن مولود باشا وأعيد الى قيادة فرقته وصدر اليه الأمر بان يستعد للهجوم على معان وكان الضباط الانكليز يسمونها فردون العرب.

وفي منتصف شهر ابريل أعدت سرية بقيادة عبدالله الدليمي تتألف من قوة من مشاة الفرقة الأولى ومدفعين جبليين وبعض رجال الحويطات للهجوم على محطة دار الحج الواقعة جنوب معان، ولما اقتربت منها أرسلت جنديا وعريفاً للاستطلاع فباغتهما الترك وقتلوا الأول وجرحوا الثاني وقاوده مجروحاً الى داخل المحطة، وهاجمت السرية المحطة واستولت عليها وأسرت حاميتها ولما رأت العريف العربي مذبوحا قتلت جنديين تركيين انتقاماً له. وكتب قائدها إلى قائد الجيش التركي في معان ينذره بقتل أسرى الترك اذا عادوا الى ذبح الأسرى العرب، ويقول له «عندنا كثير من أسراكم ولا يوجد أسير واحد منا عندكم».

معارك معان :

ولما تمت الاستعدادات لمهاجمة معان، صدر الأمر الى الفرقة العربية الثانية بأن تتظاهر عسكرياً أمام محطة الجردونة لتحول بين قواها وبين الانضمام إلى

حامية معان حين الهجوم علـى هـذه، فقـامت بمهمتها وهـاجمت المحطـة يـوم ٢٢ ابريل وفي صباح ٢٤ منه تقدمت الفرقة الأولى بقيادة مولود باشا لاحتلال تلول السمنات الواقعة غربي معان وكان اللواء الأول يؤلـف مقدمـة الجيـش المهـاجم فشرع بالهجوم على الخط الأول من صبـاح ٢٥ منـه وأصلـت المدفعيـة العربيـة الترك نيراناً حاميــة فتقـدم الجنـد تحـت حمايتهـا فـاحتل بعـد عنـاء سلسـلة تلـول السمنات وهى واقعة غربـي معـان وتبعـد عنهـا كيلومـترا وتسـيطر عليهـا وقـد حصنها الترك من قبل ولما رأى قائد الفرقـة تقهقـر الـترك شـهر حسـامه ونـادى برجالـه وتقـدم لمطـاردة المنهزمـين وكـانوا متجهـين نحـون معـان وكـان يظـن أن سقوطها أصبح قريبا، ففاجأته قوة تركيـة بنـيران شـديدة مـن خنادقهـا فـأصيب برصاصها وكسرت رجله فنقله جنده على الفور الى مقر الجيش ومنها أرسل الى القاهرة للمعالجة.

وأصلى الترك من مواقعهم الحصينة في معـان، العـرب نيرانـاً حاميـة لكـي يزحزحوهـم فثبتـوا وأخـذوا يعـدون العـدة لاسـتئناف الهجـوم وكـانوا يـترقبون وصول الفرقة الثانية من محطة الجردونـة ــ وقـد تكللـت مهمتهـا بالنجـاح التـام فدمرت المحطة وأسرت الحامية ـ وعادت مثقلة بالغنائم فعهـد إليهـا بـالهجوم مـن جناح الفرقة الأولى الأيمن (أي من جنوبي غربـي معـان) وكـان الأمـيران فيصـل وزيد في تلول السمنات يشرفان على الأعمال العسكرية.

وحمل الجيش العربي على أماكن الترك الحصينة أصيل يوم ٢٧ ابريل بعـد ما أصلتهم مدفعيته نيرانا حامية وتقدم المشاة ـ ولم يشترك أحد من رجال القبـائل في هذه المعركة لانهم لم يألفوا الهجوم علـى الحصـون ــ فطـردوا الـترك واحتلـوا حط الدفاع الثاني عند العشاء وقضوا فيه ليلتهم وكـرروا الهجـوم في الغـد عنـد

الاصيل على خط الدفاع الثالث، واشتد القتال وامتد حتى المساء وانتهى بفوز المشاة العرب واحتلالهم الخط الثالث فقضوا فيه ليلتهم.

وجزع الترك واضطربوا وعقدوا في الليل اجتماعا قرروا فيه الاستسلام للعرب - وما كانت حامية معان تقل عن فرقة عسكرية - لعجزهم عن المقاومة. ولما شاع ذلك بين السكان أقبلوا على التطوع في صفوف الترك فسلحوا نحو ٥٠٠ منهم شحنوهم في خط الدفاع الرابع وعززوهم به ولقي الجيش العربي صعوبة وعناء في الغد حين حملته على هذا الخط ودام القتال حتى الليل فأصدر القائد أمرا بارتداد الجيش الى خط الدفاع الثاني لان الترك تلقوا نجدات في ذلك اليوم ولأن قنابل المدافع نفدت، وفي ٣٠ ابريل ارتد الجيش الى عين وحيدة وبلغت خسارة العرب في هذه المعارك ١٠٠ قتيل وجريح. واليك ما كتبه مولود مخلص عن حروب سمنه - معان قال:

«أصدر سمو الامير المعظم أمره بالتأهب للزحف على سمنة واحتلالها بالقوى العربية وهي اللواء الاول من الفرقة الاولى ويتألف من فوجي مشاة (٦٥٠-٧٠٠ محارب) بقيادة تحسين علي ومن سريتي رشاش و ٤ مدافع صمراء ومثلها جبلية ومدفعين هوجكيس بقيادة جميل المدفعي وما ينوف عن ٤٠٠ مجاهد من العشائر.

«وصدرت الاوامر في اليوم التالي بان ينضم اللواء الثالث للفرقة الاولى مع سريتي رشاش و ٤ مدافع جبلية مصرية وعدد غير يسير من أبناء القبائل الى القوة الاولى، وكان هذا اللواء قد تحرك قبل ٣ أيام بقيادة نوري السعيد الى جنوب معان لتخريب سكة الحديد والمحطات فادى مهمته فصدر اليه الامر بان يرتاح.

«وفي يوم ٢٤ نيسان (ابريل) تحرك اللواء الاول بعد العصر بطريق عكيكه في الشرق الجنوبي من معان (الجناح الايمن من سمنة) ولقد تلقت احدى السرايا أمرا أن تذهب مع رشاشتين وجمع من القبائل الى جناح سمنه الايسر فتشاغل العدو.

«واستقر الرأى على أن يكون الهجوم من الوراء لسهولة الاراضي فتقدمت الوحدات النظامية وحشدت على منوال تستطيع معه منازلة قوى العدو القادمة من معان وضرب قواه المرابطة في سمنة من الجناح والوراء أيضا. واختير مكان موافق للمدفعية فتسنى لها ضرب سمنة من الجناح والخلف واصلاء معان نارا حامية.

«ولما بزغت شمس ٢٥ ابريل بدأت المدفعية تصب نيرانها على أماكن الترك في سمنة لتمهد لهجوم المشاة ـ وما كان الترك يعتقدون ان الجيش العربي يستطيع أن يقوم بمثل هذه الحركة الخطيرة ـ فقامت بواجبها على أفضل منوال ـ وبعد انقضاء ٢٠ دقيقة أمرت قائد اللواء الاول أن يوعز الى أحد أفواجه بالهجوم فزحف فوج المرحوم عبد الحميد الهاشمي فاحتل موقع الترك الذين انسحبوا بسهولة من دون خسارة تذكر بسبب تساهل الفوج وقوي الجناح الايسر في مطاردتهم. وانفرد مدفعان من مدافعنا بمطاردتهم وكان على جانبيهما جميل المدفعي وأصلاهما نارا حامية. ولم يشترك أحد من أبناء العشائر وكانوا يحصون بالالوف.

«وخيل الى أنه من العار علينا أن ندع العدو يتقهقر من دون أن نفتك به ونمزق قواه فلا تنضم الى اخوانها وتحاربنا في الغداة. ولكن ما العمل وليس

عندى قوة راكبة أستطيع أن أطارده بها، وبما أنني لم أقدر على ضبط نفسي ولا أن أقف موقف المتفرج على ضياع هذه الفرصة الثمينة تذهب من أيدينا أسرعت أحث عبيد الأمير وكانوا بالقرب منا ولا يقل عددهم عن ٦٠ خيالا على مطاردة العدو فانضموا الي وهجمنا على سرية تركية كانت مسرعة في الانهزام فأسرناها كلها وبدأنا نطارد سرية أخرى. وانشغل معظم هؤلاء في نزع سلاح الترك المأسورين فتأخروا عن اللحاق بي ولم يبق معي مهم سوى ١٥ ـ ٢٠ جندياً فأطمع ذلك العدو المنهزم فوقف وأخذ يطلق الرصاص علينا فاصابت رصاصة رجلي اليسرى فكسرتها وجرحت أخرى اليمنى وقتل خمسة من رجالنا وجرحت فرسي. وهرب من كان معي.

«وعرف جنودي ما أصابني فأتوا لنجدتي تحت نيران العدو الحامية فكان ذلك أعظم برهان على الوداد المتقابل والمحبة السائدة بين الجند وقائدهم. وتقدر قوة الترك التي اشتركت في محاربة سمنة بفوج مشاة وسرية رشاش ومدفعين وكانت المدافع التركية في معان تأتي كل صاح الى سمنة وتعود في الغروب وحيث أن الهجوم عليها وقع عند الفجر فلم تستطع هذه المدافع أن تساعدها بل َاكتفت بمساعدتها في أثناء تقهقرها».

وأعد الجيش بعد هده المعارك سرية مؤلفة من ٣٠ هجانا بقيادة الشريف ناصر فهاجمت يوم ٨ مايو محطة القطرانة وأسرت عدداً من الجند التركي ثم أعادت الكرة عليها في الغداة ولم تخربها.

وأعد سرية أخرى أسماها سرية وادي الحسا مؤلفة من هجانة بدو ومدفعين ورشاشتين للتأثير في بني صخر وعشائر الكرك وحملهم على الاشتراك

في تخريب السكة وقد اتحدت مع سرية الشريف ناصر وهاجمت يوم ١٢ منه محطة القطرانه فلم تنجح.

ثم هاجمت محطة وادي الحسا يوم ١٥ منه فاحتلتها ودمرت جانبا من السكة فسير الترك قوة استردتها في اليوم التالي. ونشط العرب في خلال هذا الشهر نشاطا زائدا لتخريب السكة وتعطيل مواصلات العدو فدمروا ٢٥ جسرا من جسور السكة خلال عشرين يوما

وهاجمت سرية عربية أخرى يوم ٣٠ مايو محطة الفريفره وأحاطت بها فشقت حاميتها التركية طريقا لها واتجهت الى محطة القطرانة واسترد الترك المحطة.

وفي أوائل شهر يونيو تحركت الفرقة الأولى للجيش العربي من عين وحيدة للهجوم على محطة الجردونة، وظلت الفرقة الثانية في تلول السمنات لمشاغلة العدو. وتولى نوري السعيد قيادة هذا الهجوم ومشى اليه اللواء الاول من الجنوب والثاني من الشرق. وكان الترك قد أحسنوا تحصينها وحشدوا فيها قوة من المشاة مع ٤ رشاشات ومدفعين، فاستسلمت عندما ضيق الخناق فخربت الفرقة المحطة والجسر وعادت بأسرى وعددهم ٢٢٠ الى مقرها. وعاد الترك فأصلحوا الجسر والمحطة وسيروا في أواخر ذلك الشهر قوة مؤلفة من فوج مشاة و ٤ مدافع و ٨ رشاشات فاستولوا على المحطة وحصنوها واستأنفت الفرقه الاولى الهجوم عليها فلم توفق الى احتلالها. ثم سيرت اللواء الاول الى جرف الدراويش وهنالك انضمت اليها سرية وادي الحسا فهاجمتا هذه المحطة في أواخر ذاك الشهر أيضا ورأى قائدها أن لافائدة من المجازفة لأنها كانت حصينة فارتد

عنها فعادت سرية الحسا الى مكانها وظل اللواء الاول في التوانة فأقام فيها شهرا واحد لمنع اتصال الترك بقواهم في الجنوب ثم تلقى أمرا بأن ينسحب الى الطاحونة وكان فيها مقر الفرقة الاولى.

وأغارت سرية الشريف ناصر على محطات المنزلة وقلعة عنيزة ووادي الشعر فاستولت عليها ثم استردها الترك وكانت تنتقل بين أيدي الجيشين.

وقررت القيادة العليا في النصف الاخير من شهر يوليو مهاجمة الجردونة لمشاغلة حامية معان التركية ولتخفيف العبء عن عاتق الجيش البريطاني في الشريعة. وحمل نوري السعيد يوم ٢٠ يوليو بالفرقتين الاولى والثانية مع اللواء الهاشمي ومفرزة التخريب على الجردونة لتنفيذ هذه الخطة بعد ماترك اللواء الثاني من الفرقة الاولى أمام معان.

وكانت حامية الجردونة التركية مؤلفة من فوج مشاة و ٤ مدافع ورشاشات وكانت منيعة جدا كما كان على الجيش المهاجم أن يعمل في أراض سهلية تجعله هدفاً لنيران العدو ولذلك لم ينجح هذا الهجوم واضطرت القوات العربية إلى الارتداد بعد ما فقدت ٢٤ ضابطاً و ٢٠٠ جندي قتلوا ما عدا الجرحى.

وفي يوم ٢٣ يوليو تلقى اللواء الاول أمرا بالهجوم على محطة تل الأحمر وتقع بين معان والجردونة وتخريبها فلم يوفق وعاد بعد ما خسر ٥٠ قتيلا وبضعة جرحى وكر يوم ٢٥ منه فارتد أيضا.

تأليف الحملة الكبرى لفتح الشام :

بعدما استقرت أقدام الجيش الشمالي في العقبة والمناطق المجاورة لها وحاز ما حازه من نصر وتوفيق رأى أن يوسع نطاق أعماله وينقل الميدان الى حوران وجبل الدروز والغوطة لإنقاذ دمشق من أيدي الترك، فكاتب الأمير الانكليز ـ وكانوا من جهتهم يعدون المعدات للقيام بحملة كبيرة على خطوط الترك في فلسطين ـ فتم الإتفاق على اعداد حملة كبيرة يقودها الأمير بالذات ويكون مقرها الأزرق بدلاً من أبى اللسل واشترط لذلك شروطا قبلوها. وعلى أثر ذلك قاد الجيش النظامي وضباطه ورؤساء القبائل وزعماء الثورة وأبلغهم بأن يكونوا على تمام الأهبة للزحف على الشمال.

وتقدم نسيب بك البكري الحملة فقصد جبل الدروز ليمهد لها وليستميل الزعماء والشيوخ ويحملهم على الاشتراك في الجهاد القومي وهذا نص المنشور الذى حمله مس الأمير الى أهل جبل الدورز وحوران·

بسم الله الرحمن الرحيم

الى عموم أهل جبل الدورز وحوران المحترمين:

بما أننا قد انتدبنا السيد نسيب بك البكرى الى جهاتكم بالوكالة عنا ريثما نحضر بذاتنا أو يحضر أخونا الأمير زيد لجهتكم فيجب والحالة هذه اجراء جميع التسهيلات المقتضية التي اعتدنا أن نراها من أمثالكم الموصوفين بالغيرة العربية والحمية والشهامة العدنانية، بطرد اعدائنا وأعداء وطننا، أولاد جنكيز الذين اذا لم نتحد على طردهم من ديارنا ونخلص البقية من أبناء قومنا من

أيديهم فانهم لا يبقون منا فردا واننا بعونه جل جلاله سنأتيكم قريبا بجيوشنا ومعداتنا. هدانا الله وإياكم سواء السبيل ووفقنا للتغلب على الاعداء وراحة العباد وتخليص البلاد.

تحريرا في ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦ الموافق ٢٨ مارس ١٩١٨

وهبط نسيب بك الجبل فنزل قرية عنتر الواقعة على سيف البادية وأقام عند شيخها حسين بك الأطرش وهو من الموالين للثورة المؤيدين لها ثم اتصل بسلطان باشا الأطرش «شيخ قرية القرية» وسار اليه. وسلطان معروف بعدوانه للترك وشدة وطأته عليهم وكان بيته ملاذا لطريديهم كما كان مقرا للدعاية العربية في الجبل ومركزا من مراكز الإتصال بين ثوار العرب في الصحراء وبين سورية فكانوا ينزلون عنده ابان تنقلاتهم فيقيمون في حرز حريز.

ولما شاع خبر وصول نسيب بك إلى الجبل وعرف ما قام به من أعمال كتب سليم باشا الأطرش وكان ضالعا مع الترك يحكم الجبل من قبلهم الى سلطان باشا ينصحه بالعدول عن هذه الاعمال فرد عليه رداً قاسياً ودعاه إلى الانضمام إلى اخوانه وأبناء عشيرته في قتال أعدائه وأعدائهم.

وعاد نسيب بك الى العقبة وأطلع الأمير على ما وقع ثم رجع بعد شهرين مع الشريف ناصر يحمل المنشور الآتي:

الى كافة أهل الشمال حضريهم وبدويهم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: أما بعد فانه يتبين لكم من الفرمان الذى هو ضمن هذا الكتاب، الصلاحية التي خولني اياها جلالة والدي المعظم

وعليه ريثما آتي الى بلادكم بشخصي قد أنبت عني الشريف ناصر بن علي والسيد نسيب البكري لتكونوا واياهم يدا واحدة على أعدائنا وأعدائكم ولتخلصوا بلادكم من ربقة الذل والهوان وتطردوا من دياركم عدوا طالما طغى في أرضكم وفسق في بلادكم وقتل وشنق أعاظم رجالكم وعن قريب إن شاء الله أكون عندكم وأفرح نفساً طالما شقيت لأجلكم وتألمت لألمكم وما ذلك على الله بعزيز.

فيصل

آخر قافلة من دمشق :

وبينما كان الأمير يستعد للعمل في الشمال وصلت من دمشق الى أبي اللسل آخر قافلة من الاحرار وهذه أسماء رجالها: الدكتور أحمد قدري ورستم حيدر ورفيق التميمي وتحسين قدري وخليل السكاكيني وسليم عبد الرحمن والشيخ سعيد الباني ومحمود المغربي (ملازم استحكام أصله من طرابلس العرب) وقد غادروا دمشق سرا في أواسط شهر (يونيو) فجاءوا قرية جرمانا فغيروا ملابسهم المدنية ولبسوا ملابس بدوية كان الدكتور قدري أعدها لهم كما أعد لكل واحد حصانا وسلاحاً فساروا إلى قرية حلحلة في جبل الدروز ومنها إلى (القرية) فنزلوا ضيوفا على سلطان باشا والتقوا فيها بعبد اللطيف العلي وأخيه لطفي وكانا قادمين من سورية والشيخ فريد الخازن فساروا الى أبي اللسل واشترك بعضهم في الاعمال العسكرية التي انتهت بدخول دمشق.

الزحف الى الأزرق :

ولما تمت التدابير وتقرر الزحف دعا الأمير جمهور المجاهدين وقال لهم «هيا

للعمل لقد دنت ساعة إنقاذ سورية وسنباشر الهجوم العام بعد أيام فاذهبوا غدا مع الحملة البدوية وجمهور الثوار إلى الأزرق وسيوافيكم الجيش النظامي وسأحضر عندكم بعد أيام فبادروا لإعلان الثورة في جميع أنحاء سورية»

وقاد الأمير بالذات هذه الحملة وقد تم تأليفها في أواخر شهر أغسطس كما يأتي.

لواء الهجانة ويتألف من ٦٠٠ هجان مع أربعة مدافع و ٤ رشاشات ثقيلة و ٢٠ خفيفة و ٤ دبابات ومفرزة تخريب وطيارتين للكشف. ثم انضم اليها نوري الشعلان مع ١٠٠ خيال من قومه وعودة أبو تايه مع ١٠٠ خيال كما انضمت اليها سرية الشريف ناصر فاصبحت تتألف من نحو ألف محارب وتولى الأمير زيد القيادة في أبى اللسل بعد سفر أخيه.

وفى أوائل شهر سبتمبر تحركت الحملة قاصدة الأزرق فاجتازت سكة الحديد من جنوب معان الشرقي فبلغته يوم ١٨ منه وكانت تتناول ميرتها وماءها من منازل خاصة أعدت من قبل في وسط الصحراء. وسيرت دبابتين من دباباتها مع قوة الخيالة حين مرورها بمحطة السمراء يوم ١٦ منه فدمرت الجسر الحديدى القائم بين المفرق والزرقا

الدروز ينضمون الى الحملة :

وبعد ما استقرت الحملة في الأررق وضربت حيامها قصد نسيب بك البكرى الجبل ومعه حسين بك الأطرش وزكي الدروبي (من ضباط الثورة) فاتصل بزعماء الجبل وعقد معهم اجتماعا في كاف حضره الشيوخ والرعماء وتم فيه الانفاق على المبادىء الآتية:

١ - استقلال جبل الدروز سياسيا وادرايا مع حفظ جميع التقاليد المرعية بين العشائر.

٢ - ايجاد العلاقات الودية والمحالفة الثلاثية بين الحجاز وسورية وجبل الدروز على ثلاث نقط:

أ - العرب تساعد الدروز والدروز تساعد العرب.

ب - لاسلطة فعلية أو عسكرية لحكومة من الحكومتين السورية والحجازية على جبل الدروز

ج - إن جبل الدروز يعتبر الأمير فيصلا، أميرا على سورية ولكنه لا يعتبره أميرا على الجبل إلا من الوجهة الادبية والعلاقات الادبية والتشريفية.

وعلى اثر انتهاء اجتماع كاف واصداره هذا القرار وقد قبله نسيب البكري باسم الأمير فيصل كاتب سلطان باشا قرى أم الرمان والفارية وحوط وعنز والمغير وبكه طالبا الى أهلها أن يوافوه الى بصرى اسكي شام لمهاجمتها. فاجتمع له نحو ٣٠٠ مقاتل حمل بهم صباح ٢٥ سبتمبر على الجيش العثماني المرابط فيها فدخلها بعد قتال دام ثلاث ساعات ومنها قصد شمسكين فاجتمع فيها بالشريف ناصر ونوري الشعلان وعودة أبو تايه ومن معهما فاتحدوا في العمل وكان نسيب بك البكرى وحسين الأطرش في هذا الجيش واتجهوا جميعا نحو دمشق.

حركات الحملة في حوران :

بدأت الحملة الكبرى عملها صباح ٢١ سبتمبر بمهاجمة محطة خربة الغزالة

فدمرتها كما دمرت جسرا كبيرا بقربها ونسفت قضبان سكة الحديد بينها وبين درعا وكانت الطيارات الآلمانية تتعقبها وترميها بقنابلها لازعاجها وشل حركتها.

وسيرت ذلك اليوم قوة من الهجانة الى المزيريب لتعطيل سكة الحديد بين درعا وحيفا فبلغت قرية طفس بعد الغروب فكمنت وراءها واستدعت طلال حريدين شيخها وكان من أخلص شيوخ حوران للقضية العربية فاتفق مع قائدها على أن يأتيه بقائد محطة المزيريب التركي وكان أرمنيا فيسلمها لهم وجاء هذا بملابس بدوية فتم الإتفاق على أن يجمع ضباطه وقواته كمن يريد أن يصدر اليهم تعليمات فتباغت القوة المحطة وتأسر الحامية. وبينما كان هذا يهم بتنفيذ خطته وصل من حيفا قطار يحمل فوجاً تركيا ومدافع ووقف في المزيريب فتوقفت القوة عن الهجوم انتظارا لسنوح الفرص. ولما تقربت في صباح اليوم الثانى ضربتها المدافع التركية فقصدت محطة صغيرة بين المزيريب ودرعا فدمرتها ثم سارت الى محطة نصيب بين درعا ومعان فوصلتها مساء واشتبكت مع قوة تركية يقودها ضابط ألماني كبيرا أعدت للدفاع عن درعا وعادت بعد ما خربت جسرا كبيرا بين نصيب ودرعا متجهة نحو قصر الأزرق وقضت ليلتها في الخرابات الواقعة هناك.

وقصدت صباح ٢٥ منه قرية شيخ سعد فقضت فيها يوماً كاملاً وأسرت ١٥٠٠ جنديا و ٦٠ ضابطاً تركياً من القوى المتراجعة. وعلمت وهي في الشيخ سعد أن الترك يضربون قرية طفس بمدافهم لأن سكانها منعوا جندهم من المرور خوفا من النهب فهبت لنجدتهم وهاجمت الكتيبة التركية وطردتها واستشهد شيخ القرية طلال حريدين وعدد من أبنائها في خلال مقاومتهم للترك.

وفى يوم ٢٨ منه أحتلت محطة درعا. وبلغ عدد أسرى الترك هنا نحو خمسة آلاف من فلول القوى المتراجعة من فلسطين ومعان وفى صباح ٢٩ منه اتصلت بالجيش البريطاني وزحفت الى دمشق على سكة الحديد فوصلتها يوم ٣٠ منه ودخلتها بين هتاف الأهالى وترحيبهم ورفعت العلم العربي على أبراجها. وكان على رأسها نورى السعيد قائد القوى النظامية في السرية وجميل المدفعي قائد المدفعية والدكتور أحمد قدري وعلي جودت الأيوبي وبدىء بانشاء الحكومة العربية.

وهذا ملخص ما كتبه الجنرال بريمون عن أعمال العرب العسكرية قال:

«قطعت سرية الشريف شرف بين ٣٠ يوليو و ١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ سكة الحديد في أربعة مواضع بين العلا وقلعة الزمرد وبين المديرج والطوبرة وقد استسلمت حامية الزمرد وكان بينها خمسة من الروم ودمر العرب المحطة وشاحنات كانت فيها.

وفي يوم ٧ أغسطس سنة ١٩١٧ أبحر الى العقبة الشريف شرف مع ٤٠٠ من العرب النظاميين ومعهم الكولونيل جويس والعريف بتيرى الفرنسوى مع قوته وهى رشاشتان يديرها ١٢ جنديا وأقام قوات أمامية في الكويرة - وهى على بعد ٣٨ كيلو مترا من العقبة وفيها ماء ومقابر قديمة - لإتقاء العدو وقد اعتادت طياراته أن تأتي كل يوم فتلقي قنابلها على المعسكر وعلى العقبة وعلى الكويرة. وفي يوم ١٧ أغسطس غادر جعفر العسكري الوجه مع مئات من الجنود الى العقبة وسافر معه الكبتن بنراني الفرنسوي وبقية رجاله. وفى ٢٣ منه لحق بهم الأمير فيصل بالبارجة هاردنج مع القوة المصرية و ٤٠٠ جندي وهكذا وبعد انتظار سنة بدأ فصل جديد في حرب الشرق الأدنى.

وفي ١١ سبتمبر ألقت الطيارات الالمانية ٦٠ قنبلة وأطلقت الرشاشات على معسكري العقبة والكويرة فجرح جندى وهلك ٣٠ حيوانا في الثانية وقتل تسعة وجرح ثلاثة في الاولى وجاءت الطيارات الانكليزية فضربت محطة معان بالمقابلة. وفي أواسط سبتمبر دمر لورانس مع ٨٠ عربيا قطارا تركيا قرب المدورة فقتل وأسر من الترك ١٥٠ جنديا واستولت قوة عربية أخرى على قطار تركي قرب عنيزة الواقعة على ٥٠ كيلومترا من معان.

وفي يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩١٧ أصدر الحسين أمرا الي الأمير زيد بأن يقصد ينبع مع قواته النظامية ليبحر الى العقبة فسار أولا الى الوجه مع المدفعية و ١٨٠٠ مقاتل ثم قصد العقبة فبلغها يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٧.

وفى يوم ١٩ اكتوبر هاجم الفان من الجند النظامي مع بني عطية مركزا للترك جنوبي دار الحج فحطموا قطاراً وأسروا وقتلوا ٣٠٠ تركي وظلوا هنالك ثلاثة أيام فكان لهذا النصر رنة كبرى.

وأصدر جمال باشا وهو في أطنه أمرا بانقاذ السكة بأية صورة كانت فحمل جمال باشا الصغير بقواته الكبرى ومعه ٣ طيارات على العرب في وادي موسى وردهم فكر عليه ليلة ٢٣ اكتوبر ضابط سوري اسمه مولود افندي هو أمير اللواء مولود باشا مخلص وهو عراقي من أهل الموصل بثلاثمائة جندي نظامي عربي وحمل حملة صادقة فدمر المعسكر التركي وقتل ٤٠٠ تركيا وأسر ٣٠٠ وكانت خسارته ٤٠ قتيلا. وهذا النصر العظيم مدار فخر كبير لهذا القائد ولرجاله.

وجاء في بلاغ أذاعه الكبتن سانت كنتان يوم ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٧ ان قوات الترك في الحجاز وعلى سكة الحديد كانت كما يأتي:

١ ـ قوة قلعة الحسا جنوبي معان بقيادة جمال باشا الصغير (وهو محمد جمال باشا) ومقره معان وتتألف من ٧ أورط مشاة و ٦ كتائب خيالة و ٣ بطاريات سريعة الطلق ومجموع ذلك ٣٧٠٠ محارب مع ألف سيف و ١٥ مدفعا و ٣٢ رشاشة و ٢٧٠٠ دابة.

أما قوة تبوك ويقودها اللواء بصري باشا (وهذا خطأ أيضا فقد كان قائد هذه المنطقة القائمام عاطف بك أما بصرى باشا فكان قائد العلا) وتتألف من ٤ أورط مشاة وبطاريتين. ويبلغ مجموع المحاربين من رجالها ١١٠٠ لديهم ١٢ مدفعا و ١١ رشاشة و ٢٢٠ دابة.

وتأتى بعد ذلك قوة الحجاز السفرية ومقرها المدينة بقيادة فخري باشا وتتألف من قوة الشمال ومقرها في العلا بقيادة على نجيب بك قائد الآلاى ٨٥ وتتألف من ٧ أورط وبطاريتين.

وقوة الجنوب تتألف من ١١ أورطة وهي بقيادة فخرى باشا نفسه. ويبلغ المجموع العالم لها ٧٥٠٠ محارب لديهم ٥١ مدفعا و ٣٧ رشاشة.

وفى مقابل هذه القوى كان للحلفاء في بلاد العرب ٢١ الف رجل و ٧٨ مدفعا و ٨٠ رشاشة ونحو ٤٠٠٠ دابة يقاتل الجانب الاكبر منهم في فلسطين.

واتسع نطاق الأعمال العسكرية في صحراء الشام ابتداء من دخول سنة ١٩١٨ فقد وضع الجيش الشمالي نصب عينيه في هذه المرحلة تحقيق الغرضين الآتيين: مهاجمة معان وبلوغ البحر الميت للاتصال بالانكليز وكانو على ٢٠٠

كيلو متر من العقبة وتولى المهمة الثانية الأمير زيد وكان ينزل في عين جرنادل على طريق القوافل بعد ما احتل خرائب الحويطات وبني شاكر. وكان جعفر باشا ينزل مع قوة أخرى على عين ديلاغا أما بقية الجند العربي فكان في الكويرة.

وكانت هذه المهام شاقة صعبة فهنالك نقص في وسائل النقل ولا سيما الإبل ونقص في الملابس والمعدات يضاف الى ذلك جو قارس فاتك.

وفي يوم ٣ يناير هاجم الشريف ناصر محطة جرف الدراويش على ٨٠ كيلو مترا من جنوبي معان فأسر ٢٠٠ تركي. وفي يوم ٦ منه جلا الترك عن أبي اللسل (على ٢٠ كيلومترا من جنوبي معان) وفيها ماء غزير وعين باسطا (على ١٢ كيلومترا من شمالي معان) فاحتلتها العرب.

وفي يوم ١٣ منه استقر الأمير زيد في الطفيلة وهي على ١٦٠ كيلومترا من العقبة بعد ماجلا الترك عن الشوبك وغابة عيش. وحملت الفرقة التركية ٤٧ على الطفيلة لاستردادها لان فقدها ضايق الترك ــ حملة صادقة فهاجمتها بكل قواها ومعداتها يوم ٢٨ يناير فهزمها العرب شر هزيمة في سهل الحسا وقتلوا ٤٠٠ من رجالها وأسروا ٣٠٠ بينهم ٧ ضباط وغنموا مدفعين و ٨ رشاشات و ٨٠٠ دابة.

وما كانت الحالة حول معان سائرة على مايرام وقد قاد الأمير فيصل بنفسه حملة على الدورة يوم ٢٢ منه فلم توفق. وورد الشريف عبدالله بن حمزة البحر الميت مع البدو يوم ٢٨ منه ودمر في المزرعة زورقاً بخارياً وستة زوارق شراعية وأسر ٦٠ تركيا.

وحشد الترك قوات كبيرة في الطاحونة تجاه الطفيلة فأرسلوا نحو ثلاثة آلاف جندى عززوها بكتائب فنية من النمسويين والالمان وطيارات ومدفعية وغيرها. ثم وصف هنا معركة الطفيلة بما وصفت به من قبل.

واتجهت أنظار العرب في أوائل شهر ابريل الى معان فنقل الأمير زيد قواته الكبرى.

من وادي موسى الى حول معان تاركا جانبا من البدو هنالك وهاجم نوري السعيد غدير الحج يوم ١١ ابريل فأخذ ١٥٧ أسيرا تركيا وخرب ما طوله ١٠ كيلومترات من سكة الحديد وفى يوم ١٢ منه احتل جعفر العسكري محطة أبو قردان وأسر ٢٠٠ أسير.

وفى يوم ١٣ منه احتل العرب مرتفعات سمنة وتبعد عن معان ٥ كيلو مترات وتسيطر عليها فشجعهم هذا النصر على مهاجمة معان برغم ورود نجدات تركية اليها من الشمال والجنوب. ودارت مبارزات بين المدفعيين يومى١٥و١٦ ابريل وفى ١٧منه تقدم العرب حتى معان الشامية وهى من ضواحي مدينة معان فاسروا مئة تركي وغنموا مدفعين بعد ما فقدوا ٢٥٠قتيلا.

ووصف الكولونيل بريمون فى كتاب أعماله الحملة العسكرية الكبرى التى فتحت الشام بما نورده ملخصا:

كانت الحملة بقيادة نوري السعيد وكانت تتالف كما يأتى:

٤٠٠جندي نظامي عربي بقيادة علي جودت الأ يوبي و٣٥ مصريا بقيادة الكبتن بيك (للنقل) و٣٠ تركيا بقيادة الكبتن سكوتيجانس وثلاث

دبابات وطيارتان وسيارات نقل . وكانت القوات البريطانية في الحملة بقيادة الكولونيل جويس ولورانس والميجر يونغ وكان فيها أيضا بطارية فرنسوية عيار ٥و٦ سرية رشاشات فرنسوية وسرية مهندسين بقيادة الكبتن بيزاني الفرنسوي ومجموع رجالها ٣ضباط و١٤٠ جنديا.

وفي يوم ٣١ أغسطس سنة ٩١٨ غادرت الحملة أبي اللسل بقيادة الأمير فيصل نفسه قاصدة الأزرق فبلغته يوم ١٢ سبتمبر وسبق الأمير ونوري السعيد فوصلا يوم ١١ بالسيارة أما الطيارات فجاءت يوم ١٠ منه.

وفي الساعة ٤:٣٠ من يوم ١٤ منه غادرت الحملة الأزرق ـ وقد ظل الأمير فيها باتجاه الغرب الشمالى. وفي يوم ١٦ عسكرت على مسافة ١٢ كيلو مترا من درعا فانضم اليها ٢٠٠ من خيالة الرولا مع الشريف ناصر والأمير طراد الملحم. وفى ١٧ منه دمرت المدفعية مركزا للترك فى تل عرار وهو على بعد ٨ كيلومترات شمالي درعا. وتجولت الدبابات الانكليزية على طول سكة الحديد وحلقت خمس طيارات تركية فوق الحملة وألقت قنابلها ورصاصات من عل لأن المدفعية منعتها عن أن تنسف ثم عادت الى درعا وكانت تراوح الحملة وتفاديها بلا انقطاع.

وقبع الترك في درعا وتحصنوا فيها فواصلت الحملة تخريب السكة وفى الساعة ١١:١٥ أمر نوري السعيد بالزحف على تل شهاب بعد ما أبقى قوة في تل عررا لمضايقة حامية درعا. ولما وصلت الحملة الى المزيريب قابلها السكان بالهتاف والسرور ثم غادرتها في الساعة ٩:٣٠ مساء الى تل شهاب فى انتظار قطار قادم من الغرب.

وفى الساعة ١١:٣٠ مساء أمر نوري السعيد بتدمير جسر سكة الحديد القائم هنالك وأرسلوا بدويا للتجسس فعاد بعد طويل انتظار يقول انه وصل فوج من الجنود الالمان بقيادة كولونيل تحصن في متاريس فكان ذلك القطار المنتظر. وعادت الحملة الى المزيريب فوصلت الساعة الثانية من صباح ١٨ سبتمبر، ثم اتجهت الى الشرق مارة بجنوبي درعا وفى الساعة ٤:١٥ خربت مخفرا للترك في نصيب ففر رجاله الى درعا، وفى الساعة التاسعة مساء عسكرت على مسافة ٥ كيلو مترات شرقي سكة الحديد. واستانفت الزحف صباح ١٩ منه فلحقت بها طيارتان تركيتان من درعا وألقت عليها قنابل في الساعة ٩:٣٠ صباحا فاجابتها المدفعية بنيرانها. وذهب على الأثرلورانس بسيارة يبحث عن الطيارات الانكليزية. وفى الساعة ٦ بعد الظهر قصدت أم السراب وكان فيها مطير فنزلت فيها وضربت خيامها. وفى مساء ٢٠ منه سيرت ظهر ٢٢ منه ثلاث طيارات قدم عليها لورانس فقال ان الهجوم الانكليزى فاز فوزاً مبينا وانهم أسروا ٢٢ ألف تركي وأن خيالة الانكليز وصلت الى بيسان.

ودار قتال بين الطيارات فسقطت طيارة تركية ووصل في الساعة السادسة مساء قائد الطيران الانكليزي بطيارة والقت أربع طيارات انكليزية في الليل القنابل على درعا. وفى الساعة ١١ مساء غادرت الحملة أم السراب لتخريب سكة الحديد فقامت بمهمتها وعادت في الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر ٢٣ منه. وفى هذا اليوم جلا الترك عن معان فاحتلها العرب، وفى صباح ٢٤ منه طارت طيارة انكليزية فوق المعسكر وألقت بلاغا جاء فيه أن الانتصار عظيم وأن خيالة الانكليز بلغوا سمخ وأن الجيش السابع والثامن التركيين تمزقا وان القوات التركية في السلط وعمان تنسحب نحو الشمال سائرة شرقي سكة الحديد. فسار نوري السعيد بقواته لمطاردتها فوصل في الساعة ٤:٣٠ بعد

الظهر الى أم طيا، وفي صباح ٢٥ منه شوهدت قوتـان كبيرتـان للـترك تسـيران على انفراد نحو الشمال على جانبي سـكة الحديـد بـين المفـرق ونصيـب فـالتقط البدو منهما زهاء ٢٠٠ أسير منهم الماني واحد ونمسويون وغنمـوا منهـم غنـائم واعتزمت الحملة قطع خط رجعة الجيش الـتركي الرابع فسـارت في السـاعة ٣ بعد ظهر ٢٥ منه الى الشمال - وتوقفت في السـاعة السادسـة، وفي صبـاح ٢٦ منه واصلت سيرها فبلغت شيخ مسكين في الساعة الرابعـة مـن صبـاح ٢٧ منـه وفي الثامنة بلغت الشيخ سعد، وتبعد ١٨ كيلو متراً من شمالي المزيريـب، واقتـاد الخيالة الدروز والحوارنة، وقد ازداد عدد المنضمين منهـم الى الحملـة في اليومـين الأخيرين زيـادة كبـيرة ٨٠٠ أسـير الى معسـكر الحملـة في الشـيخ سـعد بينهـم ضباط المان ونمسويون و ١٦ رشاشا ومدفعا.

وفي الساعة ١٠ صباحا جاء أهل طفـس يسـتجيرون بالحملـة ويسـألونها القاذهم من ظلـم الـترك الذيـن نهبوهـم واعتـدوا علـى نسـائهم أثنـاء مرورهـم بقريتهم فجردت قوة أرسلتها علـى الفـور لطردهـم ولـما وصلـت تبينـت جموعـا كبيرة من قساة الترك قادمة من الجنوب لا تزال محافظة على النظام ولديها قيـادة منظمة والراجح انها فلول الفيلق الثامن المرتد مـن عمـان تحـاول سـلوك طريـق درعا - طفس - شيخ سعد - نوى - دمشق ويبلغ مجموعها ٨ آلاف مقاتل منها ٣ أليات مشاة يقودها ثلاثة جنرالات ومعها عدد مـن الفنيـين الألمـان والنمسـويين فلم تتردد مدفعيتها في صب النيران على الـترك القـادمين فذعـروا لهـذه المفاجـأة وارتدو فسلكوا الطريق الشرقي وهي طريق - درعا - شيخ مسـكين ـ دمشـق ـ وبينما كانت المدفعيـة تصلـي الـترك نـاراً حاميـة إنسـل العـرب الى قريـة طفـس فانتقموا من الترك الذين كـانوا فيهـا ثـم عـادوا في السـاعة السادسـة مسـاء الى

الشيخ سعد ووصلت في المساء طيارة انكيليزية فقالت إن الخيالة الانكليز يصلون في الغد من درعا. وغادرت الحملة الشيخ سعد في الساعة ٤:٣٠ من صباح ٢٨ منه فوصلت في الساعة العاشرة الى درعا فألفت فيها ألايين من الخيالة البريطانيين وصلا في الساعة ٨:٣٠ صباحا ووصلت في المساء الحملة البريطانية الكبرى من عمان. وفي درعا اتصل الجيش العربي بالجيش البريطاني.

وفى صباح ٢٩ منه غادرت الخيالة البريطانية درعا الى دمشق فأدركت الترك في الصنامين وساقتهم حتى خان دنون على بعد ٢٠ كيلو مترا من جنوبي دمشق وكانت خيالة الجيش العربي بقيادة الشريف ناصر قد سبقتهم فبلغت الكسوة ودخلت دمشق الساعة ٣ من صباح أول اكتوبر. أما الأمير فيصل فبلغ دمشق يوم ٢ منه قادما بالسيارة من الأزرق وقد استقبل والحلفاء استقبالا حماسيا وأخذوا من دمشق ١٦ الف أسير تركى.

شهاد ة ضابط تركى :

وأنشأ مدير شعبة الاستخبارات في القوة المرتبة وكانت تدافع عن معان رسالة وصف بها المعارك التى دارت حول تلك المدينة بين العرب والترك فنلخص منها ما يلى:

على أثر اعلان الثورة العربية في الحجاز أصدر أنور باشا أمره الى محمد جمال باشا قائد قلاع إزمير بالسفر الى سورية ليكون تحت أمرة أحمد جمال باشا ويساعده في اخمادها كما أرسلت القيادة العليا الى الحجاز قوات جديدة من مشاة وخيالة ومدفعية لا يقل عددها عن ٢٠ ألف جندي.

ووصل محمد جمال باشا الى دمشق ثم سافر الى الحجاز فنيطت به مهمة الدفاع عن المنطقة الممتدة من محطة الهدية قرب المدينة المنورة حتى محطة المدورة ويبلغ طولها ٦٥٠ كيلومترا وكان مقره في العلا باديء بدء.

وعرفنا في العلا ان الشريف علي حيدر باشا فشل في المهمة التي انتدب لها رغما عن الهدايا والأموال التي وضعت تحت تصرفهم ولم يوفق الى استمالة قبيلة واحدة من القبائل العديدة ولذلك اعيد الى دمشق بقطار خاص يحرسه عدد كبير من الجند ومعهم مدفعين ورشاشات.

وللمرة الاولى رأينا جندا عربيا منظما بقيادة مولود مخلص يقتحم محطة المعظم الواقعة في منطقة جمال باشا الصغير بعد مدائن صالح وقد ابدت هذه القوات بسالة خارقة في مهاجمة الحامية العثمانية التي نصبت رشاشاتها الست على أسطحة منازل المحطة واستبسل الفريقان وتقدم العرب وكانت النيران تحصدهم حصدا ووصلت في المساء قوة من الخيالة بقيادة ميرزا بك الشركسي فطاردتهم وردتهم الى مسافة بعيدة.

وكانت الحركات الحربية في ابتداء الأمر قاصرة على مناوشات بسيطة تحدث بيننا وبين العرب على طول السكة وكنا قبل وصولهم الى إحدى المحطات لمهاجمتها ـ نتخذ التدابير للدفاع عنها ـ لأننا كنا نعرف كل شيء من جواسيسنا. وتغيرت الحالة بعد الوصول الأمير فيصل الى الوجه بثلاثة أشهر فصاروا ينسفون الخطوط الحديدية بالديناميت بعد ان يقطعوا أسلاك البرق فعمدت القيادة التركية الى اتخاذ تدابير ذات شأن فكنا نرسل دوريات عسكرية لمعاينة السكة قبل مرور القطارات وكان معظم هذه الدوريات تخرج عادة بين كل محطتين

فتلتقي في وسط الطريق، يسقط أحد أفرادها أسيراً في يد العرب. ولما شاهد محمد جمال باشا ذلك طلب قوات كافية وهدد بالإستقالة وبالإنسحاب فأرسلوا له فوجين مشاة من أتراك مقدونيا.

وإتسع نطاق الثورة حتى شمل ما وراء تبوك وسقطت قلعة البدايع فضيقت القيادة منطقة محمد جمال باشا وأضافت قسماً كبيراً منها إلى بصري باشا.

وكان القواد الترك في تلك الجهات يلحون على القيادة العليا بإرسال نجدات جديدة خوفاً من سريان الثورة إلى جميع البلاد ولما رأت إلحاحهم سألتهم سراً عما إذا كان في الإمكان إخلاء الحجاز وأرسلت قائداً ألمانياً كبيراً إلى محطة الحفير فإجتمع بفخري باشا وباحثه بالجلاء فأجابه هذا أنه لايخرج من المدينة وفيه عرق ينبض وأنه يقاوم فكرة الجلاء كل المقاومة.

وكانت المناوشات تزداد يوماً بعد يوم على طول السكة وكان العرب يواصلون نسف القطارات وتعطيل الخطوط ورغم يقظة الترك فقد نسفو قطارات ذهب ضحيتها كثيرون.

ولما إحتل الجيش العربي العقبة صدر الأمر إلى محمد جمال باشا بأن يقصد معان وجاءنا الجواسيس ونحن نستعد للسفر قائلين أن القيادة العربية قررت نسف القطار الذي سيقلنا مهما كلفها الأمر وأنهم يودون القبض على محمد جمال باشا حياً أوميتاً. فاتخذ هذا التدابير اللازمة وسرنا في القطار وكأننا في ساحة حرب فالجنود واقفة على قدم الأهبة برشاشاتها وبنادقها.

وكان جمال باشا الصغير قد سبق محمد جمال باشا إلى معان وبدأ بتنظيم

الحركات العسكرية فتسلم هذا القيادة منه وكان فيها آلاي خيالة عدد جنده ١٢٠٠ وبطارية مدافع سريعة الطلقات وآلاي آخر وعدة أفواج مشاة ورشاشات من المدافع النمسوية.

وكان علينا أن نحمي منطقة تمتد ٧٠ كيلو متراً جنوباً حتى محطة الدورة و ٨٠ كيلو مترا شمالا حتى محطة القطرانة

ورأينا حول معان جيشا عربيا منظما يملك معدات حربية كاملة وعنده رشاشات يديرها جنود يمانيون عدا عن الرشاشات في كل فوج وكتائب فنية للبرق والديناميت والاستحكام وكان عدده يناهز ألفين وفيه ٢٠٠ ضابط يقودهم الأمير فيصل ومعه شقيقه الأمير زيد والشريف ناصر وجعفر العسكري ونوري السعيد وراسم سردست قائد المدفعية.

وكان العربان لايرحمون الأسير التركى الذي يقبضون عليه ويضربونه حتى تسيل دماؤه واذا وصل الى مقر القيادة يكون على آخر رمق، ولما شكا هؤلاء ذلك الى الأمير أعلن بأن كل من يحضر أسيرا تركيا الى مقر القيادة ينال مكافأة تختلف باختلاف رتبة أسيره وتزداد بنسبة مقام هذا ودرجته فتبدلت الحالة وصار البدوي يحرص أشد الحرص على أسيره ويعنى براحته أملا بالمكافأة وكان أول ما يسأله عن رتبته فاذا عرف انه ضابط سر وابتهج وتزداد عنايته به بنسبة رتبته العسكرية لأن المكافأة تكون اكبر.

وكانت خطوطنا الحربية في منطقة معان أوائل سنة ١٩١٨ تشمل الكويرة وأبى اللسل وعين وحيدة وعين بسطه وتبعد عن مدينة معان ١٥ــ٢٠ كيلومترا. وكانت الطفيلة ووادي موسى بأيدينا وكانت تدور بيننا وبين الجيش العربى مناوشات بسيطة.

وبينما كان محمد جمال باشا يفتش الخطوط الأمامية في يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩١٧ طلبه جمال باشا الكبير الى التليفون لمخاطبته مباشرة. ولما أبلغ أنه غائب أرسل اليه برقية الى الخطوط الأمامية طلب فيها ارسال آلاي الرماحة مع مدفعيته ورشاشاته وآلاي المشاة وآلاي النقليات من معان والأماكن القريبة منها على جناح السرعة وأرسل مثل هذا الطلب الى بصري باشا أيضا فنفذ أمره وأرسلت القوات على الفور لصد الجيش البريطاني وانقاذ القدس فوصلت الخيالة أولا ولا يقل عددها عن الألفين ـ وهى بحالة يرثى لها من الضنك والتعب لانها لم تقف في الطريق بل سارت مسرعة، واشتركت على الفور في معارك القدس ففقدت معظم رجالها.

معارك وادى موسى :

وعلى أثر سفر القوات التركية الى القدس أمرمحمد جمال باشا بالجلاء عن الخطوط الأمامية لعدم وجود قوات كافية للدفاع فأخلينا الكويرة وعين بسطه وأنشأنا خط دفاع في جبل سمنه وأقمنا المشاة في مرتفعات معان الغربية وفى محطتها واتخذنا التدابير للدفاع عن جنوبها وشمالها وأسرعنا بحفر الخنادق.

ونشط الجيش العربى في خلال هذه الفترة فاحتل وادى موسى فرأى محمد جمال باشا أن يسترده لأهميته العسكرية فطلب نجدات فأرسلوا له آلاي الشراكسة بقيادة ميرزا بك من تبوك كما أرسلوا له قوة من المشاة، وقبل وصولها زحفت جنودنا من معان بقيادة القائمقام شولاق كمال بك رئيس أركان حرب محمد باشا ثم لحق بها بنفسه.

وبدأ جندنا العمل باحتلال الجبل المطل على وادي موسى ونصب فيه

مدفعيته فباكرت القوات العربية باطلاق النار وكانت متحصنة في أماكن جبلية مناوحة لمراكزنا، لتمهد لهجوم المشاة، وتولى ميرزا بك قيادة الجناح الأيمن للترك وكان الأمير زيد يقود العرب واشتركت الطيارات التركية في هذا الهجوم وكانت تحوم فوق العرب أثناء القتال وتلقي عليهم قذائفها من ارتفاع ٣٠٠ متر فقط وحمل الترك على العرب حملة صادقة واستمروا في ضربهم بالمدافع ساعتين فقابلوهم بنيران حامية حينما بدأوا يصعدون في الجبل وردوهم على أعقابهم فاستأنفوا الهجوم عند الظهر ففشلوا أيضا.

وتلقى جمال باشا ـ ورحى القتال تدور في وادى موسى ـ برقية من بصري باشا يطلب فيها نجدات سريعة لسقوط محطتين بأيدي العرب وكانوا يهددون تبوك كما أبلغ أيضا أن العرب المرابطين حول معان يشددون في الخناق عليها ويهاجمون جنوبها فشعر بحرج الموقف سيما وقد كان بعيدا عن مركز الرئاسة وقرر أن يستعد لمعركة حاسمة يتولى بنفسه تنظيمها وادارتها.

وافتتحت المدفعية التركية الحملة الثالثة بنيران حامية كانت تصبها صبا على مراكز العرب حتى ظننا أنها أصبحت رمادا وأطلالا وأصدر الباشا على الأثر أمره بالهجوم وأراد أن ينزل بنفسه الى الميدان ويتقدم الصفوف فمنعه رئيس أركان حربه الذي تولى ادراة الهجوم وقد اشترك فيه أكثر ضباط المقر العام وجنده. ومشى مشاة الترك الى الجبل تحت حماية المدفعية وكانت تسرف في اطلاق القنابل يتقدمهم كمال بك ممتشقا حسامه يضرم في صدورهم نيران الحماسة فصمد العرب لهم ونازلوهم منازلة الأبطال. وقد أظهر الفريقان في هذا اليوم من البسالة والبطولة ما يحير العقول. وبدأت المجزرة الكبرى حينما بلغ الترك خنادق العرب فثبتوا فيها رغم قلة عددهم فدار القتال بالسلاح الأبيض

وجرح كمال بك هنا للمرة الرابعة عشرة كما جرح زكائى بك ياور محمد جمال باشا وسقط على بعد خمسة أمتار من مواقع العرب الذين ارتدوا بعد استبسال عظيم. فدخلنا الوادي بعد ماخسرنا نحو مائتين بين قتيل وجريح ولم نكد نستقر فيه حتى صدر الأمر الينا بالانسحاب فأخليناه بعد ساعتين فقط لتحرج الحالة في جنوبى معان وتبوك فاتجه الجند نحو معان تاركا مقر القيادة وبطارية المدافع وراءه وكانا ينتظران حركته ليسيرا معه. وقد وقع رجال المقر في حيرة وكادوا يسقطون في أسر العرب، وكانوا يحيطون بالمكان من جهاته الثلاث لولا مداهمة الليل، واستولى العرب على مستشفى الجرحى التركي لاننا عجزنا عن انقاذه أثناء انسحابنا.

معارك الطفيلة :

وما كادت هذه القوات تصل الى معان حتى أبلغت أن الفرقة ٤٧ التركية ـ وقد نالت فوزاً مجيداً في حروب رومانيا ـ تحركت بأمر القيادة العليا الى الطفيلة لاستردادها وكانت تضم ٢٠٠٠ جندى مشاة ونيف ومعهم عدد قليل من الخيالة و ٤٠ رشاشة وستة مدافع.

واقترح محمد جمال باشا على القيادة العليا أن تنزل هذه الفرقة في محطة جرف الدراويش لافي محطة القطرانة كما تقرر لان طريق الكرك وعر فأبت الأخذ باقتراحه فسارت الى القطرانة وقصدت الكرك غداة وصولها وأخذ قائدها معه خزينة مال الفرقة الخاصة لفرط غروره وشدة اعتماده على نفسه.

وأعد المعدات في المغداة للبدء بالقتال وأصدر الى رجاله التعليمات التي يسيرون عليها وفاته انه أمام جيش منظم مسلح بالسلاح الكامل ولديه معدات

حربية وافرة ولما خاطبه بعض الضباط ونبهوه الى هذا الخطأ وألحوا عليه باتخاذ أسباب الحيطة والحذر وارسال قوة للاستطلاع أجابهم: ان أمر هؤلاء سهل جدا بالنسبة لحروب رومانيا الهائلة.

وكان يعتقد انه أمام شراذم من البدو لاحول لها ولا طول لاتلبث أن تفر من أمامه حينما تسمع أصوات المدافع.

وواصلت الفرقة سيرها حتى دخلت الوادي المطل على الطفيلة ويبعد عنها نحو ساعة تقريبا، وعلم العرب بسيرها من قبل فأعدوا المعدات للقائها ورتبوا قواتهم على المنوال الآتي:

١ ـ أرسلوا قوة رابطت في أكمة تطل على الوادي من اليمين والشمال

٢ ـ وأرسلوا قوة أخرى رابطت في مؤخرة الوادى قرب الطفيلة لصدها ومنعها من التقدم.

٣ ـ أعدوا قوة ثالثة في جهة قريبة من الوادي لقطع خط رجعتها ومطاردتها عند الانهزام

٤ ـ نصبوا عددا كبيرا من الرشاشات في أنحاء الوادي

وما كادت الفرقة تتوسط الوادى حتى ارتفعت الأصوات من أنحائه الثلاثة وانهال عليها رصاص الرشاشات والبنادق كوابل المطر فحاولت الثبات من دون جدوى لأنها ما كانت تترقب مثل هذه المباغتة فأمر قائدها الجند بالتراجع فتراجعت وهى تدافع عن نفسها.

وقتل في هذه المعركة القائد واركان حربه ومعظم الضباط والجند وعاد الأحياء من رجالها وهم قلائل الى الكرك ينادون ويلا وثبوراً.

وعلى أثر هذه الكارثة جاء المارشال فون فالكنهاين الى معان وتفقد المكان وأمرت القيادة العليا محمد جمال باشا بأن ينتقل الى محطة جرف الدراويش ليقود القوات التركية التي صدر الأمر بحشدها سراً لاسترداد الطفيلة وسموها «قوى التأديب» وكانت بقيادة ضابط الماني اسمه نيونيدر ماير وتتألف من ثلاثة آلايات مشاة مع مدفعية تركية قوية ورشاشات عديدة وبلوك خيالة الماني مع رشاشاته وكتائب فنية من تليفون وبرق لاسلكي واستحكام

وجاء محمد جمال باشا جرف الدراويش مع أركان حربه وضباطه ليتولى العمل ويقود القوى فحدث تشاد بينه وبين ضباط الالمان الذين أرادوا الاحتفاظ بالسلطة العليا فأصر هذا على أن تكون الحملة بقيادته بدون قيد ولا شرط فوافق الالمان بعد تردد مكرهين وقد استغل هذا سقوط ٢٥ فارسا خيالا المانيا في كمين نصبه لهم العرب حول المحطة فأبادوهم عن آخرهم وقال لهم اني أعرف منكم بالبلاد وأخيراً انصاعوا اليه. وقد نقم الالمان على العرب عملهم فكانوا يطلقون النيران على كل عربي يصادفونه انتقاما لإخوانهم من دون أ، يفرقوا بين الموالي والمنشق.

وسارت هذه القوات الى الطفيلة فدخلتها بعد مناوشة طفيفة دارت بينها وبين قوة الاستطلاع العربية فقد انسحب الجنود العرب قبل وصولنا وأبوا الاشتباك معنا وعاد جمال باشا الى معان مع رجاله وعادت القوات العسكرية الى الكرك بعد ما أقامت حامية في الطفيلة.

معارك معان :

علمنا في أوائل شهر فبراير من أقوال عيوننا وارصادنا أن الجيش العربي يعد معداته للهجوم على معان وأنه قرر نسف الخطوط الحديدية شمالا وجنوبا وتدمير الجسور بالديناميت ليحول دون ارسال ميرة وعتاد الى القوات التركية في الجنوب ليحملها على الاستسلام فأرسل محمد جمال باشا في طلب امدادات ونجدات لانه كان يعتقد عجزه عن المقاومة ـ ورأى وكان اليأس قد سرى الى نفسه أن يذهب إلى دمشق ليتصل برجال القيادة ويفاوضهم ويطلعهم على الحالة ويسعى لاستقدام قوات جديدة والظاهر أن سعيه جاء بعد أوانه فانه لم يكد يغادر معان حتى أخذ العرب بمضايقتها

ودارت معارك بيننا وبينهم حول محطات السكة خلال شهري مارس وابريل كان النصر فيها سجالا فيوم لنا ويوم لهم وربما كان أعظمها شأنا معركة المدورة فقد التحم فيها الفريقان بالسلاح الأبيض وكان العرب يظهرون بسالة خارقة.

لا أذكر جيدا تاريخ اليوم الذي ابتدأ فيه الهجوم العربي على معان وانما أظنه وقع بين ٥ ـ ٦ ابريل فقد أخذت مدفعيتهم تطلق نيرانها بشدة على جبل سمنه وهو خطنا الامامي. وبينما كان جيشهم يدخله في المساء سمعنا أصوات الديناميت تدوي كالرعد القاصف من الشمال والجنوب ورأينا القضبان الحديدية تتطاير فأدركنا خطورة الموقف وعرفنا أننا أصبحنا في عزلة عن العالم.

واستأنف الجيش العربي القتال في الغداة فأمطر خطوطنا الأمامية نيرانا حامية ثم بدأ هجوم المشاة تشد أزرهم القبائل فاستولوا بعد مقاومة طفيفة على

المرتفعات القائمة بين معان وسمنه والمرتفعات الواقعة جنوبي المحطة (مركز القيادة التركية) وكان نصرهم عظيما في ذاك اليوم فقد صارت معان ومحطتها تحت رحمة مدفعيتهم التى نصبوها في جبل سمنه وكان رصاصهم أيضا يصلنا.

وتراجعنا على أثر ذلك الى الخنادق المجاورة وحشدنا قوانا في خط الدفاع الاخير من المحطة وقد أقمناه في الجبل الملاصق لها وفى الأكمة الواقعة على ١٠٠ متر من جنوبها. وأقمنا في الخنادق الشرقية ـ والارض هنالك منبسطة ـ نحو ٢٠٠ جندى للدفاع اذا هوجمنا من هذه الناحية مع مدفع واحد.

وكانت قواتنا في معان منقسمة الى قسمين: قسم البلد وقسم المحطة وتتألف القوة الأولى من فوج مشاة لديه ٤ رشاشات ومدفعان نمساويان سريعا الطلق يشد أزرهم المتطوعة من السكان وقد انضموا مع نسائهم الى الجيش وعددهم نحو ٣٠٠

وتتألف قوة المحطة وتبعد نحو نصف ساعة عن البلدة من فوج مشاة و ٨ رشاشات مع مدفعين نمسويين ومدفعي صحراء وآخر من الطراز القديم وقد نصبوها فى الجبل المطل على المحطة وفى الهضاب الممتدة على طريق معان وشرقيها (المحطة) وجنوبها وشمالها ويقود هذه القوة القائمقام علي وهبي بك.

وأصبحنا في اليوم الثالث ونحن أمام العرب وجها الى وجه يروننا ونراهم على مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر وكانت قنابلهم تتساقط علينا كالمطر ونحن في الخنادق والغرف فلا نستطيع أن نرفع رؤوسنا إلى أعلى. واستنجد قائدنا بدمشق وبالمدينة أيضا طالبا ارسال امدادات سريعة فأجابه فخري باشا من المدينة بأن امداده له هو الدعاء الى ا لله بنصره.

وقالت دمشق يجب أن لا تستسلموا الى العدو الا جثثنا هامدة.

وبدأ العرب صباح اليوم الرابع بهجوم عام في جميع مناطق الميدان وكانت مشاتهم تتقدم ببطىء وقد بلغ بعضها خنادق الترك ولكنها ما كانت تثبت في الميدان لعجز قوات البدو عن مجاراة النظاميين فتراجع أمام نيران الترك ولا سيما أمام رشاشاتهم فقد كانت تصليها حمماً رغم تساقط قنابل المدفعية العربية عليها.

واستولى العرب بعد نضال عنيف على آخر هضبة بجوار المحطة وأصبحوا يسيطرون على الساحة وكانت حالتنا أليمة جدا في اليومين الخامس والسادس فقد قلت ميرتنا وكنا نوزع قطعة من الخبز المجفف مع قليل من الزيتون على الجندي، كما صدر أمر الى المدفعيين والمشاة بالاقتصاد في انفاق القنابل والرصاص لنفاد المدخر لدينا وقد كنا في حالة يرثى اليها لفقد القوة الأدبية وصرنا عاجزين عن القيام بأقل حركة أمام الجيش العربي الزاحف وأنهكنا التعب داخل الخنادق ولم تكن مبنية على الطراز الحديث.

واشتدت مضايقة العرب لنا حتى أصبحوا على بضع خطوات منا وكانوا يصلوننا نيرانا حامية من مدافعهم ورشاشاتهم وكان رصاصهم يتطاير من الشبابيك والنوافذ فيدخل الغرف كما تسلل بعضهم الى داخل المحطة. واستدعينا القوة التى كانت في الجبل حينما رأينا اشتداد الحال فجاءت وطردت العربان من حول المحطة ولولا وصولها لاستولوا عليها ونهبوها ولزادوا قوانا الأدبية وهنا على وهنها.

ولتعزيز هذه القوى وتنشيطها أذعنا بلاغا قلنا فيه ان الفيلق الثامن الذي

يتقدم من القطرانة لانجاد معان صار قريبا وأنه سيدخلها ليلاً وأن عشائر العرب في الكرك وجهات عمان قادمة لمساعدتنا، فنشط هذا البلاغ جندنا في الخنادق وأنعشه وظهرت عليه علائم القوة وأخذ رجاله يهنىء بعضهم بعضاً.

وانقضى الليل ولم يصل الفيلق ولا العربان فأذعنا بلاغا آخر قلنا فيه أن النجدات تأخرت لأسباب قاهرة وأنها ستصل في هذا المساء.

وفي مساء اليوم السابع أخذنا اشارة لاسلكية من القيادة بأنها أرسلت فوجا مع عتاد وميرة ومدفعي صحراء لانجادنا وأن قوات الفيلق الثانى بقيادة أمير آلاى دلى شوكت

أرسلت الى محطة القطرانة لتعزيز قوات المحطات بين القطرانة ومعان ولصيانة طريق المواصلات ولمنازلة الجيش العربي وقد بدأت شراذمه تهاجم المحطات بعد احتلال الطفيلة

وفى داك اليوم وقبل وصول برقية القيادة المنشورة آنفا أرسل علي وهبي بك برقية الى الناصرة (مقر القيادة العليا للجيش التركى في بلاد العرب يومئذ) والى دمشق يقول ان الذخيرة نفدت من مستودعات الجيش حتى لم يبق للجندى سوى خمس رصاصات وللمدفع سوى عشرين قنبلة وودع القيادة بجمل مؤثرة قال ان هذه آخر برقية يرسلها وفعلا أمر بانزال عامود اللاسلكى فأنزل. كما أمر باعداد المعدات لنسف المحطة في الصباح فلا يتسلمها العدو حين دخوله. وأبلغ الجند بأن يستعد للمقاومة بالسلاح الأبيض وأمر قيم المال بدفن مال القيادة وكان لديها كمية من الذهب ـ في حفرة يؤشر عليها اشارة سرية بعد دفنها كما قرر حرق علم القيادة فلا يغنمه العدو.

وأشرقت شمس اليوم الثامن والعرب يمطروننا ناراً حامية لم نر أشد منها في الأيام الأولى فقلنا انها مقدمة هجوم عام على معان والمحطة، وكنا بانتظاره وقد قررنا المقاومة بالسلاح الأبيض مع اننا لم نرقد في ليلتنا تلك أكثر من ساعتين أو ثلاثة خوف الهجوم.

وكنا ننتظر الدقيقة الرهيبة، دقيقة المعركة الفاصلة حيث يشتبك الجيشان بالسلاح الابيض ولكن نيران العرب خمدت فجأة.

ودق جرس التليفون وأنا أنزل الى مقر القيادة العامة تحت الارض لأتلقى أخبار معان، فبشرني بأن العدو انسحب من الخطوط الأمامية وانه يواصل تراجعه فأبلغت هذه البشرى الى علي وهبي بك فدهش وكان لايصدقها. ثم صعد الى ظهر الارض ووجه منظاره نحو الجيش العربى فوجده يغادر الهضاب والأكمات المحيطة بالمحطة فأدركنا حينئذ أنه لم يشدد نيرانه الا ستراً لانسحابه وما هي الا دقائق معدودات حتى انتشر الخبر بين الجند فأخذوا يتراكضون لاحتلال الأماكن التي جلاعنها العرب كما بدأت مدفعيتنا باطلاق النار عليهم. فأصدر القائد أمراً الى الجند بالرجوع الى أماكنهم خوفا من أن تكون هنالك مباغتة وعند الظهر رأينا مدفعية العرب تطلق مدافعها من جبل سمنه.

وقد اختلفت الآراء في أسباب هذا الانسحاب وفي تعليله خصوصا وقد كانت معان على وشك التسليم بعد ما نفدت ذخيرتها وميرتها ولو هجم علينا العرب يوم انسحابهم لدخلوا معان بلاعناء، ولعل أقرب تعليل الى الحقيقة في نظرنا هو التعليل الآتي:

لما رأى القائد العام للجيش العربى أن الهجوم على معان طال أسبوعا ولم

يقترن بنيتجة مع ما ضحى جيشه من ضحايا أصدر أمرا بالانسحاب خوفا على القوة الادبية فلا يتزلزل ولئلا يؤثر ذلك في نفوس أبناء العشائر، وا زادت خسارة الترك عن ٢٠٠ بين قتيل وجريح.

وشرعنا بعد ذلك في العمل فأصلحنا سكة الحديد وأنشأنا الجسر الذى نسفوه بين معان والجردونة وجاءتنا النجدات والميرة والذخيرة وسيرنا قطارا الى دمشق أرسلنا فيه الجرحى والمرضى كما عززنا الدفاع عن معان وبثثنا الألغام حولها.

ولما شعر العرب بوصول النجدة ورجوع الترك الى نشاطهم بدأوا بمهاجمة الجردونة ونسف قضبان السكة الحديدية بين محطات الجردونة وعنيزة والحسا وجرف الدراويش

ولا بد لنا من الاعتراف بان بقاء الجيش العربى في جبل السمنه المطل على معان أزعجنا فقد كان يصب نيران مدفعيته بدون انقطاع في الصباح والمساء على مراكزنا ولذلك قررت القيادة استرداد هذا الجبل فقمنا بحركة سرية وما كدنا نستولى عليه حتى فاجأتنا القوات العربية فانسحبنا منه

وقد انحصرت الأعمال الحربية في خلال شهور ابريل ومايو ويونيو بمناوشات بسيطة اتجهت عناية الجيش العربى في ابانها نحو الشمال فاشتبك مع الفيلق الثانى ـ بمعارك هائلة في جهات الحسا امتدت أياما استبسل فيها الفريقان واحتفظ فيها الترك بمواقعهم.

وانتقل مقر الفيلق الثانى من القطرانة الى عمان بعد استقرار الحالة في

تلك المناطق ووجه وجهه نحو جبل الدروز وحوران لمقاومة الحركة العربية وقد بلغ دعاتها تلك الانحاء.

الجلاء عن بلاد العرب :

وتكلم بعد ذلك عن جلاء الترك عن بلاد العرب فوصفه بقوله:

لما قررت القيادة العامة للجيش الانكليزى القيام بهجومها الكبير على الجيش التركى كان الجيش العربى قد أخذ أهبته فجاءت سرية منه ليلة ٢٤ سبتمبر فرابطت بين محطتي نصيب والمفرق وعطلت السكة فعاد القطار الذى كان يسير من عمان الى درعا أدراجه لانقطاع الطريق ولما ذهب العمال لاصلاحه وجدوا الجند العربي لهم بالمرصاد فأصلاهم نارا حامية فرجعوا وأبلغوا القيادة ما وقع.

وكنت أركب القطار الأول الذى غادر عمان ذلك اليوم الى المفرق فأخبرونا بما جرى ولما تقدمنا قليلا وجدنا قوات العرب معسكرة هنا لك فعدنا الى محطة عمان وأخبرنا قائد الفيلق فأمرنا بالسفر ولما وصلنا الى محطة الزرقا وجدناها تعج بطلائع الجيوش التركية المتراجعة من أمام الانكليز.

ومما يؤسف له أشد الأسف ما حدث في الزرقا بين الجيوش التركية نفسها فقد كان هنالك معسكر الجيش الرابع ومعسكر الفيلق الثاني والثامن وكان كل منها ينافس زميله ليفوز بالسفر قبله ولينال مكانا في القطار ينجو به. وكان من أشد ما يبعث الأسى في نفس الضابط التركي ما كان يجيبه به الجندي الواقف أمام احد العربات، حينما يحاول الصعود اليها ـ «ممنوع افندم» فقد جرد كل

جيش من هذه الجيوش حرسا مسلحا لحماية العربات ولمنع الضباط الأخرين من الوصول اليها.

وكان أول ما فعله الألمان انهم أحرقوا كل ما كان عندهم من لوازم ومعدات لأن ارواحهم أثمن شيء في نظرهم ولم يزعجوا أنفسهم بحمل شيء، فكنت ترى الخيام الكبيرة والكراسي والمقاعد والمناضد مبعثرة هنا وهنالك في محطتى الرزقاء وعمان وكان الترك يلتقطونها في أول الأمر كأنها غنيمة باردة ولا يعرفون أنها ثقيلة وانهم لن يستطعيوا حملها.

وسار القطار بنا من محطة الزرقا ليلا الى المفرق فبلغناها عند نصف الليل وفي الصباح أمرونا بمغادرته لكي يرجع الى معان فينقل الجرحى والمرضى والمدفعيات المرتدة من السلط.

وقبل شروق الشمس هاجم المحطة سرب من الطيارات الانكيزية قادماً من جهة العرب فانتشر الضباط والجند على مسافة ٥٠٠ متر وما كان في استطاعتهم تجاوز هذه الدائرة لان العرب كانوا لهم بالمرصاد.

ودنت الطيارات القادمة ولا يقل عددها عن الثلاثين من الارض حتى أصبحت على ارتفاع ٤٠٠ متر وأخذت باطلاق القنابل فكان الجندى يبحث عن ملجأ يلجأ اليه في تلك البطاح عبثا وبعد أن أفرغت قنابلها بدأت باطلاق الرشاشات ففتكت بنا فتكاً ذريعا ولا تسل عن عدد القتلى فقد امتلأت بهم القفار وكان أنين الجرحى يصم الآذان.

ولم يطل عياب الطيارات أكثر من ساعتين فقد عادت وهبطت حتى

أصبحت على ارتفاع لايزيد عن ٣٠٠مترا فأطلقت النار مدة ساعة ونيف ثم انصرفت بعد أن فتكت بالجند المذعور أشد من السابق.

وقصد جمال باشا الصغير في صباح ذلك اليوم مع أركان حربه درعا لتنظيم النقل وظل في محطة المفرق دلى شوكت بك قائد الفيلق الثاني لقيادة الجيش. وكان لسوء الحظ مريضا في ذاك اليوم فكان ينظر من صالون القطار الى تلك الجنود المنتشرة في تلك الصحراء وقنابل الانكليز تفتك بها وهو عاجز عن العمل. وكان الفيلق الثامن حتى تلك الساعة في عمان بقيادة ياسين الهاشمي وقد سارت بعض خيالته وفرقه الى محطة المفرق وكانت القطارات تروح وتغدو بين هذه وعمان فقط لأن الجيش العربى سبق فقطع الطريق بين درعا والمفرق وعطل السكة الحديدية فاضطرت الجنود التركية المتراجعة الى الوقوف في الأخيرة ولولا ذلك لواصلت سيرها الى دمشق ناجية. وقد أدى ذلك الى القاء الذعر والاضطراب في صفوف الترك والى تلاشي القوى الأدبية فكان الضباط من الملازم الثانى حتى القائمقام لا يفكرون الا في النجاة وزاد الطين بلة ما شاع حينئذ وهو أن جبل الدروز قد ثار وانضم الى العرب وأن الثوار مرابطون فى الجهة الغربية للانقضاض على الجيش التركى وأن الانكليز احتلوا الأماكن التي جلا عنها الترك في الجنوب وانهم يزحفون من الوراء أضف الى هذا أن طيارات الانكليز ما كانت تتركنا دقيقة واحدة فقط هاجمتنا في المفرق وفتكت بنا فتكاً ذريعاً. وكان الجنود والضباط الترك يشتمون أنور وطلعت وجمال شتماً شنيعاً لأنهم أوصلوا البلاد الى هذه الحالة ولو كانت أمامنا قوات عربية منظمة لاستسلم الكل اليها في تلك الساعة وقد بلغ منا اليأس أشده.

وللمرة الرابعة عاودتنا الطيارات الانكليزية في اليوم نفسه وفي محطة

المفرق نفسها وعددها يقارب الاربعين فقذفت قنابلها علينا بنشاط لم نعهده في المرات الثلاث الأولى، غير تاركة شيئا وغير راحمة الجرحى وقد كانوا في عربات وضعنا عليها شارة الهلال الأحمر وسقطت احدى قنابلها في مستودع الذخيرة والعتاد التركي فانفجر فسرت النار في المعسكر فكانت مجزرة من أفظع المجازر حتى بلغ اللهيب عربات المرضى والجرحى فكانوا يطلبون المعونة والنجدة ولا من مغيث وقد دمرت المحطة وأصبحت شعلة نار.

وفي المساءأتلقينا أمرا بأن نسير على أقدامنا فغادرنا محطة المفرق تاركين كل شيء وكانت النار لاتزال تضطرم وكنا نذرف الدموع على حالتنا الأليمة وعلى اخواننا وما كدنا نبتعد قليلا حتى توقف الكشافة لانهم أبصروا شرذمة من البدو واقفة في الجهة الغربية وقد ظل الجيش كله واقفا لحو ساعة حتى استطاع احد القواد تدبير قوة من الجيش لايزيد عددها عن المئتين لطرد الشرذمة وقد ظهر أنها وقفت للفرجة لا للقتال، وكان الجنود يفرون يمينا وشمالا بعد ما يرمون أسلحتهم في داخل عربات القطار ناجين بأنفسهم بعد ما خمدت الروح الأدبية في صدروهم.

وسار الجند التركي الليل بطوله وكنت في المقدمة مع بعض الضباط فبلغنا عند شروق الشمس محطة «قم عرز» الواقعة على خمسة كيلومترات من درعا الى الجنوب.

وكانت مغلقة وكانت أمنيتنا الكبرى أن نجرع جرعة من الماء ولم نذقه من ٢٠ ساعة وكان الجيش قد أشرف على الهلاك من العطش فهتفنا بقائد محطة درعا وطلبنا منه أن يسير قطارا مملوءا ماء فارسله وما كدنا نبتعد قليلا عن هذه المحطة حتى جاءت الطيارات الانكليزية عند الصباح لتعيد عملها أمس.

وبعد ساعتين من دخولنا محطة درعا بلغها الجيش المنسحب وكانت ملآى بالجيوش المهزمة من فلسطين وقضينا يوم ٢٦ سبتمبر فيها فزارتنا الطيارات الانكليزية مرتين وكان مفعولها أقل.

هذا ما جرى بالقوات التي كانت في المحطات والتي عادت من ميدان القتال في فلسطين أما قوات معان فقد تلقت أمرا بالانسحاب بسرعة الى عمان - درعا فتراجعت يوم ٢٣ سبتمبر على طريق سكة الحديد منسحبة تحت حماية المدفعية وكانت تمنع الجيش العربي عن اللحاق بها وقد انضمت اليها في تراجعها القوات التي كانت مبعثرة هنا وهنالك. ووصلت الى محطة الجيزة (قرب عمان) بعد سفر الفيلق الثامن بيوم واحد وهنالك باغتها الانكليز وأحاطوا بها فاستسلمت اليهم فارسلوها الى القدس اسيرة.

قال المؤلف وأسعدنى الحظ وقد كنت مريضا من التعب والماء القذر الذى شربته فركبت في القطار الخاص الذى أعد في درعا لقواد الجيش وكبار الضباط الالمان وعندما بلغنا محطة الكسوة نزل جمال باشا الصغير منه وأخذ يعمل لتأليف فوج من الجند يرابط للدفاع فلم يوفق إلا بعد عناء عظيم.

وكان من جراء اعلان الاستقلال العربي في دمشق وانقطاع المواصلات بين دمشق ورياق ان بقي عدد عظيم من الضباط والجنود الترك في تلك المدينة لا يقل عددهم عن ألف وخمساية تسلمتهم الحكومة العربية كما تسلمت الأسرى الآخرين من الترك ولا يقل عددهم عن العشرين الفاً.

في ميدان الحجاز :

هذا بعض ما جرى في الشمال حتى دخول دمشق أما ما جرى في ميدان

الحجاز بعد سفر الجيش الشمالى، فخلاصته أن جيش الجنوب بقيادة الأمير علي وجيش الشرق بقيادة الأمير عبد الله أقاما على حصار المدينة وكان الأمر لا يخلو من مناوشات تدور بين الفريقين وكان الجنود الترك والضباط يفرون بلا انقطاع لاجئين الى المعسكر العربي ودام الحال على هذا المنوال حتى عقدت الهدنة بين الحلفاء والترك يوم ٣٠ اكتوبر سنة ٨١٨ وقد جاء في المادة ١٦ منها ما يقضي على الترك باسترداد قواهم من جميع البلاد العربية.

ففي أوائل شهر نوفمبر أبلغ الأمير علي فخرى باشا نص معاهدة الهدنة ودعاه الى الاستسلام فابى ـ كما أبى الإصغاء الى الأوامر التى صدرت اليه من الاستانة باللاسلكي وهي تدعوه الى التسليم، بحجة أنها خدعة حربية ــ وفي يوم ٢٨ نوفمبر وصل الأمير علي الى بير درويش ومعه الكبتن غارلند ضابط الارتباط الانكليزى ودعا فخري باشا الى الاستسلام فابى أيضا فكرر الطلب للمرة الثالثة فرفض.

ولما رأى الحلفاء اصراره خاطب المندوب السامي البريطاني الحكومة العثمانية في الأمر فانتدبت وزارة الخارجية ضابطا حمل شروط الهدنة وأمراً رسميا من وزير الحربية الى فخري باشا بالتسليم فورا ولما وصل هذا الضابط الى معسكر المدينة وسلم الكتاب اليه أبى أيضا بحجة ان للمدينة مقاما قدسياً عند المسلمين وانه لن يسلمها وهو حي فعاد الضابط كما جاء وعاد الجيش العربى الى التشديد والتضييق.

وعلم ضباط الحامية بما وقع وكانوا في أشد حالات الضيق فاتفقوا فيما بينهم برئاسة كورامين بك رئيس أركان حرب الحملة على خلع فخري باشا

وتسليم المدينة الى العرب وكتبوا نشرات أذاعوها بين رجال الجيش. ولما اتصل ذلك بفخري باشا وعرف أن رئيس أركان حربه يتآمر عليه كاد يفتك بـه، ففـر هذا مع فوجين من الآلاى ٥٥ واستسلم فاحرج ذلك مركز هذا فامر يـوم ١٤ ديسمبر سنة ٩١٨ بالجلاء عـن منطقـة العـلا وضـم قواتهـا الى قواتـه في المدينـة لتعزيز مركزه فزاد ذلك في نقمـة الضبـاط والجنـد وفـرت سـريتان مـن سـرايا الفوج الثانى للآلاى ٤١ المرابط في العوالى مـع رشاشـتين وجـانب مـن المدفعيـة وانضمت الى العرب فعجل فخرى باشا بالجلاء عن منطقة العوالى يـوم ٢٥ منـه كما جلا عن بير الماشى.

وتتابع بعد ذلك فـرار وحـدات الجيـش الـتركى واستسـلامها الى العـرب حتى أسقط في يد فخري باشـا وعـرف أنـه لم يبـق عنـده مـن القـوى مـا يكفيـه للدفاع عن خط واسع فارتد الى خط الدفاع الثانى، ولما توالى الفرار وأدرك أنـه لا فائدة من المقاومة لسريان روح التمرد والعصيان بين أفراد الجيـش وتضعضـع القوى الأدبية أرسل وفدا يوم ٤ يناير سنة ٩١٩ الى بير درويش لمقابلـة الكبـتن غارلند ومفاوضته والاتفاق معه على شروط التسليم فتم ذلك يوم ٧ منه ووقـع على الاتفاق بين الامير علي والكبتن غارلند، ممثل الحلفاء من جهة وفخري باشـا من جهة أخرى وفى يوم ١٠ منه وصل هذا الى مقر الأمير علي في بـير درويـش وسلم نفسه.

وفى ١٦ منه وصلت أول قافلـة مـن الجيـش الـتركى المستسـلم الى ينبـع فركبت البحر الى مصر وتتابع سفر الأسرى حتى يوم ١٣ فبراير فلم يبـق منهـم أحدا.

ومما يستحق الذكر أن حكومة الاستانة أرسلت وفدا الى المدينة قوامه حيدر منلا بك وزير الحقانية والأمير الاى احمد بك يحملان ارادة سنية من السلطان الى فخري باشا بوجوب التسليم عملا بالاتفاقات المعقودة فبلغا الحجاز يوم ١٤ يناير أي بعد استسلامه بأربعة أيام.

الصهيونية

إن إطلالة بسيطة على التاريخ القديم تؤكد لنا بأن دولة اسرائيل الأولى ما بين «١٠١٠ - ٥٨٥ ق م» والثانية ما بين «١٥٠ ـ ٦٣ ق م» لم يتجاوز عمرهما معاً سوى خمس مائة وإثني عشر عاماً فقط.

وأن أثر الحكومات اليهودية كان قد اختفى تماما من الأرض العربية منذ ألفي عام. ونضيف الآن أن بعض المفكرين اليهود قد قطعوا بأن الدولتين ومحاولة توحيد الشعب اليهودي خلال تلك التجربة القديمة لم يكشف عن أية عبقرية للاضطلاع بمهمام الحكومة على ذلك الأساس الديني.

وأن الأمر لم يعد أن تاريخ تينك الدولتين ـ باستثناء فترتين لم تدم كل منهما أكثر من خمسين عاماً ـ لم يشهد أي مظهر من مظاهر القوة أو المجد ... وأنه عندما حكم البطالسة مصر بعد غزو أراضي دولة إسرائيل الأولى صحب عدد كبير من اليهود البطالسة حتى إنه في عام ٢٥٠ ق م كانت الإسكندرية تضم أكبر عدد من اليهود في العالم. وقد ترجمت الثوراة إلى اللغة اليونانية لأن هذه اللغة حلت محل اللغتين الآرامية والعبرية بين يهود مصر. وأن «فيلو» اليهودي قرر أن اليهود يعدون وطنهم هو الوطن الذى عاش فيه آباؤهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم والذي ولدوا هم أنفسهم على أرضه وشبوا فيه».

١ ـ بدأت الدعوة إلى إنشاء وطن لليهود في إنجلترا، ولعل أول ما نشر عن هذا المشروع كتاب لسير هنرى فينش الذى اشتغل بالمحاماة عام ١٦١٦

وقد أسمى كتابه «نداء اليهود» ودعا فيه إلى: «إعادة إنشاء وطن مؤقت لليهود تمهيداً لتأسيس إمبراطورية عالمية واسعة الأرجاء بواسطتهم.

ولكن هذه الدعوة لم تتخذ شكلا جدياً إلا بعد أن أنشأت بريطانيا إمبراطوريتها في الهند. وكان أول من فكر فيها موسى حايم مونتفيور.

وهو إيطالي من بلدة ليجورن تمكن عمه من إلحاقه بوظيفة سمسار في بورصة لندن، التى كانت لا تقبل من بين سماسرتها إلا إثني عشر يهودياً، وقد جمع من هذا العمل ثروة طائلة فاعتزله في عام ١٨٢٤، وسافر إلى فلسطين ثم عاد منها فى عام ١٨٣٧ بعد أن تبين أن عدد اليهود بها لا يزيد عن ثمانية آلاف متفرقين في القدس وسباطا وطبرية والخليل. وقد قابل محمد علي ـ الذي كان قد ضم فلسطين إلى مصر ـ أثناء تلك الرحلة. وفي عام ١٨٣٨ سافر سير موسى ـ وكان قد أنعم عليه بهذا اللقب في العام الأسبق ـ مرة ثانية إلى فلسطين وكتب في مذكراته بعنوان «سباط ٢٤ من مايو ١٨٣٩» ما يأتي:

«من كل المعلومات التي استطعت جمعها اتضح لي أن الأرض المجاورة تبدو أنها صالحة على الخصوص للاستغلال الزراعي. فهنا أحراش من أشجار الزيتون يغلب على ظني أنها تعود إلى خمسمائة عام وحقول كرم ومراع شاسعة وعدد كبير من الآبار. كما توجد أشجار تين وحقول قمح وشعير غنية فهي في الحقيقة أرض يمكن أن تنتج أي شيء بكثرة في مقابل قليل من المهارة والعمل. إنني واثق من أنه لو نجح المشروع الذى أفكر فيه فإنه كفيل بتحقيق السعادة والرخاء للأرض المقدسة. وسأبدأ بأن أطلب من محمد علي منحي أرضاً لمدة خمسين عاماً ومائة أو مائتي قرية وسأعطيه ربحاً يتراوح بين عشرة وعشرين في المائة على أن

يكون دفع المبلغ بأجمعه سنوياً في الإسكندرية بشرط أن تعفى الأرض والقرى التى ستمنح طول المدة من أية ضريبة يفرضها الباشا ـ أي محمد علي ـ أو حاكم المناطق التى ستمنح فيها الأرض، وبشرط أن أحصل على حرية التصرف في المحصول في أية جهة من جهات العالم، فإذا حصلت على المنحة فإنني سأستعين بالله بعد عودتي من إنجلترا وأنشىء شركة تتولى زراعة الأرض وتشجع أبناء ديننا في أوروبا على العودة إلى فلسطين. إن كثيرين من اليهود يهاجرون الآن إلى ويلز الجنوبية الجديدة وكندا ولكنهم يستطيعون في الأرض المقدسة أن يجدوا فرص النجاح المؤكد. هنا سيجدون الآبار التى تم حفرها. وأشجار الزيتون والكرم التي تم زرعها، والأرض الخصبة التي لا يعوزها إلا القليل من السماد. وإننى لآمل أن أوفق تدريجياً إلى إعادة آلاف من أبناء ديننا إلا أرض إسرائيل. كما أنني واثق من أنهم سيكونون سعداء عندما يتبينون أن ديننا المقدس قد رعي بطريقة يستحيل تحقيقها فى أوروبا».

ولم تقبل مصر منح هذه الأرض إلى سير موسى مونتفيور، ولكن الأخير استطاع فى عام ١٨٤٠ أن يحصل من لورد بالمرستون على وعد بأن يعد القناصل الإنجليز في الشرق أنفسهم حماة لليهود في الأقطار التركية. ثم وفق سير مونتفيور فى عام ١٨٤٥ إلى الحصول على أرض في فلسطين عهد باستغلالها إلى خمس وأربعين أسرة يهودية من سباط.

٢ ـ وفي عام ١٨٦٢ نشر موسى هيس وهو يهودي ألمانى اعتنق المبادىء الإشتراكية وتعشق المدينة الفرنسية كتاباً أسماه «روما والقدس» ذكر فيه أن العصر الذى يتحقق فيه أمل اليهود قد بدأ بالثورة الفرنسية وقرر «أن ما علينا عمله اليوم لإعادة تأسيس وطن اليهود القومي أن نحتفظ دائماً بالأمل فى بعثنا

السياسي وأن نوقظ هذا الأمل كلما نام. فإذا مكنتنا الحوادث التي تتأهب للوقوع في الشرق من البدء عملياً فى إعادة إنشاء دولة يهودية فإن الخطوة التالية ستكون إنشاء مستعمرات يهودية فى أرض الأجداد، وهو عمل لاشك في أن فرنسا ستمد له يد العون».

وقد اقترح هيس «امتلاك أراض تستخدم كملكية شائعة، وأن تبذل جهود لوضع شروط قانونية يمكن للعمل الذى سيبذل فيها أن يثمر تحت حمايتها وأن تنشأ جمعيات يهودية للزراعة والصناعة والتجارة تطبق مبادىء موسى الإشتراكية» وقد أشار بصفة خاصة إلى أن «فرنسا لا تتمنى أكثر من أن ترى الطريق إلى الهند والصين وقد سكنها شعب على أهبة لأن يتبعها حتى الموت وبذلك تحقق الرسالة التى عهد بها إليها منذ نشوب ثورتها الكبرى. فهل هناك أصلح من الشعب اليهودى لتحقيق هذا الغرض وهو الشعب الذى قدر له منذ فجر التاريخ أن يحققه؟ إن الفرنسيين واليهود قد خلقوا بلا شك لكى يتبادلون التعاون».

وقد تأثر هيس في هذا الكلام بما كان قد كتبه الحاخام كاليشار من بلدة «تورن» الذى اقترح أن يؤسس أصحاب الملايين اليهود جمعية للاستعمار اليهودي ووصف أصحاب الملايين بأنهم «الأمراء اليهود الذين لم يرهم الشعب اليهودي منذ تفرق شمله» وقد وضع للجمعية المقترحة نظاماً يقضي بوجوب إنشاء «قوة عسكرية منظمة من المواطنين تتولى رد هجمات البدو وتؤدى أعمال البوليس وتنفذ القانون بالقوة وتحفظ الأمن في البلاد»!

وقد أشار هيس إلى أن أحد المفكرين الفرنسيين وهو إرنست لاهاران قد آمن بالقضية اليهودية وأنه كتب يقول:

«لا. لا أعتراض يمكن أن يوجه. ووطن يهودا يستطيع أن يمد حدوده من السويس إلى ميناء أزمير وأن يضم كل الجزء الغربى من لبنان»؟!

وقد ختم الفرنسى نداءه بهذه الكلمات:

«تقدمي إلى الأمام أيتها القلوب النبيلة.. إن اليوم الذى تعود فيه القبائل إلى وطنها سيكون يوماً مشهوداً في تاريخ البشرية. ما أشد رعدة الشرق لدى عودتكم وما أسرع أن يتلاشى اضطراب الأجناس المحلية أمام العمل الباهر الذى ستقومون به هناك حيث أملت الشهوات والسرقات حكم القوة مدى آلاف السنين»؟!

٣ ـ وفى عام ١٧٨٠ انتقل النشاط اليهودي من إنجلترا إلى روسيا فأسس الحلف الإسرائيلى العالمي ـ بناء على فكرة بعض اليهود الروس ـ مدرسة زراعية على مقربة من يافا وكان الغرض منها تعليم أبناء يهود الشرق الأدنى العلوم الزراعية وقد بلغت مساحة الأرض التي خصصت لتلك المدرسة والتي أطلق عليها إسم «ميكفح إسرائيل» نحو ستمائة فدان منحتها الحكومة العثمانية.

وحوالى عام ١٨٧٨ أخد الطلبة اليهود فى روسيا ينتظمون فى عضوية نواد خاصة بغرض الهجرة إلى فلسطين عندما تسنح لهم الفرصة. وأهم جمعية من تلك الجمعيات تكونت في القسطنطينية باسم «بيلو» عام ١٨٨٢ وهذا الإسم مكون من الحروف الأولى لكلمات هذه الجملة «بيت يعقوب. تعال. هيا نذهب» باللغة العبرية وكلمات النداء الذي أذاعته تلك الجمعيات يعبر عن «الصهيونية» وعن المحيط الذي صدر عنه وقد بدأ بهذه الكلمات:

«إلى إخواتنا وأخوتنا فى المنفى السلام عليكم. إذا لم أعن نفسى فمن يعينني؟»

وقد ذكر فى آخر النداء:

«الجمعية ستقسم إلى فروع محلية بحسب عدد أعضائها.

مقر اللجنة التنفيذية سيكون فى القدس.

الهبات والاشتراكات لن تحدد.

إننا نريد:

وطناً فى بلدنا. فقد أعطتنا رحمة الله هذا الوطن وهو لنا كما هو ثابت فى محفوظات التاريخ.

إننا سنرجو من السلطان نفسه منحنا هذا الوطن. فإذا استحال الحصول عليه رجونا أن نقطن هذا الوطن على أن يكون دولة داخل دولة أخرى أعظم منها.

فنستقل بشئون إدارتنا الداخلية وتكون لنا حقوقنا المدنية والسياسية على أن تتولى الإمبراطورية التركية شئون السياسة الخارجية وبذلك نساعد أخانا إسماعيل في وقت حاجته إلينا:

عليكم تحياتنا أيها الإخوة والأخوات الأعزاء.

اسمع. يا إسرائيل. الله أكبر. لا إله إلا هو. ولا أمل لنا إلا فى أرض صهيون والله معنا»!؟

وفى نفس ذلـك الوقـت تقريبـاً أسسـت جمعيـة أوسـع نطاقـاً مـن اليهـود الروس أطلقوا على أنفسهم اسم «محبـو صهيـون» وقـد نتـج عـن هـذا النشـاط المتشعب أن أسست عدة مستعمرات صهيونية كمسـتعمرة «ريشـون لوزيـون» على مقربة من يافا و «زيشرون يعقوب» في سامارية.

وكان إنشاء هذه الجمعيات قد نشط عقب قتـل أليكسـندر الثـاني قيصـر روسيا فى عـام ١٨٨١ إذا اتخـذت في العـام الثـانى أي عـام ١٨٨٢ إجـراءات تشريعية ضد اليهود عرفت باسـم «قوانـين مـايو» بعـد أن شـهد حكـم القيصـر المقتول بين عامي ١٨٥٥، ١٨٨١ تقدما ملحوظاً نحو تحرير اليهـود مـن القيـود العديدة التى كانت مفروضة عليهم ونحو إدماجهم فى القوميـة الروسـية، وكـان من زعماء هذه الحركة الإندماجية طبيب يهودي في مدينة أوديسـا يدعـى ليـون بنسكر فلما صدرت «قوانين مايو» أخذ بنسكر يبشر بنظرية تدعو إلى أن يتـولى اليهـود أنفسـهم خطـوة نحـو تحريـر أنفسـهم وقـرر «أن اليهـود يكونـون داخـل الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها عنصراً له كيانـه الخـاص ومقوماتـه الخاصـة بحيـث لا يمكـن لشـعب آخـر ان ينسـجم معـه» وأضـاف أن اليهـود شـعب لا استقلال له ولذلك ينظر إليهم العـالم كـأنهم «أشـباح تجـول بـن الأحيـاء» وقـد انتهى إلى:

«إننا لكى نتخلص من حياة التجول التى كتب علينـا أن نحياهـا إلى الأبـد ولكي ننهض كأمة في نظر أنفسنا ونظر الآخرين لا يجب ـ قبل كل شيء أن نحلم باستعادة أرض يهودا. لايجب أن نبدأ مرة أخـرى عملنـا في نفـس المكـان الـذى شهد إنهيار دولتنا بالقوة وتحطيمها. إن عملنـا لـو توفـرت لـه الحلـول يجب أن يكون بقدر الإمكان محدوداً مـا دام يبـدوا مـن الآن شـاقاً وعسـيراً. لا يجب أن

تتجه أمانينا إلى الأرض المقدسة بل إلى أرض نملكها. إن الشيء الضروري الذى يحتاج إليه إخوتنا فى الدين هو قطعة كبيرة من الأرض نضمن ملكيتنا الدائمة لها كما نضمن ألا يطردنا منها سيد أجنبى».

ولتحقيق هذا الغرض دعا بنسكر إلى عقد مؤتمر قومي، وقد أثارت أراءبنسكر اهماماً كبيراً بين يهود العالم، ولكنها لم تثمر ثمرة عملية، واضطر آخر الأمر إلى أن يشترك مع جمعية «محبى صهيون» فى مشروعاتها الخاصة باستعمار فلسطين.

وحاول يهودي روسي آخر هو إيليزر بن يهودا Eliezer Ben Uehuda الذى كان قد هاجر إلى القدس وأقام بها أن يبعث اللغة العبرية ويجعلها من اللغات الحية التي يتفاهم بها اليهود، فوضع فى عام ١٨٩١ قاموساً لها.

٤ ـ ولقد طرأ فى ذلك الوقت تحول على أهداف الحركة اليهودية إذ أن الثري اليهودى الألماني البارون هيرش Hirsch انتهى إلى اختيار الأجنتين كأفضل دولة يمكن أن ينجح فيها الاستعمار اليهودي على نطاق واسع بعد أن بحث احتمالات النجاح فى مختلف الدول بحثاً وافياً. ولهذا السبب نظر المتحمسون للاستعمار اليهودي فى فلسطين إلى الحركة الأرجنتينية بارتياب كبير واعتقدوا أن إنشاء وطن صهيوني جديد في أمريكا ربما قضى على أمل اليهود في بعث صهيون القديم بفلسطين ثم بدأ هؤلاء المتحمسون في اتخاذ الخطوات العملية للاجهاز على المشروع الأرجنتيني ولتبين هذا الشعور يكفى أن نلقي نظرة على ما أثبته الكاتب الصهيوني «شماريا هوليفين» فى مذكراته الخاصة عن تاريخ حياته فى عام ١٨٩١.

«إن أنصار مشروع الأرجنتين قد اتخذوه كسلاح ماض أشهروه في وجه فلسطين وقد استخدموا ملايين البارون بطرق منظمة تنظيما دقيقاً لمحاولة خنق الحركة القومية التي قامت بها جموع اليهود».

وقد عاد ليفين وتلامذته إلى روسيا فى صيف عام ١٨٩١ متأهبين ـ كما قال ليفين ـ «لتأليب الحركة كلها مشروع الأرجنتين ولكى نثبت للعالم أن البارون هيرش كان يخون إرادة شعبه ومصالحه»!

الوطن اليهودي

١ - وفي عـام ١٨٩٦، أي بعـد إنقضـاء أربعـة عشـر عاماً علـى إصـدرا كتاب ليون بنسكر عن «تحرير اليهود بواسطة اليهود»، أصدر صحفـي يهـودي نمساوي هو تيودور هيرتزيل كتاب «الدولة اليهودية»، وكـانت نتيجة صـدوره أن تناسقت الجهود المختلفة التى كانت تبذل في سبيل إنشاء وطن قومي لليهود، ولم تكد تنقضى بضعة أشهر حتى بدأت حركة جديدة عرفت باسم «الصهيونيـة السياسية»، وقد بدأ مؤلف كتاب «الدولة اليهودية» يكون عناصر مشروعه عن إنشاء دولة يهوديـة فـى عـام ١٨٩٦، وكـان أسـاس الفكـرة أن تتقـدم شـركة يهودية إستعمارية تمثل اليهود لتمتلك أرضاً لا ينازعها فيها أحد. على أن تكون هذه الأرض من الاتساع بحيث تقبل عدداً من اليهود يخفف ضغطهم عـن البـلاد التى نشأوا فيها. وقد قدر عـدد الذيـن يجـب أن يهـاجروا مـن أوروبـا بثلاثـة أو أربعة ملايين يهودي في مدة لا تتجاوز بضعة أعوام قليلة بمعدل لا يقل عـن ربـع مليون يهودي سنوياً.

وقد رأى هـيرتزيل أن تختلـف هجـرة اليهـود عـن هجـرة أبنـاء الشـعوب المختلفة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أن الدافع إليها ليس الرغبة في الهـرب من الاضطهاد أو تحسين حالة المهاجر الشخصية، وإنمـا التحمـس لإنشـاء شـعب متحد، فقد قرر «أن الهجرة لاقيمة لهـا إذا لم تكـن إلى أرض لنـا عليهـا السـيادة الأكيدة، فإن تسلل جماعات قليلة العدد سينتهى إلى كارثة، لأن التسلل سيستمر إلى أن تحل اللحظة التي لاخلاص منها عندما يشعر الشعب صاحب الأرض التى

ستكون الهجرة إليها بأن كيانه مهدد فيرغم حكومته على أن توقف تدفق يهود جدد»!؟

وقد ذاع صيت هيرتزيل وعلت مكانته بين اليهود إلى حد أنه عندما زار معبد اليهود بصوفيا فى يونيو عام ١٨٩٦ ووجد أنه لا يستطيع أن يخاطب الجمهور بدون ان يدير ظهره للمحراب، ارتفع صوت من الجمع المحتشد الذى أقبل للاستماع إليه وقال له «أدر ظهرك للمحراب فإنك أقدس من التوراة»!

وقد استطاع هيرتزيل بواسطة مغامر يدعى شيفاليه ده نيولينسكي كانت له صلات بالقسطنطينية، أن يقابل السلطان عبد الحميد وأن يقدم إليه إلتماساً بأن يتنازل لليهود عن فلسطين، لكي يؤسسوا فيها جمهورية أرستوقراطية على نسق جمهورية البندقية، وقد بحث سلطان تركيا جميع احتمالات هذا الالتماس وما وعد به من مساعدات مالية كان اليهود على أتم استعداد لتقديمها، ولكنه لم يتردد قط في رفض فكرة السماح بإقامة دولة يهودية داخل حدود الإمبراطورية التركية، فكتب إلى هيرتزيل يقول: «أنصح دكتور هيرزيل بألا يتخذ خطوات أخرى في هذا الطريق فإنني لا أستطيع أن أتنازل عن قدم مربعة واحدة من هذه الأرض ـ أي أرض فلسطين ـ لأنها ليست أرضي وإنما أرض شعبي، شعبي الذى حارب فى سبيل هذه الأرض ورواها بدمه. دع اليهود يحتفظون بملايينهم فإذا تفككت إمبراطوريتي فإن اليهود قد يحصلون على فلسطين بدون مقابل، ولكنهم لن يصلوا إليها إلا على أشلاء أجسامنا بعد تمزيق أوصالها. إنني لا أستطيع أن أوافق على إجراء التجارب الجراحية على أجسام أبناء شعبي الأحياء».

٢ ـ وقد دعا هيرتزيل إلى عقد مؤتمر صهيونى في ميونيخ، ولكن هذا

الاقتراح قوبل بمعارضة رسمية من الجالية اليهودية في المدينة التى تـأثرت بتصريـح أعلنته جمعية «حاخامين ألمانيا» وقررت فيه «إنـه وإن كـان لا اعـتراض لها علـى المشروع الخاص باسـتعمار فلسـطين بواسـطة مزارعـين يهـود، إلا أن المحـاولات الخاصة بإنشاء دولة يهودية في فلسطين تتعارض مع مبـادىء الديـن الموسـوي». ولذلك عقد أول مؤتمر صهيوني في بال بسويسرا، وعقدت بعده عـدة مؤتمـرات في السنوات الأربع التالية وظلت تعقد كل عامين إلى أن أعلنت الحـرب العالميـة الأولى، وبذلك بدأت اليهودية العالمية منذ عـام ١٨٩٧ أي منـذ تـولى هـيرتزيل قيادتهان تنظم كقوة سياسية تمثل مصلحة يهودية مستقلة عـن مصـالح الشـعوب التي يعيش فيها الفرد اليهودي، بل قد تتعارض مع تلك المصالح.

أما مؤتمر بال فقد قرر فيه:

«إن غرض الصهيونيـة هـو تأسـيس وطـن للشـعب اليهـودي في فلسـطين يضمنه القانون العام. والمؤتمر يقترح الوسائل التالية لتحقيق هذا الهدف:

ترقية استعمار فلسطين بواسطة عمال زراعيين وصناعيين من اليهود علـى أن تقوم الترقية على قواعد ملائمة.

تنظيم يهود العالم وجمع شتاتهم بواسطة المؤسسات المحليـة والدوليـة الـتي تعمل طبقاً لقوانين كل دولة.

تقوية وتنمية شعور اليهود الوطني وإحساسهم بالمسؤولية.

اتخاذ خطوات تحضيرية للحصول على موافقة حكومـات الـدول المختلفـة كلما دعت الضرورة إلى تحقيق هدف الصهيونية».

وقد ذهب المؤرخون الذين توفروا على دراسة تاريخ هذه الحرب الصهيونية، إلى أن دكتور هيرتزيل، زعيم الحركة، قد خان فكرته الأساسية، فإن عماد مشروعه قد قام على أن تتجه هجرة اليهود إلى أراض تكون لهم عليها السيادة والسلطة ولكن مؤتمر بال الذي أقر هيرتزيل قراراته استخدم، كما رأينا عبارة «وطن للشعب اليهودى يضمنه القانون العام» كما ذهبوا إلى أن العبارة وإن كانت غامضة إلا أنها كانت تعني بوضوح شيئاً غير إنشاء «دولة» ومتى كان الهدف تأسيس مالا يعد دولة، فإن السيادة اليهودية لا يمكن ضمان الحصول عليها، سواء ضمنها القانون العام أولم يضمنها، كما أن الوطن اليهودي، طبقاً لقرارات مؤتمر بال، قد تقرر إنشاؤه فى بقعة معينة من الأرض هي فلسطين، دون دراسة سابقة لاحتمالات نجاحه فيها، بعد أن كان اتجاه هيرتزيل قبل ذلك المؤتمر نحو البحث عن أرض تتوفر فيها تلك الاحتمالات أياً كان موقعها.

وكان السبب في وضع عبارة «وطن يضمنه القانون العام» بدلا من «دولة» هو خشية العدد الكبير من اليهود الذين استقرت حياتهم فى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، ومن أن حديث اليهود عن إنشاء دولة قد يدفع حكومات الدول التي يعيشون في كنفها إلى الاعتقاد بأن ولاء رعاياها اليهود سيكون لدولة أجنبية.

ولكن كل هذه الاعتبارات لم تمنع هيرتزيل من أن يتابع مفاوضاته مع الحكومة التركية نحو ستة أعوام. ربما كان تغيير كلمة «دولة» بعبارة «وطن قومى يضمنه القانون العام» قد روعيت فيه الرغبة في الحصول على موافقة سلطان تركيا ويبدو أن هذه العبارة قد اهتدى إليها الصهيونى ماكس نوردو.

وقد زعم هيرتزيل أن اليهود هم حلفاء المسلمين الطبيعيين ضد المسيحيين وصور مستقبل الإمبراطورية الباهر بعد بعثها بأموال اليهود وتجديد أسطولها لتحدي الدول الأوروبية في صورة براقة ولكن سلطان تركيا لم يطمئن لحظة إلى مزاعم هيرتزيل فولى وجهه شطر قيصر ألمانيا ـ وكان إذ ذاك في عنفوان مجده ـ وحاول إيهامه بأن اليهود، وحدهم، هم الشعب الذى يمكنه أن يساعد على تنفيذ مشروع سكة حديد برلين ـ بغداد ولكن سياسة ألمانيا في ذلك الوقت كانت متجهة إلى مسالمة الأتراك والإسلام فلم يلبث القيصر الألماني بعد أن تبين اعتراضات سلطان تركيا على المشروع الصهيوني أن نبذ ذلك المشروع وأبى مؤازرته. وأسرع هيرتزيل وحزبه بمغادرة فلسطين بل الفرار منها في جبن شائن خشية أن يعتدى على حياتهم.

وفى عام ١٩٠٢ انتهت المفاوضات بين سلطان تركيا وهيرتزيل إلى عرض من الحكومة التركية اشترطت فيه أن يتجنس المهاجرون اليهود بالجنسية التركية وأن يقضوا مدة التجنيد الإجبارية في الجيش التركي وأن يورعوا على جميع ولايات تركيا في آسيا ـ ما عدا فلسطين ـ على ألا تهاجر إلى كل ولاية أكثر من خمس أسر يهودية.

ولم يقبل الصهيونيون هذا العرض بطبيعة الحال.

٣ ـ وفى عام ١٩٠٢ وعند ما يئس هيرتزيل من موافقة الحكومة التركية على استعمار الصهيونيين لفلسطين، ولى وجهه شطر إنجلترا التى وإن كانت إذ ذاك لا علاقة لها بحكم فلسطين إلا أنها كانت قد احتلت مصر قبل ذلك بعشرين عاماً وقد أشار هيرتزيل في اقتراحاته على الحكومة البريطانية إلى أن

معاونيه وإن كانوا يعارضون في أن يكون وطن اليهود القومي أرضاً غير فلسطين إلا أنهم قد يوافقون على أن تكون هذه الأرض لفلسطين على اعتبار أن يكون استعمار هذه الأرض المجاورة تمهيداً لاستعمار فلسطين نفسها ولذلك اقترح على مستر جوزيف تشامبرلين الذي كان إذ ذاك وزير المستعمرات. أن يسمح للصهيونيين باستعمار قبرص فرفض تشامبرلين ذلك الاقتراح توا على أساس أن مجرد عرضه سيثير ثائرة أهالى قبرص اليونانيين والأتراك فاقترح هيرتزيل استعمار الأراضى المجاورة للعريش في الحدود المصرية المتاخمة لحدود فلسطين ولما كان هذا الأمر من اختصاص وزارة الخارجية البريطانية ثم تأليف لجنة صهيونية أرسلت برضاء سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر لدراسة احتمالات نجاح فكرة الاستعمار في أراضي العريش ولكن لورد كرومر ـ المعتمد البريطانى في مصر إذ ذاك ـ رفض باسم الحكومة المصرية أن يسمح بذلك الاستعمار.

ولا شك أن أهم ما دفع لورد كرومر إلى اتخاذ هذا القرار هو ما تبينه من أن السماح بذلك الاستعمار الصهيوني لأرض مصرية سيثير ثائرة الشعب المصري الذى أبى قبل ذلك بنحو ستين عاماً ـ أي في عام ١٨٥٠ ـ أن يسمح للصهيونيين بأن يستعمروا أرض فلسطين عندما كانت تلك الأرض جزءاً من مصر.

وقد حدث بعد ذلك أن قام مستر تشامبرلين برحلة في بعض المستعمرات البريطانية فلما عاد منها عرض على هيرتزيل أن يمنحه أرضا في شرق أفريقيا البريطانية واقعة في حدود المستعمرة المعروفة باسم كينيا وهى تمتاز بجوها الصحي وصلاحية أرضها للزراعة ومساحتها نحو مساحة فلسطين وأبدى الوزير البريطاني استعداده للسماح بإنشاء ولاية يهودية مستقلة استقلالا ذاتياً فيها

يحكمها حاكم يهودى. وقد سر هيرتزيل بذلك العرض ولكن الصهيونيين الفلسطينيين عارضوا المشروع معارضة عنيفة، وقضى هيرتزيل فى ٣ من يوليو سنة ١٩٠٤.

ولما اجتمع المؤتمر الصهيوني في عام ١٩٠٥ شكر للحكومة البريطانية عرضها وقرر رفضه.

ولما انعقد المؤتمر الصهيوني في لاهاى عام ١٩٠٨ «خطت الصهيونية خطوة عملية فقد قرر تأسيس شركة للأراضى الفلسطينية وتخصيص قرض يقدمه البنك الوطني اليهودي لبناء حي عصري للمهاجرين بالقرب من يافا ـ نواة مدينة تل أبيب ـ كما قرر اعتبار اللغة العبرية لغة التخاطب الرسمية للصهيونية».

٤ ـ وانشقت أقلية صهيونية عقب ذلك يزعمها إسرائيل زانجويل Zanguil أطلقت على نفسها اسم «الهيئة اليهودية الاستعمارية» Jewish Territorial جعلت هدفها البحث عن أرض غير فلسطين لكى تنشىء فيها مركزاً له استقلال ذاتي يضم اليهود الذين لا يستطيعون أن يظلوا فى الدول التى يعيشون فيها أو الذين لايجب أن يعيشوا فيها وقد فكرت هذه الهيئة في استعمار برقة ولكنها لم تستطع أن تحقق عملياً شيئاً من برنامجها إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.

ومن هذا البحث التاريخى يتضح أن الصهيونيين لم يجمعوا رأيهم قط على اتخاذ فلسطين وطناً قومياً. بل فكروا في الأرجنتين وقبرص وشبه الجزيرة سيناء وكينيا وبرقة وغيرها مما يقطع بأن المبرر لاختيار فلسطين لا أصل له.

فالصهيونية السياسية كانت ـ إلى إعلان حرب عام ١٩١٤ ـ تعني توجيه الجهود الصهيوني إلى إضفاء طابع سياسي على الحركة الصهيونية كتمهيد لاستعمار فلسطين أو أرض من الأراضي المجاورة لها. وكانت هذه السياسة هي سياسة غالبية الذين حضروا مؤتمر ١٩١١، ثم انتقلت زعامة الحركة الصهيونية إلى فريق «الصهيونيين الفلسطينيين»، ولكي يسهل هذا الفريق تحقيق سياسته، ويدفع الشكوك عن أهدافه التالية، أخذت قرارات المؤتمرات الصهيونية من عام ١٩١١ إلى عام ١٩٣٧ تنكر أن الصهيونيين قد قصدوا في الماضي أو يقصدون في المستقبل دولة يهودية في فلسطين، فقد ذكر رئيس مؤتمر ١٩١١ في خطبة الافتتاح:

«أن هدف الصهيونية هو تأسيس وطن لليهود فى فلسطين يعترف به علناً ويضمنه القانون. وطن فى أرض أجدادنا القديمة لادولة يهودية، حيث يمكن أن نعيش حياة يهودية بدون ضغط أو اضطهاد. إن ما نطالب به هو أن تعطى للمهاجر اليهودي إلى فلسطين فرصة الحصول على جنسية المواطن الفلسطيني بدون قيد. و أن يعيش طبقاً للعادات اليهودية بدون أن يحول عائق دون رقيه. وهذا دون غيره هو هدفنا».

وكانت نتيجة هذه الجهود أنه عندما أقبل عام ١٩١٤ ـ أي قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى ـ بلغ عدد اليهود فى فلسطين ٩٠ ألفاً من مجموع عدد سكانها الأصليين الذي كان يبلغ ثمانمائة ألف.

٥ ـ وفى ذلك الوقت عرف دكتور وايزمان ـ الذى كان قد عين محاضراً لعلم الكيمياء بجامعة مانشيستر ـ مستر اسكوت محرر صحيفة «مانشستر

جارديان» واستطاع عن طريق هذه العلاقة أن ينشىء صلات برجال الحكومة البريطانية، وقد حاول أن يتخذ خطى لتحقيق آمال الصهيونيين ولكنه لم يوفق فى بادىء الأمر إذ أن مستر اسكويث رئيس الوزارة البريطانية لم يكن ميالا إلى المشروع الصهيوني، ولكن مستر هيربرت صامويل استعرض في خطبة ألقاها بالجمعية اليهودية التاريخية عام ١٩٣٥ ما تم من جهود لتحقيق المشروع الصهيوني منذ نهاية عام ١٩١٤ فذكر أن اقتراحاً كان قدم يرى إلى وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية حتى إذا أصبح عدد المهاجرين اليهود كافياً لإنشاء دولة مستقلة أعلن حيادها كضمان ضد أي اعتداء عليها. كما استعرض حديثاً كان قد دار بينه وبين سير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية أوضح فيه مستر صمويل أن من الواجب استبعاد بيروت ودمشق من فلسطين بعد تحويلها إلى دولة يهودية لأن الأهالي غير اليهود فى تينك المنطقتين من الكثرة بحيث لا يمكن إندماجهم وإنسجامهم مع اليهود، وأشار بأن من الأفضل ترك المنطقتين لكي توضعا تحت رقابة فرنسا باعتبار أن جوار فرنسا للدولة اليهودية المنشودة أفضل من جوار تركيا، وأعد سير هيربرت صامويل مذكرة عن هذا الموضوع في نهاية عام ١٩١٤ وزعها على أعضاء الوزارة البريطانية فى مارس عام ١٩١٥ ولكن وزارة اسكويث لم تهتم بهذه المذكرة اهتماماً جديداً.

وفى مارس عام ١٩١٥ أي بعد إعلان الحرب العالمية الأولى بنحو ستة شهور وقعت بريطانيا وفرنسا وروسيا اتفاقاً سرياً ـ نشر فى شهر ديسمبر عام ١٩١٧ عقب الثورة الروسية وتولي الحكومة السوفيتية مقاليد الحكم ـ كان يرمي إلى توزيع الإمبراطورية التركية اعترفت فيه بريطانيا وفرنسا بحق روسيا في ضم القسطنطينية والمضايق وبعض مناطق متاخمة لحدود روسيا الجنوبية من جهة

تركيا الأسيوية فى مقابل اعتراف روسيا بحقوق بريطانيا وفرنسا في أجزاء أخرى من تركيا الأسيوية.

ورغم توقيع الحكومة البريطانية لهذا الاتفاق السري بدأ سير رونالد ستورس مفاوضاته فى أوائل عام ١٩١٥ مع الأمير عبد الله الأبن الأكبر للشريف حسين الذي كان إذ ذاك حاكماً على الحجاز من قبل الحكومة التركية لوضع أسس الاعتراف بحقوق العرب فى الاستقلال بعد أن تضع الحرب أوزارها وطرق مساعدة العرب للحلفاء فى حربهم ضد تركيا وقد رد الشريف حسين على ذلك بخطاب مؤرخ فى ١٤ من يوليو عام ١٩١٥ لم يوقعه وإنما وجهه إلى سير رونالد ستورس قرر فيه:

«لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء قد قرروا فى الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم.

ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة الحكومة البريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزها الجعرافى ومصالحهم الاقتصادية... يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثليها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولا: أن تعترف إنكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين ــ أدنه، حتى الخليج الفارسى شمالا ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هى ــ ومن البحر الأحمر، والبحر المتوسط حتى سينا غرباً».

وقد أجاب سير هنرى ماكماهون على هذا الخطاب فى ٣٠ من أغسطس عام ١٩١٥ بقوله:

«نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التى وصلت إلى سيادتكم عن يد علي أفندى وهي التي كان موضحاً بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها ... وأما عن خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها، وتصرف الأوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل فى حالة أن الحرب دائرة رحاها ولأن الأتراك أيضاً لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات فعلياً».

ولكن الشريف حسين لم يطمئن إلى غموض هذا الرد فكتب إلى سير مكماهون رسالة فى ٩ سبتمبر عام ١٩١٥ قرر فيها:

«هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد... ولذلك نرى أن من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد إنتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها.. وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة».

ورد سير ماكماهون على هذا الخطاب فى ٢٤ من اكتوبر عام ١٩١٥ بأن قرر:

«إن ولايتي مرسين وإسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة

الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه وحلب لايمكن أن يقال إنها عربية محضة.

وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة... إني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي:

١ ـ إنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلية في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة.

أما عن خصوص ولايتي بغداد والبصرة فإن العرب تعترف أن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة، وهذا الاحتياط الذى اهتم سير ماكماهون بوضعه لم يدفعه إليه إلا الاتفاق السري الذي كانت قد وقعته الحكومة البريطانية مع فرنسا وروسيا في شهر أبريل من نفس ذلك العام والذي وعدت فيه فرنسا بأن تحصل على قطعة «قيمة» من أراضي سورية إن لم تكن سورية كلها.

ولكن الشريف حسين أجاب في ٥ من نوفمبر عام ١٩١٥ بقوله:

«وأما ولايتا حلب وبيروت وسواحلهما فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فإنهما أبناء جد واحد... حيث أن الولايات العراقية هي من أجزاء المملكة العربية المحضة، بل هي مقر حكوماتها على عهد علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده... لا

يمكننا إرضاء الأمة العربية وإرضاخها لترك ذلك الشـرف.. يمكننـا الرضـا بـترك الجهات التي هي الآن تحت الإشغال البريطانى إلى مدة يسيرة،.... يدفع للمملكـة العربية في مدة الإشغال المقدار المناسب من المال».

وفى ١٤ من ديسـمبر عـام ١٩١٥ ذكـر سـيرماكماهون فـى خطابـه إلى الشريف حسين.

«أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومـة بريطانيـا العظمـى قـد فهمـت كل ما ذكرتهم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داحلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق.. وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقـة مـن أن بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شـروطه الأساسية حرية الشعوب العربية».

وكان لورد كتشنر ـ الـذى كـان عضـواً في الـوزارة البريطانيـة إذ ذاك ـ يشك في إمكان عد صحراء سينا وقاية كافية مـن الهجوم علـى قنـاة السـويس، وهذا الاعتبار العسكري الهام ربما أثـر فـى توجيـه الساسـة الإنجليـز الذيـن رأوا إنشـاء دولـة يهوديـة في فلسـطين لتـؤدي ذلـك الغـرض ولذلـك كلفـت وزارة الخارجية البريطانية سير جورج بوكـان سفيرها فى بتروجراد بتقديـم مذكـرة إلى سـازانوف وزيـر الخارجيـة الروسـية لمعرفـة رأي الحكومـة الروسـية في مشـروع استعمار اليهـود لفلسـطين وتـاريخ هـذه المذكـرة ١٣ مـن مـارس عـام ١٩١٦ ونصها «مذكرة مقدمة من السفارة البريطانية في بـتروجراد إلى مسـتر سـازانوف وزير الخارجية ـ وصلت برقية مـن سـير إدوار جـراى تقـرر أن إهتمـام حكومـة

جلالة الملك قد انصرف أخيراً إلى مسألة الاستعمار اليهودي في فلسطين، ومع أن كثيرين من اليهود لا يكترثون لفكرة الصهيونية كما هو معروف، فإن طائفة كبيرة العدد شديدة النفوذ منهم في جميع الدول ستقدر تقديراً عالياً الاقتراح الخاص بوضع اتفاق عن فلسطين يحقق الآمال اليهودية تحقيقاً كاملا. فإذا كانت وجهة النظر المشار إليها آنفاً صحيحة فإن الواضح أن نتائج سياسية هامة يمكن الوصول إليها بواسطة الانتفاع من الفكرة الصهيونية، وإحدى هذه النتائج هي اجتذاب العناصر اليهودية في الشرق وفى الولايات المتحدة وغيرهما إلى جانب الحلفاء وهي العناصر التى يدل موقفها الحالي من قضية الحلفاء على العداء إلى حد كبير».

٦ ـ وفى منتصف مارس عام ١٩١٦ وقعت بريطاليا وفرنسا اتفاقاً حرصت الحكومتان على أن يبقى سراً وعرف فيما بعد باسم اتفاق «سايكس ـ بيكو» نسبة إلى مندوبي الحكومتين اللذين وقعاه وهما مسيو جورج بيكو أحد قناصل فرنسا السابقين في بيروت وسير مارك سايكس أحد المتوفرين على دراسة الشئون الشرقية وقد نص هذا الاتفاق على تقسيم الشرق الأوسط العربي إلى خمس مناطق وهى: «المنطقة الزرقاء» التي تشمل منطقة تبدأ على البحر الأبيض المتوسط قرب مرسينا إلى قونية أعطيت فيها لفرنسا الحرية فى إنشاء رقابة مباشرة أو غير مباشرة كما يتراءى لها بالاتفاق مع الدولة العربية أو اتحاد الدول العربية التي أشار الإتفاق إلى إنشائها.

و «المنطقة ا» وتشمل دمشق وحمص وحما وحلب وقد وصفت بأنها منطقة نفوذ فرنسية.

و «المنطقة الحمراء» وتشمل الجزء الجنوبي من العراق وقد أعطيت فيها

لإنجلترا نفس الحقوق التي أعطيت لفرنسا في المنطقة الزرقاء وفرضت عليها نفس الإلتزامات.

و «المنطقة ب» وتشمل الشاطىء الشرقي للخليل.

والمنطقة الخامسة سميت «المنطقة السمراء» وتشمل فلسطين في حدودها الحالية باستثناء بير سبع والنقب وجزء من الخليل. ونص اتفاق «سايكس ـ بيكو» على أن المتعاقدين يقران بالنسبة لمنطقتى أ،ب قيام دولة عربية مستقلة أو اتحاد بين دول عربية تحت سيادة حاكم عربى، أما بالنسبة للمنطقة السمراء فقد أرجىء البت في أمرها نظراً لطبيعتها الدينية الخاصة حتى تتم إدراتها دولياً طبقاً لنظام يتفق عليه مع روسيا وشريف مكة، وقد اعترضت فرنسا في بادىء الأمر على فكرة الإدارة الدولية المقترحة لفلسطين باعتبار أنها ما دامت جزء من سورية فهي جزء من المنطقة التى نص الاتفاق على الاحتفاظ بها لها، ولكن عندما سافر المندوبان إلى بتروجراد للتشاور مع الحكومة الروسية إدعى سازونوف وزير الخارجية الروسية أن لدولته حقوقاً في فلسطين نظراً لكثرة عدد المؤسسات الروسية في القدس والخليل ونابلس والناصرة وأبدى أنه لذلك يطالب بوضع فلسطين تحت الحماية الروسية، فلما تبينت فرنسا موقف روسيا وخشيت مغبة عواقبه انضمت إلى جانب إنجلترا وأقرت وضع المنطقة السمراء تحت الإدارة الدولية.

وفى ٢٤ من مايو عام ١٩١٧ نشرت صحيفة «التيمس» بياناً من رئيس مجلس إدارة الجمعية الإنجليزية اليهودية ورئيس مجلس إدارة جماعة النواب البريطانيين اليهود قرروا فيه أنهما وإن كانا لا يعارضان الصهيونية السياسية التي

ترمي إلى إنشاء دولة يهودية إلا أنهما يريان أنه لو استقر اليهود فى فلسطين كشعب فإن اليهود الذين يبقون في الدول الأخرى التي اتخذوها وطناً لهم سينظر إليهم كأجانب. كما أن فرنسا عارضت فكرة وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية لأنها وإن كانت قد تنازلت عن دعواها الخاصة بفلسطين باعتبارها جزء من سورية كما رأينا فإنها لم تتنازل عنها لبريطانيا بل إنها وافقت فقط على أن تكون تحت رقابة دولية بفكرة أنها ستكون إحدى الدول التى تتولى تلك الرقابة. ولما تبينت الحكومة البريطانية صعوبة التغلب على معارضة فرنسا وافقت على إدخال المناطق ـ التى كان مقرراً طبقاً لاتفاق «سايكس ـ بيكو» أن تتمتع بشبه استقلال، في النفوذ الفرنسى وبذلك حصلت على موافقة فرنسا على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية.

٧ ـ وفى ٢ من نوفمبر عام ١٩١٧ ـ وبعد أن مهدت الحكومة البريطانية للغدر بفلسطين ـ أرسل مستر أرثر جيمس بلفور خطابه الذى عرف فيما بعد باسم وعد بلفور إلى لورد روتشيلد وذكر فيه:

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بارتياح إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي وستبذل كل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا الغرض على أن يكون مفموماً جلياً أنه لن يعمل شيء يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة الآن بفلسطين أو بالحقوق السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أية دولة أخرى».

٨ ــ وفى ديسمبر عام ١٩١٧ ــ وفى نفس الوقت الذى كانت المراسلات مستمرة فيه بين سير ما كماهون والشريف حسين وهي المراسلات

التي رأينا أن الحكومة البريطانية كانت تكرر فيها تعهداتها بإعلان حرية الشعوب العربية وتأييد هذه الحرية ـ نشر اتفاق «سايكس ـ بيكو» الذى ظل سراً منطوياً على الغدر بفلسطين وغيرها من الأقطار العربية، وكان نشره وإزاحة الستار عنه مع الاتفاق الثلاثى بين بريطانيا وفرنسا وروسيا عقب تولي الحكومة السوفيتية الحكم فى ديسمبر عام ١٩١٧ فأسرع جمال باشا قائد القوات التركية التي كان يحاربها الجنرال اللنبى بإرسال نسخة من الوثائق التى أذيع سرها إلى الأمير فيصل بالعقبة وطلب من فيصل أن ينضم إلى جانبه في محاربة عدو مشترك بعد أن انفضحت نوايا هذا العدو واتضح الدليل القاطع على أنه باع العرب وخان ثقتهم. وعرض عليه توقيع صلح عربي تركي ينص فيه على استقلال جميع أجزاء الإمبراطورية العثمانية التي للناطقين باللغة العربية أغلبية فيها.

وتصرف حسين إزاء هذا الغدر تصرف رجل عربي شريف إذ أرسل جميع الوثائق والمكاتبات التى وصلت إليه إلى الجنرال ونجت المعتمد البريطاني في مصر وطلب إيضاحاً صادقاً. وقد جاء الرد في ٨ من فبراير عام ١٩١٨ من الحكومة البريطانية في رسالة من الكونيل ياسيت Basset المقيم البريطاني في جدة إذ ذاك ذكر فيها:

«إن حكومة جلالة الملك وحلفاءها سيقفون ثابتين إلى جانب كل حركة ترمي إلى تحرير الشعوب المضطهدة وقد استقر عزمهم على أن يقفوا إلى جانب الشعوب العربية في كفاحها لإنشاء عالم عربى يحل فيه القانون محل الاضطهاد التركى... إن حكومة ملك بريطانيا تعيد تأكيدها لسابق ضمانها الخاص بتحرير الشعوب العربية».

وفى مارس عام ١٩١٨ ألفت لجنة برئاسة دكتور وايزمان انضم إليها ممثلون لوزارة الخارجية الإنجليزية. وقد ذهبت إلى فلسطين ومرت بالقاهرة.

٩ ـ وفى تلك الأثناء قدم سبعة من زعماء العرب هم السادة رفيق العظم وكامل القصاب ومختار الصلح وعبد الرحمن شبندر وخالد الحكيم وفوزى البكري وحمادة مذكرتهم التاريخية وقد طالبوا فى هذه المذكرة بأن يقفوا على المصير المعد للعراق وسورية وفلسطين وقد وجهت الحكومة البريطانية تصريحاً إلى الزعماء السبعة فى ١٦ من يوليو عام ١٩١٨ بواسطة الضابط هوجارت Hogarth ومستر والروند قسمت فيه الأقطار العربية إلى:

(أ) مناطق كانت مستقلة قبل إعلان الحرب.
(ب) مناطق حررت من الحكم التركي بواسطة أنفسهم.
(جـ) مناطق كانت تحت الحكم التركي واحتلتها قوات الحلفاء في تلك الحرب.
(د) مناطق لا تزال تحت الحكم التركى.

فبالنسبة للمنطقتين الأول والثانية، اعترفت الحكومة البريطانية باستقلالهما التام وسيادتهما الكاملة وتعهدت بتأييد هذا الاستقلال، وبالنسبة للمناطق التى كانت تحتلها قوات الحلفاء، صرحت بريطانيا بأنها ترغب في أن يقوم نظام الحكم المستقبل فيها على أساس رضاء المحكومين فيها.

وبالنسبة للمناطق الأخيرة، صرحت بأنها ترغب في أن تحصل شعوبها على الاستقلال بعد ان أشارت بعبارات عامة إلى الصعوبات التي اعترضت من كانوا يعملون لتحرير تلك الشعوب.

وعندما أبلغ هذا التصريح إلى الزعماء السبعة في يونيو عام ١٩١٨، لم تكن قد احتلتها القوات العربية، وقد تم ذلك الاحتلال في سبتمبر عامئذ، وفي الثالث من أكتوبر، أعلن إنشاء دولة عربية في بيروت قبل وصول قوات الحلفاء ببضعة أيام، وبذلك كان يجب أن تعد تلك المناطق من المناطق المستقلة طبقاً للتصريح البريطاني إلى الزعماء السبعة، ولكن بعد أن رفع العلم، وحاول تغطية ذلك الغدر بالتصريح البريطانى بأن أرسل إلى الأمير فيصل، الذى كان قد احتل بيروت، يزعم أن ذلك الإجراء العنيف الذى اتخذه ضده إنما كان إجراء وقتياً، وأنه لا يمس التسوية النهائية للموقف، وأن «الحلفاء قد ارتبطوا بشرفهم بأن يحاولوا جهدهم الوصول إلى تسوية نهائية تطابق رغبات الشعوب التي يهمها الأمر»، وطلب القائد البريطاني من الأمير العربي «أن يضع ثقته القلبية في حسن نيتهم».

وقد ثبت أن السلطات العسكرية البريطانية لم تكن ترغب قط في أن يسبقها العرب إلى احتلال دمشق، ولذلك أرسل الجنرال Dauney تحذيراً إلى الأمير فيصل بألا يندفع في الهجوم، وزعم أن ذلك الاندفاع لو فشل لأصبح العرب فى وضع لا تتسنى مساعدتهم فيه.

١٠ ـ وفى ٧ من نوفمبر عام ١٩١٨ أعلنت الحكومة الفرنسية أنها بالاتفاق مع الحكومة البريطانية قد قررتا إصدار تصريح مشترك لجميع الشعوب غير التركية التى بين طوروس والخليج الفارسي، تؤكدان فيه أن الدولتين ــ كل في منطقتها تعتزمان أن تضمنا لتلك الشعوب استقلالها التام، يحدوهما هدف ضمان تحريرها وتقدم حضارتها.

ولكن الأمير فيصل أبعد عن دمشق بمدافع الفرنسيين ومزقت ولاية سورية فأعطي الجزء الجنوبى منها حتى العقبة إلى بريطانيا كما أعطيت ولاية حلب وجزء من ولاية بيروت إلى فرنسا باعتبار أنها أسلاب حرب كما سنرى لاحقاً.

ولقد كان من نتيجة عمل اللجنة الصهيونية التي ذهبت إلى فلسطين في أبريل عام ١٩١٨ ـ وقوامها ثلاثة من اليهود البريطانيين ويهودي فرنسى وثلاثة يهود إيطاليين ويرافقها مراقب عن الولايات المتحدة، لتحقيق الحالة التى عليها المستعمرات اليهودية فى فلسطين وللأشراف على إصلاح الضرر الذي أصيبت به المستعمرات الصهيونية أثناء الحرب إلى الحد الذى تسمح به الظروف ـ كان من نتيجة عمل هذه اللجنة أن أنشىء إلى جانب السلطة العسكرية البريطانية نظام حكم صهيون تولاه خمسة من اليهود في فلسطين أحدهم عين في القاهرة والثاني في الإسكندرية والثالث في بورسعيد وكان اختصاص هذه الهيئة بإدارتها وفروعها مصمماً لكي يمتد إلى كل النشاط الداخلي الذي يمكن أن يقوم على أساسه حكم دولة عصرية وقد تبينت السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين منذ بادىء الأمر أنها لايمكن أن تعمل إلى جانب هذه الإدارة الصهيونية فأرسل رئيس الإدارة العسكرية تقريراً إلى حكومته بلندن اعترف فيه بأنه:

«من العبث أن تزعم للمسلمين والمسيحيين من الشعب أن تصريحنا السابق الذى تعهدنا فيه بالاحتفاظ بالحالة التى كانوا عليها عند دخولنا إلى القدس قد احترم فإن الحقائق تكذبنا كالاعتراف باللغة العبرية كلغة رسمية وإقامة قضاء يهودي وترك اللجنة الصهيونية تؤدى عمل آلة حكومية كاملة ... إنى أوصي لذلك ولتحقيق السلم والتقدم بل ولتحقيق مصالح الصهيونيين أنفسهم بوجوب إلغاء اللجنة الصهيونية في فلسطين».

١١ - وفى ٣ من يناير عام ١٩١٩ كان الصهيونيون قد اتصلوا بفيصل في لندن وباريس «وأخذ وايزمان يزين له مزايا الاتفاق بينهما وما يعود به من خير على العرب. وكان إلى جانب فيصل الكولونيل لورنس ساعده فى المجامع الدولية.

وكان «لورنس» كإنجليزي يرى حينئذ أن المصلحة في مهادنة الصهيونية فتمكن من إقناع فيصل بالدخول في مباحثات مع اليهود. ولم يحفظ لنا التاريخ محاضر هذه المباحثات حتى نرجع إليها، بيد أن المصادر الأجنبية تنبؤنا بالنص التالى للاتفاق الذى وقعه فيصل ووايزمان نتيجة هذه المباحثات:

«صاحب السمو الملكي فيصل يمثل ويعمل لصالح مملكة الحجاز العربية والدكتور حاييم وايزمان يمثل ويعمل لصالح الصهيونية. مع ذكرهما القرابة العنصرية والروابط القديمة الكائنة بين العرب واليهود وإدراكهما أن أضمن وسيلة لتحقيق أمانيهم القومية هي التعاون لترقية الدولة العربية وفلسطين، وبما أنهما يرغبان زيادة على ذلك في تأييد التفاهم الطيب القائم بينهما اتفقا على المواد الآتية:

المادة الأولى: يجب أن تسود الدولة العربية وفلسطين في جميع علاقاتهما وأعمالهما روح تفاهم تام قائم على أساس الإخلاص وحسن النية. ولهذه الغاية يوفد ممثلون عرب ويهود مفوضون تفويضاً رسمياً إلى كل من البلدين.

المادة الثانية: تخطط الحدود النهائية بين الدولة العربية وفلسطين بواسطة لجنة يتفق عليها الفريقان حالما تتم مفاوضات مؤتمر السلام.

المادة الثالثة: تؤخذ جميع التدابير وتعطى أفضل الضمانات لتطبيق تصريح الحكومة البريطانية الصادر يوم ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ حين وضع دستور حكومة فلسطين ونظامها الإداري.

المادة الرابعة: تتخذ كل التدابير لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتقويتها بمقياس كبير، ويسرع على قدر ما تسمح به الظروف في إسكان المهاجرين اليهود في الأراضي، وتصان حقوق الفلاحين العرب ويساعدون في تقدمهم الاقتصادي.

المادة الخامسة: لا يوضع نظام أو قانون يمنع أو يحول بأية طريقة دون ممارسة الأديان بحرية كاملة، ويسمح أيضاً بدون قيد ولا شرط بحرية العقائد والعبادات بدون تمييز أو تفضيل، وتمارس الحقوق المدنية والسياسية.

المادة السادسة: تكون المقدسات الإسلامية تحت إشراف إسلامي.

المادة السابعة: ترسل الجمعية الصهيونية إلى فلسطين لجنة من الخبراء لدرس قابلية البلاد الاقتصادية وتقدم تقريراً عن أفضل الوسائل لتحسينها، وتضع الجمعية الصهيونية هذه اللجنة تحت تصرف الحكومة العربية لدرس قابلية المملكة العربية الاقتصادية وتقديم تقرير عن أفضل الوسائل لتحسينها، وتستخدم الجمعية الصهيونية خير جهودها لمساعدة الحكومة العربية في إعداد الوسائل لتحسين الموارد الطبيعية والقابلية الاقتصادية في بلادها.

المادة الثامنة: تحكم الحكومة البريطانية في كل خلاف يبدو خلال تطبيق أحكام هذا الاتفاق.

تحفظ بخط الأمير فيصل:

«إن نال العرب استقلالهم وفقاً للمطالب التى تضمنتها مذكرتي إلى وزارة الخارجية البريطانية كان هذا الاتفاق صالحاً، وإن رفضت هذه المطالب كلها أو بعضها، أعتبر نفسي طليقاً من كل قيد وأعتبر هذا الاتفاق لاغياً».

١٢ ـ وفى أول مايو عام ١٩١٩ أذيع رسمياً بمدينة نابلس، وعد بلفور الذى كان قد صدر فى ٢ من نوفمبر عام ١٩١٧ وكانت إذاعته على لسان الجنرال لويس بولز Louis Bols، أي بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على صدوره، إذ أن لورد اللنبى كان قد وعد بإخفاء أمر ذلك الوعد حتى يحين الوقت المناسب لإذاعته.

وفى عام ١٩١٩ أرسل الرئيس «وودرو ويلسون» لجنة «كنج ـ كرين» إلى فلسطين وهذه اللجنة مؤلفة من الدكتور هنرى تشرشل كنج King رئيس جامعة «أوبرلين» Oberlin وشارلزكرينCrane أحد رجال الصناعة في شيكاجو وعضو اللجنة الأمريكية التى أوفدت إلى روسيا عام ١٩١٧ وقد كلفت اللجنة بزيارة فلسطين وغيرها من الأراضى العربية في الشرق الأدنى التى كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية لدراسة أحوالها. وعقب عودتها قررت اللجنة أن «وطناً قومياً للشعب اليهودي لا يعني إقامة دولة يهودية وأن هذه الدولة لا تمكن إقامتها بدون إرتكاب أخطر أنواع الاغتصاب للحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية التى تعيش الآن في فلسطين».

١٣ ـ وفى ٣٠ من يونيو عام ١٩٢٠ سلم رئيس الإدارة العسكرية البريطانية بفلسطين سلطاته إلى سير هربرت صامويل الصهيوني البريطانى الذى

عين مندوباً سامياً، وبـدأت السـلطة المدنيـة عملهـا في أول يوليـو عـام ١٩٢٠، وهي السلطة التى عهد إليها. بتنفيذ شروط انتداب بريطانيا لإدارة فلسطين مـن قبل عصبة الأمم.

وقد نص ميثاق العصبة في المادة الثانية والعشرين على المبـدأ الـذى يطبـق في إدارة بعض الأقطار بواسطة العصبـة باعتبـار أن تلـك الأقطـار أمانـة في عنـق العصبة ائتمنتها المدنيـة عليهـا، وقسـمت المـادة هـذه الأقطـار إلى ثلاثـة أقسـام: (أ،ب،جـ) ـ ونصت الفقرة الرابعـة مـن المـادة علـى أن «بعـض الجماعـات الـتي كانت من قبل تابعة للإمبراطورية التركية قد وصلت إلى درجة من التقدم تسـمح بالاعتراف بها مؤقتاً كشعوب مستقلة على أن تندب دولة لتتولى إرشادها إدارياً ومساعدتها حتى يحين الوقت الذى يمكنها فيه أن تستأثر بحكم نفسها ويجب عـد رغبات هذه الجماعات كاعتبار رئيسى فى اختيار الدولة المنتدبة».

وقد بدأ تنفيذ التداب بريطانيا لإدارة فلسطين، باسـم عصبـة الأمـم، فـى سبتمبر عام ١٩٢٣.

المملكة المتوكلية اليمنية

بينما كانت الأحداث تتسارع فى بلاد الشام، والدول الاوربية الإستعمارية تستعد لإقتسام غنائم الحرب بعدما يضربون عرض الحائط بكل الوعود والمواثيق التى أعطوها لقادة الثورة العربية أعلن في اليمن عن قيام المملكة المتوكلية اليمنية

هكذا أحب أن يسميها الإمام يحيى بعد ما أطلق على نفسه أسم المتوكل على الله. وذلك عندما تشكلت كدولة مستقلة عام ١٩١٨ واعترفت فيها جميع دول العالم.

ومنذ اللحظة الأولى لقيامها كمملكة متوكلية يمنية بزعامة الإمام يحيى محمد المنصور حميد الدين. تميزت بالفوضى الدينية لمصلحة الإمام المطلقة. فقد أصبح الزعيم الديني للبلاد إضافة لكونه القائد الأعلى لليزيدية.

مما جعله يعطي الأولوية للدين قبل السياسة. ويمارس كافة سلطاته وفقاً للتعاليم اليزيدية. وقام بتكييف آيات القرآن الكريم والنصوص الشرعية وفقاً لأهواء جماعاته من ذوي الامتيازات والمصالح واضعاً مصلحته ومصلحة أسرته على رأس سلم الأولويات.

وإبان تأسيس المملكة كانت غالبية السكان من اليزيديين حيث كانت نسبتهم ٥٤,٥٪ من أتباع المذهب الشافعي. وحوالي ٥٪ من المذهب

الإسماعيلي. وكان هؤلاء يشعرون بالظلم والإحباط خاصة أن المذهب اليزيدي ينظر لإمامه على أنه التجسيد الأرضي للسلطة الإلهية.

فهو وحسب مفهومهم. فوق كل انتقاد. إذ أنه لايذنب.

وشخصيته لا يمكن أن تمس بأذى. فهو خليفة الله على الأرض.

وكان في اليمن آنذاك ١٦٧ قبيلة. وكانت غير متجانسة إذ كان لكل منها أعرافها وتقاليدها الخاصة. وكانت القبائل منغلقة على نفسها بحيث يتمسك كل منها بمساحة من الأراضي الخاصة بها.

وبقوة مسلحة وأحلاف تجمع بين بعضهم لفترات محدودة. وكانت بكل ذلك مخالفة للشريعة الإسلامية.

وكان أعضاء القبائل مسلحين على الدوام بأسلحة فردية خاصة تجعلهم يغترون بأنفسهم ويتمسكون باستقلاليتهم. ولا يثقون بالعالم الخارجي. بل ينظرون له نظرة عدائية على الدوام. ويحتقرون العلم والمعرفة. ويحللون لأنفسهم السرقة والسلب والنهب وخاصة من سكان المدن. حيث كانوا يسرقون ويحطمون ويقتلون كل ما تطاله أيديهم. مما جعل سكان المدن يحيطون مدنهم بالأسوار الدفاعية.

وكانت مساحة المملكة آنذاك «١٩٥» ألف كيلومتر.

وبسبب اختلاف الظروف المناخية والتضاريسية فقد كانت هناك أختلافات في شروط وطرق الزراعة. حيث ان مساحة الأراضي الصالحة للزراعة

آنذاك لا تتعدى ٢٪ فقط من مجموع المساحة. كما كانوا يحرثون المناطق الجبلية ذات الخصوبة العالية على شكل مدرجات.

أما عدد السكان فلم يكن هناك أحصاء دقيق لهم. إلا أنه يمكن القول أن حوالي ١٠٪ منهم كانوا في المدن.

وبسبب الجهل والأمية فإن المنتوج الزراعي كان يأخذ بالإنخفاض التدريجي. فعلى سبيل المثال كانت البلاد هناك غنية بالبن. وكان بإمكانها تنميته وتصديره للخارج. إلا أن السكان كانوا يقتلعون نبتة البن ليزرعوا مكانها نبتة القات المحتوية على مادة مخدرة. فهي نبتة غالية الثمن. ولكن السكان. وبرغم العوز والفقر الذي يعانون منه فإنهم يمضغون تلك الأوراق الغالية الثمن.

أما من حيث التعليم فقد كان حوالي ٩٠٪ من السكان أميين تماماً حتى عام ١٩٦٢.

وكانت تجارة العبيد سائدة لديهم. وكان مالك العبيد يتصرف بهم كما يشاء. بيعاً أو إهداءً. أو عقاباً أو قتلاً. كما كانت بعض العائلات تستخدمهم في الأعمال المنزلية.

أما نظام الخدمة فقد كان أكثر إذلالاً من نظام العبيد. وكان الخدم في حضيض المجتمع اليمني. لأنهم جميعاً من ذوي الأصول الحبشية. فقد كانوا يعاملون بقسوة وحقد وقهر التقاماً منهم. لأن اليمن رزحت تحت حكم الاحتلال الحبشي ما بين ٥٢٥ ـ ٥٧٥م.

وكان الإمام يخشى كثيراً من الثقافة والمعرفة بحيث يقول أن أي شيء

تتعلمه غير العبادة وطاعة السلطان هو كفر يوجب القتل. وكان يضع كل العراقيل أمام محاولات تحديث العلم. وكان يجعل تعاليم المذهب اليزيدي حجر الزاوية ويجب على الطالب معرفته أولاً بحيث لا يخرج عن طوع الإمام مستقبلاً أمام أية مفاهيم علمية حديدة.

أما في علاقاته الخارجية فقد أحاط شعبه بسياج من العزلة التامة عن العالم الخارجي بهدف إبعاد شعبه عن حركات التغيير التى أخذت تجتاح العالم كله في تلك الفترة.

وكانت كافة العلاقات الخارجية محصورة بالإمام نفسه وقد ابتدأت عندما أحس أن الإنكليز يدعمون الشافعيين في مملكته ويحرضونهم ضد سلطة الإمام. وقد فعلت بريطانيا ذلك لأن الإمام رفض أن يعترف لها بحقها في الوصاية على عدن والمشيخات الجنوبية.

وقد برز الإمام كقوة جديدة بوجه الإنكليز في شمال اليمن لأنهم عندما اسنحبت تركيا بنهاية الحرب الأولى أضافوا إلى منطقة نفوذهم في عدن والمحميات أرضاً يمنية جديدة وهي الجديدة واللحية. وعندما ابتدأ خلافهم مع الإمام اتبعوا طريقة خبيثة وهي أنهم سلموا اللحية إلى حليفهم الشيخ الإدريسي ليوقعوا بينه وبين الإمام. بحيث تكون هناك حرباً أهلية.

أما الحديدة فقد احتفظوا بها. وهي القسم الرئيسي للقسم الشمالي من اليمن. لأن بريطانيا كانت تريد ابقاء يدها الطولى في المنطقة. ومن ثم تريد محاصرة القومية العربية التي بدأت بالتوالد.

وبعد عقد من الزمن أخذت عدن تتأرجح بين لندن والهند فقد كانت عدن ومنذ احتلالها عام ١٨٣٩ تتميز بالفوضى الإدارية والتعقيدات بسبب عدم ثباتها تحت جهة محددة. وعندما لاحت في الأفق فكرة استقلال الهند بدأ الإنكليز يرفعون شعارات عربية بقولهم أن عدن عربية وأن مستقبلها مع العرب وليس مع الهند.

كما صرح أحد مسؤوليهم أنذاك أن لندن لا تتقاسم أمبراطوريتها مع الهند المستقلة.

بينما بريطانيا كعادتها لايمكن أن تكشف أوراق سياستها كاملة فقد لاحظ الدارسون أن سياستها تجاه الإمام قد شابها الغموض والتخبط ويبدو أنها اتجهت بخشية نحو الشيخ سعيد في باب المندب.

وكانت تخطط لإقامة دولة مستقلة في مناطق تعز والحجرية. لتكون بمثابة الحاجز بين قاعدة عدن ومملكة الإمام يحيى بعد خروج الأتراك.

وكان أمام بريطانيا في تلك الفترة عدة بدائل مختلفة فهي إما أن تعطي الإمام معظم المحميات مقابل الحصول منه على امتيازات تجارية. وإما أن ترغم الإمام على الأعتراف بخط حدود ١٩٠٥ الذي تم بينهم وبين الأتراك.

وإما تجاهل الإمام تماماً وتدعيم السلاطين في المحميات.

وعندما أدرك الإمام أن الإنكليز لا زالوا يحتلون ميناء الحديدة بعدما غادره الأتراك. قام بالهجوم والإستيلاء على بعض المحميات القريبة من مناطق نفوذه فرد عليه الإنكليز في شباط ١٩٢٢ بضرب قواته بقنابل الطائرات. مما

أحدث الفزع في قلوب الإماميين لأنهم لم يشاهدوا ذلك من قبل. وساد الذعر مدينة صنعاء بأكملها مما دفع بالإمام لنقل كثير من نقوده الذهبية وتحفه الثمينة والأسلحة والذخائر من العاصمة إلى المدن الشمالية والكهوف الحصينة في البلاد.

ثم نشط الإمام مجدداً وحرر نشرات أرسلها إلى سلاطين وأمراء المحميات يقول فيها إن البلاد واحدة. وشعبها واحد. ودينها واحد. ولغتها واحدة.

وطالب الإمام في نشراته بأراضي أجداده في جنوب اليمن.

وأبدى استعداده لتقديم تنازلات حول أسلوب إدارتها ولكن ليس على حساب سيادته عليها.

وأعلن عن استعداده للتخلي عن المناطق الساحلية من لحج إلى المكلا لبريطانيا. أما مناطق الحواشب ويافع فيمكن بقاءها تحت حكامها الحاليين شريطة أن يحكموا بمقتضى الشريعة.

وبالنسبة للضالع وبقية الإمارات فيجب أن يحكمها مباشرة وعلى طريقة المذهب الشافعي.

وفي نفس السنة قامت القوات الإمامية باحتلال الضالع والقصيب والشعيب والعلوي وبلاد الأجعود. وأقساماً من الأميري ويافع العليا والعواذل والصبيحة. وكان الهدف المباشر من كل ذلك هو ارغام الإنكليز على إعادة ميناء الحديدة. لكن الإنكليز اتبعوا نفس طريقتهم السابقة بأن سلموا الحديدة للإدريسي. مما جعل الإمام ينتظر بعض الوقت حتى مات الإدريسي وانقسمت

عائلته فاستردها بالقوة ووجه بذلك صفعة سياسية واقتصادية لبريطانيا كما أنه كسب ثقة البسطاء من عامة الشعب. أما المناطق التي سبق له أن احتلها من قبل فقد أخضعها لسلطة نفوذه.

وقد استفادت بريطانيا مرة ثانية من أسلوب الحكم الظالم الذي اتبعه الإمام لدى رعيته في تلك المحميات حيث أن الكثيرين من المشايخ ورؤساء القبائل التجؤا إلى الحكومة البريطانية في عدن لإنقاذهم من ظلم الإمام فقام البريطانيين بضرب الضالع وقعطبة والنادرة وذمار ومريم وتعز ومعاوية ثم أنزلوا أسطولهم البحري في مواجهة السواحل اليمنية. ودخلوا الحديدة. مما جعل الإمام يرضخ مرغماً لإبرام اتفاقية مع الإنكليز بتاريخ ١١ شباط ١٩٣٤ وقد تضمنت اعتراف بريطانيا باستقلال جلالة ملك اليمن حضرة الإمام ومملكته استقلالاً كاملاً مطلقاً في جميع الأمور مهما كان نوعها. على شرط أن يؤجل البت في مسألة الحدود اليمنية إلى أن تتم مفاوضات تجري بينهما قبل انتهاء مدة المعاهدة وهي ٤٠ أربعون عاماً.

ووافق الفريقان بالمقابل على بقاء الوضع القائم بالنسبة للحدود كما هي عليه عند توقيع المعاهدة. وقد وافق الإمام مرغماً بسبب بدء صراع جديد بينه وبين ابن سعود في الشمال.

واستفادت بريطانيا من هذه الاتفاقية وأخضعت المحميات نهائياً لنفوذها فيما بعد حيث قامت بإنشاء جيوش محلية صغيرة في كل محمية لتدعم سلاطينها. ثم قامت بلملمة الإمارات والمحميات في اتحاد تحت إمرتها في الخمسينات.

أما السلطان ومنذ بدء حربه مع بريطانيا فقد عمد إلى توقيع اتفاقية مع

ايطاليا الفاشية. وكانت معاهدة صداقة وتجارة أرسل الإيطاليون بموجبها إلى اليمن عام ١٩٢٨ أسلحة ومهندسين وأطباء وفي عام ١٩٣٠ عزز الإمام علاقاته مع بلجيكا وفرنسا.

وعندما احتدم النزاع بين الإمام وابن سعود وحققت القوات السعودية النصر على قواته قرر تطوير جيشه. وطلب من إيطاليا مساعدته لكنها رفضت تزويده بالسلاح المطلوب مما جعل العلاقات بينهما تتدهور مجدداً.

وقد ابتدأ بعد ذلك يفكر بالصداقة العربية حيث قام عام ١٩٣٦ بزيارة سورية. وفي عام ١٩٣٧ زار العراق. ثم انضم إلى معاهدة الأخوة والصداقة مع العراق والسعودية.

وكان قد عقد مع السوفيت اتفاقاً عام ١٩٢٨ أرسل له الروس بموجبه البترول والسكر والدقيق والكبريب والإسمنت والصابون.

